اللغة والنحو

دراسات تاريخية وتحليلية ومقارنة

تأليف

الدكتور حسن عون

الاستاذ المساعد بكلية الآداب

جامعة الاسكندرية

الطبعة الأولى

سنة ١٩٥٢م

فهرس محتويات الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

منذ عام ونصف عام تقريباً ظهرت الطبعة الاولى من كتابنا عن العراق وتاريخ حضاراته ؛ ولم يكن ذلك فى الواقع سوى خطوة أولى ، ولكنها ضرورية جداً لدراسة الحضارة الإسلامية ؛ إذ أن بيئة العراق تعتبر أهم بيئة بالنسبة لهذه الحضارة فقد احتضنتها منذ أيامها الأولى وغذتها بثمار حضارات تركزت فيها منذ آلاف السنين ، وبقيت تمدها بنتاج عقليات أجنبية تفد إليها من الشرق طوراً ومن الغرب طوراً آخر ؛ وليس هناك من سبيل لدراسة الحضارة الاسلامية دراسة عميقة ، وفهمها فهماً صحيحاً إلا إذا درست أصولها وبيئاتها وعرفت مصادرها ومدى ما يمكن أن يتصور من تبادل وامتزاج بين العقلية العربية والعقليات الاجنبية .

ولقد قمنا بهذه الخطوة فى ذلك الكتاب الذى أشرنا اليه منذ سطور وحرصنا على أن نبين فيه أكثر من مرة أن هدفنا من تأليفه إنما هو التمهيد لدراسة الحضارة الاسلامية فى مختلف مظاهرها على أسس علمية صحيحة وفق مناهج البحث الحديث ، فينبغى منذ الآن ألا يكتفى بعرض تلك الحضارة الإسلامية عرضاً عاماً أو وصفها وصفاً شاملاً ، صنيع العلماء والمؤلفين فى الشرق ، سواء منهم القدماء والمحدثون ؛ وإنما ينبغى أن تدرس تلك الحضارة دراسة جديدة فتحلل عناصرها ، ويرد ما يمكن أن يرد منها إلى أصوله القديمة ومنابته الأولى ؛ وعلى ضوء هذه الاعتبارات ينبغى

أن تتجه دراساتنا للحضارة الإسلامية وجهة تمكننا من فهم — لم كانت الحضارة الإسلامية هكذا ؟ — بعد أن فهمنا — كيف كانت ؟ ومدى ما وصلت اليه من نمو واتساع — .

ولما كانت هذه الأسس هي رائدنا ، فقد اعتزمنا ، بمؤلفنا اليوم ، أن نضع اللبنة الأولى في هذا البناء الشامخ وأن نرسي إحدى قواعده بعد أن مهدنا له ببحثنا عن العراق وحضاراته . وهذه هي مرحلة ضرورية لدراسة الحضارات الإنسانية قديمها وحديثها ؛ فحضارة الشعوب تتكون ثم تمضي عليها قرون والناس منكبون عليها يقتفون آثارها ، وأخيراً يأتي عهد يبدأ فيه العلماء وأصحاب الفكر يحللون تلك الحضارة ويفهمونها مع تعليل مظاهرها وبحث أصولها ومقارنة مسائلها بغيرها مما سبقها أو عاصرها من حضارات ، وبهذا النظام قد درست الحضارة اليونانية ومن بعدها الحضارة اللاتينية .

وقد يتساءل القراء عن السبب الذي جعلنا نتخير النحو من بين سائر العلوم الإسلامية الأولى ليكون موضوعا للدرس ، بينما غيره لم يكن أبسط منه شأناً ولا أقل منه خطراً ؛ ولكنهم سيجدون الجواب عن ذلك مفصلاً في ثنايا أبواب هذا الكتاب وفصوله ؛ ومع ذلك فاننا نستطيع أن نلخصها فيما يلي حرصاً على مصلحة القراء ومخافة أن تتوزع أفكارهم قبل أن يسعفهم الوقت وتواتيهم الفرصة لفهم كل مسألة تعرض لهم دون إمهال ولا إبطاء :—

معروف أن العلوم الإسلامية الأولى عديدة ؛ منها علم الفقه ، وعلم الحديث وعلم الرواية ، وعلم اللغة ، وعلم التفسير وعلم القراءات ، وعلم النحو ؛ ومعروف كذلك أن الظروف التي نشأت فيها تلك العلوم تكاد تكون واحدة والأسباب التي دعت إلى نشأتها لاتكاد تختلف بالنسبة لعلم عنها بالنسبة لعلم آخر . ولكن النحو يمتاز عن غيره من العلوم الإسلامية

الأخرى بأشياء ، منها نضوجه المبكر ووصوله سريعاً إلى مرحلة الكمال مما لفت نظر العلماء حديثاً وجعلهم يفيضون فى القول بشأنه ؛ ومنها الأثر الأجنبى الواضح فيه منذ النشأة والذى لازمه فى عهد نضوجه واكتماله ملازمة كادت تخرج به عن موضوعه وتتجاوز حدوده ورسومه ، ولولا مانشأ حوله من علوم استقل كل منها بميدان من ميادين الأبحاث اللغوية المختلفة كعلم المعانى ، والبيان ، والبديع ، وكعلم فقه اللغة بمعناه القديم ، نقول لولا نشأة هذه العلوم بجانب النحو العربى وتخفيفها بعض العبء عنه، ولولا مااتصفت به عقلية المؤلفين القدماء من إجلال أساتذتهم السابقين ، واحترام تراثهم العلمى لتشتت ، فيما نعتقد ، ضوابط النحو وقواعده ، ولضاعت معالمه أو كادت تضيع فى ثنايا هذه المعارف اللغوية الواسعة التى تآزر على جمعها وتدوينها نخبة من رواة اللغة ، وعدد غفير من علمائها ، ولأصبح النحو العربى موسوعة ضخمة تضم بين مجلداتها كثيراً من الآثار اللغوية ، والدينية ، والعلمية ، والأدبية ؛ ولم يكن ذلك ، فيما نظن ، سوى نتيجة لأثر العقلية الأجنبية ، وتمادياً من جانب علماء العربية فى تتبع هذا الأثر واستغلاله إلى حد بعيد وليس كتاب سيبويه الذى هو بين أيدينا الآن والذى هو صورة مصغرة من تلك الموسوعة الضخمة إلا إيذاناً بهذا الاتجاه. كل هذا جعلنا نوجه همنا أول مانوجه إلى دراسة النحو العربى دراسة تحليلية على ضوء ماقدمناه من دراسة لبيئة العراق وما توالى عليها من حضارات . هذا وهناك عامل آخر قد حفزنا إلى الاسراع بهذا المؤلف وإن لم يكن داخلاً فى طبيعة البحث ولا مترتباً عليه أحد الأسباب المنطقية فى تأليفه ، ذلك هو ماقدمه لنا معهد الدراسات العليا من فرص مواتية وما لمسناه فى طلابه من شوق إلى المعرفة ورغبة فى الاستزادة منها ، فلقد درسنا معهم هذا الموضوع فى خلال العام الدراسى الحالى ونشهد الله أن

ماعهدناه فيهم من سماع للقول ، وقبول للفهم ، واستجابة روحية وعقلية لما كنا نبديه من آراء ، ونعرضه من نظريات كان من أهم الدوافع على أن نمضى قدما فى التأليف دون تردد ولا إبطاء .

وموضوع درس الحضارة الإسلامية ، كما يرى القراء ، واسع طويل ، وهو فى حاجة إلى تضافر فى القوى وتعاون فى التفكير وتآزر فى الإنتاج ؛ وليس من السهل أن ينهض بهذا العبء شخص وحده ، وإذن فليس لنا أن نزعم الاستئثار به بالرغم من هذا التمهيد الذى قمنا به فى دراسة بيئة العراق وكلفنا من الاطلاع والبحث والعناء جهداً لايكاد يطاق والله نسأل أن يلهمنا الرشد فى القول والسداد فى العمل والتوفيق فى الأداء ؟

حسن عون

الإسكندرية فى ١٩٥٢/٧/٣١م

اللغــة

النقط الاساسيــة

ما هى؟ كيف تنشأ؟ أشهر اللغات، أسبق اللغات، ما هى اللغة العربية؟

اللغــة

هى أداة من أدوات التعبير والتفاهم فى المجتمعات الإنسانية، بل هى أهم تلك الأدوات على الاطلاق، يمكن بواسطتها أن نشرح حاجياتنا، ونعبر عن رغباتنا، ونبين للآخرين إحساسنا وشعورنا. واللغة بهذا المعنى ضرورة اجتماعية، فلا يمكن لمجتمع ما أن يكون له وحدة وكيان بدون هذه الأداة تربط وحدته وتؤلف بين أفراده، وتجمع شتات أغراضه وأهدافه.

نشأة اللغة

واللغة أياً كان نوعها تنشأ مع المجتمع الإنسانى، فهى عنصر أساسى من عناصر تكوينه، وأداة فعالة من أدوات تطوره ونموه ورقيه.

وفى كل طور من أطوار هذا المجتمع تعتبر اللغة مرآة صافية تنعكس عليها حياة ذلك المجتمع ، ليرى من خلالها عقليته وإحساسه وتفكيره ودرجته من الثقافة والتمدين . ولهذا فقد اتجه فى العصور الحديثه مجهود كثير من العلماء فى الغرب أولا ، وفى الشرق أخيراً إلى دراسة اللغات المختلفة فى مهدها وفى عصور نموها ، ليتفهموا على ضوئها حالة الشعوب فى طفولتها ويدركوا منها حركة التطور العقلى فى تلك الشعوب ، بل هى دراسة لتاريخ الشعوب إن أعوز المؤرخين وجود الوثائق التاريخية .

وليست هذه المحاولات التى نراها من وقت لآخر بين كثير من العلماء الذين يذهبون الى الشعوب البدائية فى أفريقيا وفى آسيا وفى أمريكا الجنوبية لملاحظة لغات هذه الشعوت وما تشتمل عليه من مقاطع وأصوات وما تدل عليه من معانى وأغراض ، ثم لمعرفة مبلغ ما هنالك من تطابق بين هذه اللغات والبيئات التى نشأت فيها ، نقول أن هذه المحاولات ليست إلا نوعاً من تلك الدراسات اللغوية الواسعة . والكلام على نشأة اللغة يحتاج إلى فصل طويل فقد شغل المفكرين قديماً وكان موضع نقاش وجدل يختلفان باختلاف العصور شدة وعنفاً ، ولا نزال نجد حول هذا الموضوع فى العصور الحديثة وعلى ضوء العلوم التجريبية والملاحظات النفسية نظريات عدة . ولسنا نستطيع فى هذا البحث أن نستعرض بالتفصيل ما اتجه إليه تفكير القدماء ولا ما اهتدت اليه تجارب المحدثين ، فإن ذلك يخرج بنا عن الموضوع الذى رسمنا له الخطة ، وما نظن أن بحثنا فى حاجة إلى مثل هذه الإفاضة وإنما يكفيه منا أن نعرض لرءوس المسائل ونبين أهم الأفكار والآراء حتى يكون القارىء لبحثنا هذا على بينة من الأسس العامة التى تستلزمها طبيعة الكلام عن النحو ونشأته وتحليله ومقارنته ، تاركين التفصيل

فى ذلك لعلماء الأبحاث اللغوية الخالصة ولمراجعها المتعددة الواسعة . وعلى هذا فلنتحدث أولاً عن وجهة نظر القدماء بالنسبة لنظرية اللغة ونشأتها ؛ ثانياً عن وجهة نظر المحدثين .

لم نجد فيما قرأنا من أبحاث الغربيين عن اللغات ونشأتها وتطورها من زعم أن اللغة توقيفية ، أى تنزل من السماء أو يوحى بها الله سوى أفلاطون (١)

ولهذا الاتجاه من ذلك الفيلسوف مايبرره ، فإن بيئته التى نشأ فيها ، ودراساته التى اهتم بها ، وأساتذته الذين سموا به إلى كثير من المعانى الروحية ، وعصره الذى امتاز باحترام العقيدة والأوامر الدينية ، كل ذلك

---

(١) إفلاطون هو ذلك الفيلسوف اليونانى الكبير ذو العقلية الجبارة والمؤلفات العديدة الهامة . ولد فى سنة ٤٢٩ ، مات فى سنة ٣٤٧ ق.م ، أى أنه عاش نحوا من اثنتين وثمانين سنة . كان وهو فى سن العشرين تقريباً تلميذا لسقراط ولم يتلمذ بعد هذا السن على أستاذ سواه وصار أستاذاً لارسطو . وتمتاز مؤلفاته بطريقتها التى تكتب بها : إذ كانت تكتب على شكل حوار ، والمتحدث فيها سقراط . أهم تلك المؤلفات : كريتون *Criton* ، فيدون *Phédon* ، فيدر *Phédre* ، جورجياس *Gorgias* ، بانكيه (الوليمة) *le Banquet* ، الجمهورية *la Republique* والقوانين *les lois* . وليس من السهل أن نمضى فى تعداد مؤلفاته كلها ولا فى تحليل هذه المؤلفات ؛ وحسبنا أن نعلم أن عدد ما ألفه من المحاورات قد بلغ ٤٣ ثلاثة وأربعين حواراً ؛ وله بعد ذلك نحو من ثلاث عشرة رسالة على شكل خطابات ؛ وله فوق هذا العدد الضخم مجموعة من الأفكار مدونه بلا نظام ولا ترتيب ؛ وفيما يختص بهذه الافكار وبتلك الرسائل فلم يثبت بصفة قاطعة أنها له ؛ وقد استطاع النقاد المحدثون أن يثبتوا له فقط من هذه المحاورات ما يقرب من ثلاثين محاوره.

كان حافزاً لتفكير إفلاطون وممهداً لطريقته فى مواجهة المســـائل الفكرية وحل مايمكن أن يعترضه من النظريات العلمية . كانت الديانة والآلهة تحتل المكان الأسمى ، وكان ميدان التفكير الإنســـانى ذا أفق محدود ، ودائرة تجاربه العلمية لاتكاد تتجاوز البيئة التى يعيش فيها ، ولذا فكان سهلاً على الإنسان مهما كانت مكانته العلمية ودرجته فى سمو العقل وسعة التفكير إذ ذاك أن يعزو مالا يجد وسيلة لفهمه أو مايسمو فوق مداركه إلى الطبيعة ، إلى القوة الخالقة ، إلى الآلهة . هذا والدارس لتاريخ الأديان والملل بطبيعة المجتمعات التى نشأت فيها تلك الأديان المختلفة يستطيع أن يلمس تماماً أن تقدم العقل البشرى كان فى كثير من الأحيان على حساب الأديان ، بمعنى أن العقل البشرى كلما اتسعت آفاقه فأدرك بوسائله الخاصة وبتجاربه المختلفة حقيقة من الحقائق التى كانت عسيرة الفهم غامضة الإدراك فيما مضى ، نقول كلما أدرك حقيقة من هذا النوع من الحقائق فإنها تخرج من حظيرة الدين ولا تصبح سراً من أسراره ، ولا معجـــزة من معجزاته وتقع فى محيط المدركات العقلية ، وهكذا دواليك يضيق أفق العوالم الإلهية كلما اتسعت ميادين الإدراكات العقلية . أما بقية علماء الغرب فهم مجمعون فيما نعتقد على أنها وضعية أى من وضع الإنسان ، ومن وحى البيئة ، ومستلزمات الظروف . ونظرة الغربيـين فى هـذا نظرة واقعيـة كنظرتهم إلى أغلب المسائل العلمية والظواهر الاجتماعية . ولذا فقد غلبت عليهم النظرة المادية

وتحكم فيهم وساد بينهم المذهب المادى . وقد قال بذلك شيشرون [1]

---

(1) شيشرون : هو أكبر خطيب رومانى بلا منازع ، ولد فى مدينة أربينوم واسمها الآن أربينو . وذلك فى سنة ١٠٦ قبل الميلاد . برع منذ شبابه فى صناعة القول فاستطاع أن يلفت اليه الانظار ، وتقلب فى مناصب الدولة حتى وصل إلى أخطرها ، وهو منصب القنصل . وقد لعب أدواراً هامة فى سياسة روما ، فقد عرف بميله إلى نظام الحكم الجمهورى ولذا فإنه أنقذ الجمهورية من مؤامرة ديكتاتورية خطيرة قام بها كاتيلينا ، وذلك بعد أن كشف شيشرون أمرها واستطاع أن يقدم للمحكمة أنصار ذلك الديكتاتور فيحكم باعدامه . وبعد ذلك استحق شيشرون من الشعب الرومانى لقب (أبو الوطن) .

وقد ناصر شيشرون قيصر ما دام يحكم على النظام الجمهورى ، وأظهر شيئاً من التراخى حينما ظهر قيصر بمظهر الديكتاتور . وبعد قيصر عمل على معاونة أوكتافيوس ، ولكن الخصومة بينه وبين أنطونيوس قد أوردته موارد الهلاك : فبعد ما تحرجت الأمور السياسية فى روما ، وبالرغم من اعتزاله السياسة فقد هرب شيشرون من روما ليختبىء فى القرى . ولكن انطونيوس وهو المحنق منه ومن لسانه بعث اليه من أدركوه فى الطريق وقتلوه غيلة فى سنة ٤٣ ق.م .

كان شيشرون إذن خطيباً بارعًا ، ومحامياً ماهراً ، وسياسياً محنكاً وفوق ذلك فقد كان عالماً كبيراً ومؤلفاً عظيما : ترجم بعض الكتب عن اليونانية ، وألف فى الخطابة ، وفى اللغة ، وفى الدين ، وفى الفلسفة . وما هى مؤلفاته لا تزال معتبرة من أهم المراجع فى هذه الميادين العلمية .

وينبغى أن نقرر هنا أن الأستاذ مصطفى صادق الرافعى فى كتابه

وديودور الصقلي [1]

= « تاريخ آداب اللغة العربية » ص ٤٦ ج١ هو الذي يروى عنه هذا الرأى فى نظرية اللغة ولكنه كدأبه لا يذكر نصا ولا مرجعًا وبالرغم من اطلاعنا الكثير على ما كتبه شيشرون فإننا لم نجد نصًا صريحاً ومع ذلك فان اتجاهه فى مجموع الآراء ، وروحه فى التأليف ، ومنزعه فى فهم اللغة يؤيد ما نسبه اليه الرافعى .

(١) ديودور الصقلى : هو مؤرخ يونانى كبير عاش فى عصر الامبراطور أغسطس

ربما كان أكثر دقة من هيرودوت ، وهو لا يقل عنه شهرة . والذى عرف عنه هو كتابه التاريخى العظيم الذى يعتبر سجلا لتاريخ العالم القديم حتى سنة ٦٠ ق.م .

وينقسم كتابه فى التاريخ إلى ثلاثة أقسام مرتبة على حسب الأحداث التاريخية : القسم الأول يتناول تاريخ الشعوب المعروفة قبل حرب طروادة التى تغنى بها هوميروس فى إلياذته ؛ وهذا القسم يشتمل على ستة كتب عثر منها على خمسة فقط ؛ ثلاثة من هذه الكتب الستة تقص تاريخ اليونان فى خلال تلك العصور السابقة على حرب طرواده ، وثلاثة أخرى تتناول سائر الشعوب . القسم الثانى يتناول تاريخ الشعوب منذ حرب طرواده حتى وفاة الإسكندر الأكبر ؛ وهذا القسم يحتوى على أحد عشر كتابا لم يهتد الباحثون إلا على سبعة كتب منها . أما القسم الثالث فهو يتناول أحداث العالم التاريخية منذ وفاة الاسكندر حتى غزو قيصر لبلاد الغال ؛ وهذا القسم يشتمل على ثلاثة وعشرين كتاباً لم يوجد منها سوى ثلاثة كتب فقط . =

ومنذ ذلك الحين لم نسمع ولم نقرأ فيما قرأناه ، رأياً يخالف رأى هذين العالمين فكأنهما بذلك قد قضيا على فكرة التوقف بالنسبة لما كان معروفا عن اللغة ، ومهدا السبيل للبحث العلمى المبنى على ملاحظات نفسية وتجريبية ، فقد وجدنا من بعد ذلك علماء تصدوا للأبحاث اللغوية وأفاضوا فى الكلام عنها ، ولكنهم لم يشيروا ، ولم يفهم عنهم ، ولو من طريق خفى ، أنهم من دعاة نظرية التوقف أو من القائلين بها ؛ نذكر من هؤلاء العلماء فارون *Varron* [1] العالم اللاتينى الغزير المادة والواسع

= وتذكر هنا أيضاً ما ذكرناه منذ قليل من أننا لم نقف بأنفسنا على نص صريح لديودور فى توقيف اللغة ولكن الذى ينسب اليه هذا الرأى إنما هو الاستاذ الرافعى فى نفس الكتاب المتقدم ؛ ومع هذا فإن روحه فى التأليف وتفكيره فى مواجهة المسائل تجعلنا نطمئن إلى ما نسب اليه .

(1) كان فارون دائرة معارف عصره ، عرف بالدأب والمثابرة ، واشتهر بالبحث الواسع والاطلاع الغزير إلى درجة لا يتصور وقد مات بعد اغتيال شيشرون بستة عشر عاما كانت الجمهورية الرومانية فى طريقها إلى الانقلاب والحكم الامبراطورى فى سبيل التأسيس . ولقد استغل هذا العالم اللاتينى معارفه الواسعة واطلاعه الكثير فخلف وراءه ثروة طائلة من المؤلفات ، وصلت إلى أربعة وسبعين مؤلفاً ؛ ولسوء الحظ لم يوجد من هذه الثروة العلمية حتى الآن سوى مؤلفين ؛ أحدهما « عن اللغة اللاتينية » ؛ وحتى هذا المؤلف قد وصل مبتوراً ؛ إذ لم يكتشف منه غير ستة كتب ، وهى من =

الاطلاع . توفى هذا العالم فى سنة ٢٧ قبل الميلاد ، وكان مما تركه كتاب « عن اللغة اللاتينية » قد كتب إهداؤه إلى شيشرون ؛ وفيما كتبه عن اللغة فى هذا الكتاب يفهم منه أن اللغة كائن اجتماعى يتطور بتطاور المجتمع ، ولا دخل لأى قوة خفية فى تنشئته أو تنميته

ونذكر كذلك من هؤلاء العلماء — كانتيليان — [1] *Quintilien* الذى عاش قطعاً إلى ما بعد سنة ٩٦ بعد الميلاد وامتاز دون معاصريه

=الكتاب الخامس إلى الكتاب العاشر بينما المؤلف كله كان يحتوى على خمسة وعشرين كتاباً ؛ والآخر عن « الزراعة » . والذى يعنينا بالذات هنا هو مؤلفه الأول ، وعلى الأخص البحث الذى كتبه عن أصل الكلمات فى اللغة اللاتينية ؛ فى هذا البحث تناول فارون ما تناول من مفردات اللغة بطريقة طبيعية معقولة لا دخل لمسألة التوقيف فيها .

[1] كانتيليان *Quintilien* : هو من الإسبانيين الذين امتزجوا بالدولة الرومانية عقلا وروحا ولغة وتفكيراً . ولد فى مدينة إسبانية اسمها كالاجوريس *Calagurris* فيما بين سنة ٣٠ و ٣٥ بعد الميلاد ؛ ثم جاء إلى روما شأن كثير من الإسبانيين الذين يدرسون فى روما ؛ وكانت أهم الدراسة إذ ذاك هى دراسة اللغة والفلسفة ، بدأ مبكراً فى ميدان المحاماه ولكنه لم يستمر فيها طويلاً فاعتزلها وأنشأ مدرسة لغوية غايتها الكبرى تخريج الخطيب الكامل ، وقد اتخذ مثله الأعلى شيشرون ، ولهذا فقد بذل عنايته فى تدريس اللغة بما فيها من أساليب وبيان ، وهو فى تدريسه ، وفى تأليفه يتحدث عن اللغة كظاهرة اجتماعية تخضع لظروف المجتمع إلى حد بعيد ، ولم يؤثر عنه مطلقاً أن اللغة مصدرها وحى أو توقيف .

بدراساته اللغوية وأبحاثه فى أساليبها ، وتعليله لمظاهر رقيها وقوتها ولمظاهر ضعفها وانحطاطها ؛ وهو فى خلال ذلك كله يفهم اللغة ويصورها كما صورها من قبله شيشرون وفارون .

وهكذا تغيرت نظرة علماء الغرب إلى اللغة واستمروا يفهمونها كظاهرة اجتماعية تنشأ مع المجتمع وتشاركه فى حياته رقياً وضعفاً ؛ واستمرت هذه النظرة سائدة خلال العصور الوسطى بالرغم مما اكتسبته اللغة اللاتينية القديمة على يد الكنيسة المسيحية ورجالها من معنى القداسه ومظاهر الإجلال . وإذا ما وصلنا إلى العصور الحديثه فاننا نجد القوى تتضافر فى الغرب وملكات العلماء تتآزر على تحليل اللغة كظاهرة اجتماعية ودراستها عند الأطفال ، وفى البيئات البدائية ، ثم تحليل نشأتها وتطورها وما يلابس ذلك كله من ظواهر ونتائج . وسنرجىء الكلام قليلاً عن هذه النظرة الحديثة لكى نلم أولاً بوجهة نظر العلماء الشرقيين بالنسبة لنشأة اللغة .

أما فى الشرق فإننا نجد أنفسنا أمام فريقين من العلماء : فريق يوافق الغرب فى وجهة نظره ومنهم أبو على الفارسى [1] ،

---

(1) هكذا يذكر الرافعى فى كتابه (تاريخ أداب اللغة العربية) ج ١ صفحة ٤٦ . ولكن ابن سيده فى كتابه المخصص ج ١ صفحة ٤ يذكر أن أبا على الحسن ابن أحمد بن عبد الغفار بن سليمان الفارسى النحوى يراها من عند الله ؛ وكان يحتج بذلك بقوله تعالى «وعلم آدم الأسماء كلها» =

وتلميذه ابن جنى [1] وبعض المعتزلة . والفريق الآخر يرى أن اللغة توقيفية من خلق الله ، ولا إرادة للانسان فيها ، ويستدل هؤلاء على رأيهم بما فهموه من بعض النصوص الدينية . ولعل أصرحها فى ذلك قول الله تعالى فى سورة البقرة : « وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة ، فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك ، لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم .

= والفارسى هذا هو أبو على الحسن بن أحمد بن عبد الغفار بن سليمان الفارسى النحوى ؛ يذكر ابن النديم فى كتابه ـ الفهرست صفحة ٩٥ طبعة سنة ١٣٤٨هـ بالمطبعة الرحمانية بمصر ، أن أبا على الفارس قد توفى قبل السبعين وثلثمائة ، وأن له من الكتب ـ كتاب الحجة ، كتاب التذكره ، كتاب أبيات الاعراب ، كتاب شرح أبيات الايضاح ، كتاب مختصر عوامل الاعراب ، المسائل المصلحة يرويها عن الزجاج وتعرف بالإغفال . ويروى أنه توفى سنة ٣٧٧ . وقد اعتمد هذه الرواية الاستاذ مصطفى الرافعى ج ١ صفحة ٢٢٦

(1) هو أبو الفتح عثمان بن جنى ؛ كان مولده بالموصل قبل عام ٣٠٠ هـ وهو من أصل رومى ، اذ أن والده كان مملوكا روميا لسليمان بن فهد بن أحمد الازدى . كان من أشهر تلاميذ أبى علي الفارس ومن أكثرهم مصاحبة له . إذ أنه بقى فى صحبته أربعين عاما ؛ ويروى ياقوت أنه ولى منصب كاتب الإنشاء فى عضد الدوله وفى بلاط خلفه ؛ وفى أثناء قيامه بهذا العمل كان يتنقل مابين حلب وفارس ، مما سهل عليه التعرف بالمتنبى ومصادقته ؛ ولهذا فقد كان يناظره فى النحو ويناقشه فى الأدب ؛ ولعل من نتيجة ذلك أيضاً أنه كتب شرحاً لديوان المتنبى . وقد عمر ابن جنى =

قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون »[1]

= طويلاً حتى أشرف على المائة وربما يكون قد تجاوزها ، إذ أن وفاته كانت فى سنه ٣٩٢ ﻫ . واشتهر ابن جنى بمعرفته بالنحو وبكل مايتعلق بالتصريف حتى أصبح فى ذلك حجة وثقة . ولم يعرف لابن جنى تحيز لإحدى المدرستين النحويتين ، مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة ، شأن غيره من العلماء المعاصرين ، بل على العكس من ذلك كان واضح الشخصية العلمية فكان يتخير لنفسه مذهباً وسطاً بين المدرستين . وأهم مؤلفاته كتابان : أحدهما (سر الصناعة وأسرار البلاغة) والآخر (كتاب الخصائص) فى علم أصول العربية . والأخير منهما يعنينا بالذات ؛ إذ انه يلقى ضوءاً على رأى صاحبه فى نظرية التوقيف فى اللغة . وهو وان لم يبد رأيه بصراحة فى أن اللغة وضعية إلا أن المطلع على ماذكره فى أول الكتاب لايتردد فى فهم موقفه من هذه النظرية فهو يميل بوضوح إلى القول بوضعها .

(١) إن كتب التفسير لهذه الاية تلقى ضوءاً على نظرية اللغة التى نحن بصددها فهى تذكر المذهبين وتناقش آراء كل فريق ، ولعل أهم هذه الكتب هو تفسير الفخر الرازى . وهاهوذا نص مايذكره صاحب هذا التفسير ج١ ص ٢٥٧ وما يليها

((المسألة الأولى » : قال الأشعرى والجبائى والكعبى اللغات كلها توقيفية بمعنى أن الله تعالى خلق علما ضرورياً بتلك الألفاظ وتلك المعانى وبأن تلك الألفاظ موضوعة لتلك المعانى واحتجوا عليه بقوله تعالى (وعلم آدم الأسماء كلها) والكلام على التمسك بهذه الآية سؤالاً وجواباً ذكرناه فى أصول الفقه وقال أبو هاشم إنه لابد من تقدم لغة اصطلاحية واحتج على =

= أنه لابد وأن يكون الوضع مسبوقا بالاصطلاح بأمور (أحدها) أنه لو حصل العلم الضروري بأنه تعالى وضع هذه اللفظة لهذا المعنى لكان ذلك العلم إما أن يحصل للعاقل أو لغير العاقل ؛ لا جائز أن يحصل للعاقل لأنه لو حصل العلم الضروري بأنه تعالى وضع ذلك اللفظ لذلك المعنى لصار صفة الله تعالى معلومة بالضرورة مع أن ذاته معلومة بالاستدلال وذلك محال ؛ ولا جائز أن يحصل لغير العاقل لأنه يبعد في العقول أن يحصل العلم بهذه اللغات مع مافيها من الحكم العجيبة لغير العاقل . فثبت أن القول بالتوقيف فاسد .

(وثانيها) أنه تعالى خاطب الملائكة ، وذلك يوجب تقدم لغة على ذلك التكلم .

(وثالثها) أن قوله « وعلم آدم الأسماء كلها » يقتضي إضافة التعليم إلى الأسماء ؛ وذلك يقتضي في تلك الاسماء أنها كانت أسماء قبل ذلك التعليم وإذا كان كذلك كانت اللغات حاصلة قبل ذلك التعليم .

(ورابعها) أن آدم عليه السلام لما تحدى الملائكة بعلم الأسماء ، فلا بد وأن تعلم الملائكة كونه صادقا في تعيين تلك الأسماء لتلك المسميات ، وإلا لم يحصل العلم بصدقه . وذلك يقتضي أن يكون وضع تلك الاسماء لتلك المسميات متقدما على ذلك التعليم .

والجواب عن الأول : لم لايجوز أن يقال يخلق العلم الضروري بأن واضعاً وضع هذه الأسماء لهذه المسميات من غير تعيين أن ذلك الواضع هو الله تعالى أو الناس . وعلى هذا لا يلزم أن تصير الصفة معلومة =

= بالضرورة حال كون الذات معلومة بالدليل ، سلمنا أنه تعالى ماخلق هذا العلم فى العاقل ، فلم لا يجوز أن يقال إنه تعالى خلقه فى غير العاقل ، والتعويل على الاستبعاد فى هذا المقام مستبعد .

وعن الثانى : لم لا يجوز أن يقال خاطب الملائكة بطريق آخر بالكتابة وغيرها .

وعن الثالث : لا شك أن إرادة الله تعالى وضع تلك الألفاظ لتلك المعانى سابقة على التعليم ، فكفى ذلك فى إضافة التعليم إلى الأسماء .

وعن الرابع : ما سيأتى بيانه إن شاء الله تعالى ـ والله تعالى أعلم .

ثم يمضى صاحب هذا التفسير فى مناقشة بقية الاراء حتى يقول :
(القول الثانى) وهو المشهور ، أن المراد أسماء كل ماخلق الله من أجناس المحدثات من جميع اللغات المختلفة التى يتكلم بها ولد آدم اليوم من العربية والفارسية والرومية وغيرها . وكان ولد آدم عليه السلام يتكلمون بهذه اللغات ، فلما مات آدم وتفرق ولده فى نواحى العالم تكلم كل واحد منهم بلغة معينة من تلك اللغات ، فغلب عليه ذلك اللسان . فلما طالت المدة ، ومات منهم قرن بعد قرن نسوا سائر اللغات . فهذا هو السبب فى تغير الألسنة فى ولد آدم عليه السلام . قال أهل المعانى قوله « وعلم آدم الأسماء » لابد فيه من إضمار فيحتمل أن يكون المراد وعلم آدم أسماء المسميات ، ويحتمل أن يكون المراد وعلم آدم مسميات الاسماء . قالوا لكن الأول أولى لقوله « أنبئونى بأسماء هؤلاء » وقوله « فلما أنبأهم بأسمائهم » ولم يقل أنبئونى بهؤلاء ، وأنبأهم بهم . فان قيل فلما علمه الله تعالى أنواع جميع =

= المسميات ، وكان فى المسميات مالا يكون عاقلا فلم قال عرضهم ؟ ولم يقل عرضها ؟ قلنا لأنه لما كان فى جملتهـا الملائكة والإنس والجن وهم العقلاء ، فغلب الأكمل ، لأنه جرت عادة العرب بتغليب الكامل على الناقص كلما غلبوا)) .

لقد حاولنا فى نقل هذا النص الطويل بما فيه من فلسفة كلامية ، وجدل علمي أن نقدم للقارىء صورة عن مبلغ مالدى علماء الإسلام من خلاف فى مسألة وضع اللغة ، وتوقيفها ؛ ثم لنرى كيف تشعبت أفكارهم حول مسألة اللغة ، وكيف استمرت فكرة التوقيف معروفة عندهم ولها أنصارها ومشايعوها حتى أواخر العصور الوسطى ، بل إننا نجد من يميل إليهـا ويؤيدها ولو من طريق غير مباشر فى العصور الحديثة ؛ من ذلك الأستاذ مصطفى صادق الرافعى فى كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » ؛ فإنه يعزو فى كثير من مواقفه جمال اللغة العربية ، وحسن تركيبها ، وبلاغة تعبيرها ؛ وسمو أساليبها إلى صفات مستمدة من قوة فوق مستوى البشر ؛ إذ أنه لا يعترف بوجود لغة إنسانية أخـرى تسمو إلى مكانة اللغة العربية فى هذه المزايا ؛ فهى فى نظره معجزة اللغات لينزل بأسلوبها القرآن معجز البشر ؛ وليست هذه الفكرة عند الأستاذ الرافعى إلا من تراث القدماء ، ومن كثرة ماذكروه فى ذلك .

وشبيه بصنيع المفسرين ماذكره السيوطى فى كتابه المزهر ؛ فإنه لخص آراء القائلين بتوقيف اللغة ؛ وكذلك آراء القائلين بوضعها ؛ ثم ناقش إلى حد ما هذه الآراء ، ولكنه ــ شأنه فى أغلب المسائل العلمية ــ لم يتخذ لنفسه موقفاً معيناً . =

= وجدير بالذكر هنا ، وقد أتينا على كثير من علماء العربية فى نظرية توقيف اللغة ؛ أن نشير بكلمة إلى رأى عالم واسع الاطلاع ؛ وحجة محقق ، ذلك هو ابن النديم صاحب الفهرست الذى يعتبر أجل دائرة معارف عربية قديمة قد وصلت إلينا .

لايتعرض ابن النديم صراحة إلى نظرية التوقيف والوضع فى اللغة ؛ ولكنه يتناول بالبحث أصل اللغة العربية ؛ فيروى آراء من سبقه من العلماء فى هذه المسألة ويستشهد لذلك بما سمعه أو رآه من آثار ؛ ثم فى أثناء هذا البحث الطريف يذكر كلاما يطمئن هو نفسه اليه ويفهم القارىء منه أنه يرى أن اللغة وضعية ، وأنها ظاهرة اجتماعية تحيا بحياة المجتمع وتتطور بتطوره وتتشكل بشكل البيئة التى هى فيها ؛ وهو رأى جدير بالنظر حقاً إذا عرف الزمن الذى قيل فيه ؛ إذ أنه يتفق إلى حد كبير مع أحدث الآراء التى تقال فى اللغة وفى أصلها وفى تطورها . وكل ما يمكن أن يلاحظ على ابن النديم فيما ذكره هو ماقاله من أن اللغة العربية قد استمرت فى نموها ورقيها حتى نزل القرآن فوقفت عند هذا الحد ولم تتسع ؛ وها هو نص ابن النديم نضعه أمام أعين القراء ليروا بأنفسهم الى أى حد يتمشى مع المحدثين من علماء اللغات :

يقول ابن النديم فى كتابه الفهرست ص ٧ بعد ذكر كثير من الآراء فى أصل الكتابة العربية « ... ولم يزل ولد اسماعيل على مر الزمان يشتقون الكلام بعضه من بعض ، ويضعون للأشياء أسماء كثيرة بحسب حدوث الأشياء الموجودات وظهورها فلما اتسع الكلام ظهر الشعر الجيد الفصيح فى العدنانية ، وكثر هذا بعد معد بن عدنان ، ولكل قبيلة من قبائل =

وأشهر من قال بذلك ابن فارس [1]

= العرب لغة تنفرد بها وتؤخذ عنها وقد اشتركوا فى الأصل. قال : وإن الزيادة فى اللغة امتنع العرب منها بعد بعث النبي ﷺ لأجل القرآن »

وهذه الملاحظة التى أشرنا إليها منذ قليل ، بالنسبة لرأى ابن النديم فى توقف اللغة عن الزيادة بعد بعث النبي ﷺ ، تدل على أن صاحب الفهرست قد نظر إلى اللغة العربية نظرة ضيقة ؛ إذ أن اللغة لم تتوقف فى حقيقة الأمر إلا من ناحية أنها عملت على جمع القبائل العربية على تلك اللهجة التى نزل بها القرآن ؛ أما فيما عدا هذا فإننا لا نستطيع أن نسايره فيما يقول ؛ وكلنا يعرف مبلغ ما أصابته اللغة العربية بعد الفتوح الإسلامية من توسع وزيادة فى مفرداتها ، وفى تراكيبها ، وفى أفكارها ، وفى أخيلتها ، وفى صورها ، وفى أساليبها ؛ بل إن نموها ، بعد أن اتسعت رقعة البلاد الناطقة بها ، فى كل هذه النواحى كان أعمق أثراً ، وأبعد مدى من نموها قبل أن يبعث الرسول ﷺ

[1] هو أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب ؛ اشتهر فى اللغة وفى النحو ؛ وهو أحد تلاميذ مدرسة الكوفة النحوية ؛ توفى سنه ٣٩٥ هـ. وكان كثير الدأب لا يمل البحث ولا الدرس ؛ يدل على ذلك كثرة تنقله بين المدن الكبيرة لهذا الغرض ؛ فقد أقام فى قزوين ، وفى مكة ، وفى بغداد ، و فى همذان ، وفى الرى ؛ وقد ملأت شهرته اللغوية والخلقية آفاق الدولة الإسلامية فاستدعاه فخر الدولة بن بويه إلى =

والأشعرى [1] ومن تبعه من علماء العرب ؛ ثم نجد صدى ذلك أيضاً عند ابن سيده صاحب المخصص [2]

= الرى ووكل إليه تأديب ولده مجد الدولة أبى طالب .

كان شافعى المذهب ولكنه تحول عنه إلى المالكية أخيراً وكان شديد التعصب للعرب ضد الفرس ؛ وقد بلغ من سمو خلقه ، وكرم طبعه ، وسماحة نفسه أن وهب ما عليه من اللباس إلى الفقراء أكثر من مرة ؛ ومن أشهر تلاميذه بديع الزمان ، والصاحب بن عباد .

ولابن فارس مؤلفات عديدة أهمها بالنسبة لموضوع بحثنا هذا هو كتابه — الصاحبى فى فقه اللغه وسنن العرب فى كلامها — وقد طبع فى القاهرة سنة ١٩١٠ م .

(١) ينقل هذا الرأى عن الأشعرى الأستاذ مصطفى صادق الرافعى فى كتابه — تاريخ آداب العرب — جـ١ . ص ٤٥ — ٤٦ .

(٢) يعرض أبو الحسن على بن إسماعيل النحوى اللغوى الأندلسى المعروف بابن سيده والمتوفى سنة ٤٥٩ هـ نظرية نشأة اللغة وما جاء فيها من خلاف بين أصحاب مذهب التوقيف ، ومذهب الوضع ، ثم يناقش أدلة كل فريق مناقشة هادئة منطقية ؛ وأخيراً يبدى رأيه صريحاً فى أنه يؤيد القائلين بالتوقيف :

يقول ابن سيده فى ص ٣ وما بعدها من الجزء الأول من كتابه =

ونحن لو تصورنا موقف هذا الفريق من العلماء ؛ وأمعنا النظر فى رأيهم ، ثم تركنا جانباً ظواهر الأشياء ، ونفذنا إلى بواطنها ، وحللناها تحليلاً فلسفياً عميقاً ، لوجدنا أنهم لم يدينوا بهذا الرأى ويعتنقوا ذلك المذهب القائل بتوقيف اللغة ، بناء على هذه النصوص الدينية فقط ولكن لأن فى نفوسهم ميلاً ونزوعاً إلى فكرة التوقيف بأوسع مظاهرها . ففشت فيهم تبعاً لذلك فكرة الاستسلام ، ونما عندهم مذهب التواكل. وقد استطاعوا بذلك ، أو توهموا أنهم استطاعوا أن يتخلصوا من بعض المسائل العقلية الصعبة ، وأن يحلوا كثيراً من المشاكل الاجتماعية الخطيرة.

المخصص الطبعة الأولى بالمطبعة الأميرية ببولاق سنة ١٣١٦ هـ :

« وقد اختلفوا فى اللغة أمتواطأ عليها أم ملهم إليها وهذا موضع يحتاج إلى فضل تأمل غير أن أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة انما هو تواضع واصطلاح لا وحى ولا توقيف ، إلا أن أبا على الحسن بن أحمد ابن عبد الغفار بن سليان الفارسى النحوى قال هى من عند الله واحتج بقوله سبحانه « وعلم آدم الاسماء كلها » وهذا ليس باحتجاج قاطع وذلك أنه قد يجوز أن يكون تأويله أقدر آدم ... »

ثم يمضى المؤلف فى مناقشة هذا الرأى حتى يقول فى ص٦ : « ... وانضاف الى ذلك وارد الأخبار المأثورة بأنها من عند الله تبارك وتعالى فقوى فى أنفسنا اعتقاد كونها توقيفاً من الله تعالى وأنها وحى . »

ونتيجة كل هذا أن وجد فى الشرق المذهب الروحى ، ونما عند الشرقيين كل ماله مساس بالمعانى الروحية .

والدارس لتاريخ الشرق ، والمتتبع لأنظمة المجتمع فى الشعوب السامية على الخصوص يستطيع أن يلمح فيهم هذه النزعة الروحية ، وذلك الميل إلى الالتجاء إلى القوى الخفية ، إلى السماء ، إلى الآلهة ، فى كل ما يعز عليهم إدراكه أو ما يحار العقل فى فهمه . فكثير من أخلاقهم ، وعاداتهم ، بل وقوانينهم كان متأثراً إلى حد بعيد بهذه القوى المدبرة ، الخالقة ، وبتلك العوالم الخفية المجهولة ؛ وليس نظام التحكيم الآلهى بصوره العديدة إلا أثراً من آثار ذلك النزوع الروحى ، والاستسلام العقلى إلى ما تكشفه السماء ، ويصدر عن الآلهة [1] . وقد انتقل هذا النظام من الدولة البابلية إلى الدولة الأشورية وامتدت آثاره إلى سكان شبه الجزيرة العربية ؛ ولا نزال الآن نرى صوراً مختلفة منه فى قبائل البدو الضاربين فى الصحراء الشرقية من أرض مصر . وتبع ذلك أيضاً ماكان معروفاً عند شعوب الشرق منذ القدم من إلقاء زمام كثير من

---

[1] لقد فصلنا الكلام عن نظرية التحكيم الآلهى فى كتابنا ـ العراق وما توالى عليه من حضارات ـ الطبعة الأولى ص ١٧ . وانظر أيضاً : قصة الحضارة ـ تأليف ول ديورانت ـ وترجمة الأستاذ محمد بدران ـ الجزء الثانى ـ الشرق الأدنى ـ ص ٢٠٧ وما بعدها .

الأمور فى نظام المجتمع إلى المعابد ورجال الدين ؛ فكان منهم الأطباء ، وكان منهم القضاة ، وكان منهم المشرعون ، وكان منهم العلماء ، وكان منهم المنجمون ؛ ولم يكن يرد لهم فى أغلب الأحيان رأى ، بل لقد وصل من مكانتهم فى المجتمع أن كانوا يملون إرادتهم على رجال السلطة الدنيوية ؛ فكانوا هم الذين يولون الملوك . كانت هذه الظواهر الاجتماعية من أهم ما لفت نظر الاغريق عند ما جاءوا يدرسون العلم والحكمة فى الشرق ، ثم يدرسون تاريخه ، وأخلاقه ، وعاداته .

وكلما تغلغل الإغريق فى معرفتهم بالشرق ، وزاد اختلاطهم بالشرقيين ، كانت تزداد دهشتهم من سمو السلطان الروحى واستئثاره بنفوذ أوسع ، وبسلطة أكبر إذا ما قورن بالسلطان المادى .

ولعل أقرب صيغة فى مصطلحات الشعوب الحديثه لتصوير ذلك عند المجتمعات القديمه فى الشرق هى : الدين مصدر السلطات : كما يقال الآن الأمة مصدر السلطات ؛ بل إن ذلك الاصطلاح كان يحمل معنى أوسع وأدق مما يحمله هذا الاصطلاح الحديث .

ولم تنقطع دهشة الاغريق ، بل انتقلت إلى الرومان فأخذوا يدرسون الشرق على ضوء المعارف الاغريقية ؛ ثم اتصلوا مباشرة بالشرقيين وبدءوا يفهمون ويحللون هذه المظاهر الروحية فكتبوا عن ذلك معجبين

مرة وساخرين أخرى [1] .

ورث الغرب الحديث عن أسلافه من اليونانيين والرومانيين هذه المعارف ، ولاحظ بنفسه وجود أثر المبنى الروحى عند الشرقيين ؛ فبدأ علماؤه وباحثوه يفهمون نفسية الشرق ونزعته بالنسبة للأنظمة الاجتماعية ، ولكنهم اتجهوا فى تعليلهم لكل ما يقفون عليه وجهة تخالف وجهة علماء اليونان وعلماء الروم .

وقد علل علماء الغرب هذه الظاهرة الاجتماعية فى العالم الشرقى بأن الشرق أرض الأديان ، ومهبط الوحى ومبعث الرسل والأنبياء .

وإن بيئة هذا شأنها لخليق بها أن تكون مصبوغة بالصبغة الدينية ومتأثرة بالنزعات الدينية ؛ وقائمة على الأسس الدينية ؛ والذى عهد فى كل الأديان ، وثنيها وسماويها ، هو الاهتمام العظيم بتربية الروح ؛ وغرس بذور الخضوع فى صورة الاحترام والتقديس لكل ما هو خفى

---

(1) لقد تناول الكلام عن الديانة والآلهة وأثر ذلك فى الأنظمة الاجتماعية فى الشرق وبصفة خاصة فى مصر كثير من الكتاب اللاتينيين مثل تاسيتوس ، وفيرجيليوس ، وجوفينال ؛ ولعل أهم من أفاض فى ذلك هو شيشرون فى مؤلفه — عن طبيعة الآلهة — الكتاب الأول — الفصل السادس عشر والرابع والعشرين ، والسادس والثلاثين .

وبعيد عن العقل البشرى إدراكه .

ومن شأن الاحترام والتقديس فى هذه الصورة أن يقيدا العقل إلى حد ما ، ويخلقا حوله جواً ليس من السهل تجاوز حدوده ، ولا اختراق آفاقه بحثاً عما يكون وراءه من أسرار ، وطلباً لفهم ما يمكن أن يوجد من مجهولات . وقد تناول شيشرون قديماً هذا المعنى فى كثير من مواقفه ؛ ولعل أهم من بحث هذا الموضوع وأفاض فيه من المحدثين هو الأستاذ امدى ديكسنل *Amédée Duquesnel* فى كتابه « تاريخ الآداب *Histoire des Lettres* » المطبوع فى سنة ١٨٤٥ .

وأظننا الآن لانجد معنى للقول بأن اللغة توقيفية ، فما نشاهده بأنفسنا فى اللغات المختلفة ، وما نراه من تكيف كل لغة بتكيف الشعب الذى ينطق بها والبيئة التى تنمو فيها لا يترك مجالا للشك فى أن اللغة ظاهرة اجتماعية يخلقها المجتمع الإنسانى ، ويتجه بها حيثما توحى إليه ظروف البيئة التى يعيش فيها : ومن هنا كانت اللغة يغلب عليها الاتجاه الروحى ، وتسود فيها المعانى الروحية ، وتنتشر فيها الألفاظ التى تعبر عن تلك المعانى ، إذا كانت فى بيئة دينية روحانية . ويغلب عليها الاتجاه المادى ، وتنتشر فيها أسماء الآلات والصناعات والمكتشفات إذا كانت فى بيئة مادية صناعية . وهكذا إذا تتبعنا اللغات المختلفة فى البيئات المختلفة .

والآن بعد أن استعرضنا آراء القدماء شرقاً وغرباً بالنسبة لنشأة اللغة وما قيل فيها من توقف ووضع نحب أن نلم سريعاً برأى المحدثين لكى تتم لدينا صورة واضحة عن طبيعة اللغة وكيف كانت تفهم قديماً ؛ وكيف يمكن أن تفهم الآن .

لقد خطت الدراسة اللغوية فى العصور الحديثه خطوات سريعة ، وتناولها كثير من العلماء باعتبار أنها أهم مظهر من مظاهر رقى المجتمع وأعظم سجل لتاريخ المجتمعات ؛ ولم يقتصر أمر هذا البحث على علماء النفس والاجتماع ، ولا على رجال اللغة والأدب ، ولكنه تعدى كل هذه الطبقات ، وشغل جزءاً هاماً من علم التشريح فسخر الأطباء جانباً من مجهودهم لتحليل هذه الظاهرة الاجتماعية وإزالة ما علق بها من غموض . ونحن نؤثر بالذكر رأى هذه الطبقة فى نشأة اللغة لما لهم من نظرة ثاقبة ، وتجربة دقيقة ، وخبرة تامة بالنفس الانسانية وبوظيفة أعضائها :—

يرى علماء التشريح أن أول ظاهرة من ظواهر اللغة الانسانية إنما هى صراخ الطفل بعد ولادته ؛ إذ أن هذا الصراخ ليس فى الواقع سوى نتيجة لإحساسه بشىء يؤلمه ؛ وليس من سبيل لتحديد هذا الإحساس ولا نوع الألم الذى صدر عنه ذلك الإحساس ؛ وكل ما يمكن أن يقال بشأنه إنما هو إحساس عام ؛ والذى يحدث فى مثل هذه الحالة هو أن تسرع الأم أو من يشرف على شأن الطفل ببذل شىء لإسكاته ومراضاته إما باهتمامية

تهدهيا ، أو بأنشودة تغنيها ، أو بثدى تقدمه لارضاعه ، أو بشيء لذيذ تعطيه لإطعامه ، أو بضمة رحيمة إلى صدرها . أو بهزة لطيفة بين يديها ؛ وقد يكون الطفل راغباً عن كل ذلك ، وقد يكون صراخه ناتجاً عن إحساسه بالألم ، ولكنه سرعان مايزول عنه مصدر ذلك الإحساس ، ويدرك بحسه لا بعقله أن ذلك الصراخ قد منحه شيئاً حلوا وأعقبته مراضاة لذيذة ؛ ومن ذلك يبدأ الطفل فى استعمال الصراخ لا ليعبر به عن ألم يحسه ، ولكن ليشرح به حاجة يطلبها ، ورغبة يتمناها ؛ ومن هنا يكون الصراخ أول مرحلة من مراحل اللغة ،وأسبق تعبير من تعبيراتها .

والمرحلة التالية من مراحل اللغة هى الإشارة ، حيث يبدأ الطفل فى التوفيق بين إشاراته وبين الاصطلاحات الخارجية التى تحيط به ، ثم يأتى بعد ذلك مباشرة دور التوفيق بين هذه الاصطلاحات الخارجية وبين إشاراته هو بالنظر أو بالرأس أو باليد ؛ ومما أثبتته التجارب أن إدراك للطفل لما تنطوى عليه الإشارة باليد أو بالنظر أو الإشارة المتعلقة بالذوق العام أسرع من إدراكه لما تنطوى عليه الإشارة المتعلقة بالسمع . والطفل ، بالرغم من تأخره فى إدراك المسموعات ، يأخذ مبكراً فى محاكاة تلك المسموعات فيخرج أصواتاً لا يفهمها الآخرون ولا تؤدى فى نظرهم أى معنى ، ولكنها تعبر عن إدراكات لديه ، ورغبات عنده . وفى أثناء ذلك يتكون الجهاز الصوتى عنده ويبدأ يمارس وظائفه ، فينتقل الطفل بهذا الجهاز إلى مرحلة ثالثة من مراحل

اللغة فيخرج أصواتاً تدل على معانى ولكنه أيضاً لا يستطيع أن يعقد صلة بين هذه الألفاظ وبين موضوعها ، وذلك مثل كلمة « بابا » وكلمة « ماما ».

المرحلة الرابعة هي التي يبدأ الطفل فيها فيعقد الصلة بين الألفاظ وبين موضوعاتها ، وهنا يبدو تقدمه فى اللغة بواسطة الكمية التى يعيها من الأسماء ؛ وقد لوحظ في هذه المرحلة أيضاً أن إدراك الأسماء أسبق من إدراك الصفات ، وأن إدراك الصفات المتعلقة بالذوق أسبق من ادراك الصفات المتعلقة بالإحساسات الأخرى . هذا فيما يختص بالأسماء والصفات التى لا صلة لها بالزمن ؛ أما الصيغ المعبرة عن الأحداث والمتصلة بالزمن فلنشأتها وتطورها نظام آخر : لوحظ أن الصيغ الزمنية الأولى التى يلجأ إليها الطفل للتعبير عما يدركه من أحداث إنما هى صيغ الحاضر ، إذ إنه لا يعرف الأمس ولا ما يتعلق به ، ولا الغد ولا ما سيكون فيه . ثم ينمو إدراكه بالأحداث الزمنية ويتجاوز الحاضر إلى الماضى فيبدأ يذكر ما حصل له ، وما أحس به ، ولكنه يستمر فترة من الزمن قد تطول وقد تقصر وهو بعيد عن إدراك المستقبل الذى يحتاج إلى شىء غير يسير من الجهد والتفكير إذ أنه من السهل على الطفل أن يقارن بين الصور التى يلمسها ويحسها فى الحاضر ، وبين صور أخرى تشبهها قد لمسها وأحس بها فى الماضى ؛ أما ما لم يكن رآه ولا أحس به مما هو متصل بالمستقبل فإنه يصعب عليه إدراكه وتصوره . وهذه الصعوبة التى تحول

بينه وبين إدراكه المستقبل تشبه الى حد كبير نفس الصعوبة التى تحول بينه وبين إدراكه لمعنى — أنا — فهو لا يستطيع بعد أن ينطوى على نفسه، ولا أن يوجه إدراكه وإحساسه إليها بدل أن يصرفها إلى ما يحيط به من عالم خارجى ؛ ولذا فهو لا يتحدث عن نفسه ؛ ولكنه يتحدث عن الغير ؛ ولن يكون فى مقدوره إدراك نفسه ، والإلمام ببعض آفاقها إلا بعد أن تتكون لديه مجموعة كبيرة من الصور ، وطائفة غير يسيرة من المدركات ؛ وحتى فى هذه الحالة عندما يبدأ يدرك نفسه لا يتحدث عنها بصيغه — أنا — وإنما يتحدث عنها بصيغة الشخص الثالث ، أي بصيغة الغائب ؛ إذ أن حديثه عن الآخرين يدخل ضمن القصص والوصف ؛ والتعبير الطبيعى لهذين النوعين من الكلام إنما هو التعبير بصيغة الحاضر والماضى ؛ وقد ظهر فيما مضى أن ادراك صور الماضى والحاضر أسرع بكثير من إدراك صور المستقبل . أما الحديث عن النفس فانه يدخل فى نطاق الإنشاء ، والإنشاء مرحلة لا تأتى إلا بعد إعداد .

وفى كل هذه المراحل التدريجية التى مر بها الطفل منذ إدراكه لبعض الصور حتى استطاع أن يعبر عما يدركه بالصيغ الزمنيــة الرئيسية الثلاث ينبغى ألا يغيب من حسابنا أن إدراكه للمحسوسات أسرع من إدراكه للمعنويات ، فهو يرى ويسمع قبل أن يتخيل ويفهم .

ولعل مما يتصل بموضوع اللغة ونشأتها أيضاً هو ما يذكره علماء

التشريح من أولية الكتابة والقراءة ، فإنهم يقررون أن الكتابة تسبق القراءة إذ أن الكتابة وليدة الحس بينما القراءة وليدة الإدراك ؛ وكما أن الإشارة باليد تسبق النطق باللسان فإن الرسم يسبق الكتابة : وإذن فراحل اللغة من ناحية التسجيل ؛ لا من ناحية النطق ، هي : الرسم ، ثم الكتابة ، ثم القراءة .

ونحن لو استعرضنا تاريخ اللغات الكتابية لوجدنا أنها كانت في أول أمرها رسوماً ، ثم أنها قد أخذت في التطور حسب مقتضيات الظروف والأحوال حتى آل أمرها إلى رموز صوتية بدل أن كانت رسوماً لأمور حسية . وليس لنا الآن أن نفيض في الكلام عن هذا الموضوع فقد يبعدنا عن بحثنا الأصلي ؛ ولكننا نريد أن نمثل فقط بما هو معروف من اللغات لنثبت ما أشرنا إليه بصفة إجمالية .

إن اللغة الهيروغليفية مثلاً واللغة المسمارية لم يكونا في أول أمرهما شيئاً آخر سوى رسوم لكائنات محسوسة [1] : أناس ، حيوانات ،

---

[1] انظر — وادي الرافدين مهد الحضارة — ص ٣٢ دراسة اجتماعية لسكان العراق في فجر التاريخ للسير ليونارد وولي وتعريب أحمد عبد الباقي . طبع دار الكتاب العربي بمصر — الطبعة الأولى سنة ١٩٤٨ . وانظر أيضاً ما جاء في كتب التاريخ عن مصر القديمة من نصوص

طيور ، أسماك ، نباتات ؛ ثم اختصرت هذه الرسوم وتحورت على ممر الزمن فأصبح الرسم الواحد يدل على جملة أشياء بدل دلالته على الكائن الحي نفسه ؛ وأخيراً استحالت إلى رموز صوتية قريبة الشبه بما نراه اليوم فى الكتابات الحديثة المختلفة كالكتابة العربية ، والكتابات اللاتينية ؛ وها نحن أولاء لا نزال نرى صورة من الكتابة الرسمية القديمة عند الشعوب المتحضرة كالفراعنة ، والسومريين ، والبابليين ، والأشوريين ؛ نقول لا نزال نرى صورة من تلك الكتابة الرسمية القديمة عند الشعب الصينى .

هذا والطفل فى أول عهوده ، كما يقرر ذلك أيضاً علماء التشريح ، يلجأ إلى الرسم ويمارسه قبل أن يمارس الكتابة ؛ فهو إن أعطى ورقة وقلما يبدأ فى التخطيط وفى رسم أشياء مما يقع تحت حسه قبل أن يبدأ فى الكتابة ؛ ولن يأخذ فى الكتابة إلا بعد نمو عقلى وإدراك غير قليل ؛ وحتى فى أول عهده بتعلم الكتابة إنما يبدأ المعلم معه بتعليمه نسخ شىء أو نقله ، فهو أيضاً فى هذه المرحلة يرسم لا يكتب ، ويقلد لا يخلق ولا يعبر ؛ إذ أن الرسم فى مراحله الأولى وفى أشكاله المختلفة وليد الحس ؛ أما الكتابة بمعناها المتعارف فهى وليدة العقل ؛ وبما أن الحس أسبق فى تكوينه من العقل ؛ فإن ما هو وليد الحس أسبق مما هو وليد العقل .

= هيروغليفية ، حيث يوجد صور عدة ومختلفة عن الكتابتين : المسمارية والهيروغليفية .

وقد استدل على ذلك علماء التشريح بأدلة منها : إننا نستطيع أن نعلم الآخرين نسخ شيء أو نقله دون أن نعلم هؤلاء الآخرين قراءة ذلك النسخ أو النقل وذلك مثل ما كان يحدث عند المصريين القدماء وعند السومريين كذلك ؛ ومن هذه الأدله أيضاً ما لوحظ بصفة مؤكدة من أننا نفقد القدرة على القراءة ، ولا نفقد القدرة على الكتابة .[1]

قد يظن القارىء أننا أطلنا الحديث عن نشأة اللغة ، وأننا خرجنا عن موضوع البحث فى اللغة كظاهرة اجتماعية إلى اللغة كيف تنشأ عند الطفل

أما عن النقطة الأولى فإن كل ما ذكرناه لا يتجاوز القدر الضرورى فيما نظن ، لعرض اللغة ، والتعريف بها . وأخذ صورة واضحة عنها وعن مراحل تكونها ؛ وخصوصاً إذا عرفت خطورة الأبحاث اللغوية ، ومكانتها بالنسبة لسائر الأبحاث الأخرى وأدركت مهمة فهم اللغة ، وطبيعة تكونها بالنسبة لبحثنا عن النحو العربى وتحليله .

وأما عن النقطة الثانية فإننا عرضنا لرأى علماء التشريح فى نشأة اللغة

---

[1] انظر الفصل الثالث من كتاب : « العبقرية الأدبية »

Paris 1912 le genis littéraire par Dr A. Remond et Paul Vouvenel.

حيث يوجد عرض كامل لهذا الموضوع عند علماء التشريح .

عند الأطفال وبيان المراحل التى تمر بها ، سواء أكانت لغة النطق أم كانت لغة الكتابة ، لأن كلام هؤلاء الأطباء عن اللغة عند الأطفال يرسم لنا فى نفس الوقت صورة عن اللغة عند المجتمعات ؛ وهل المجتمعات البدائية سوى أطفال بالنسبة للمجتمعات الراقية ؟ وهل حياة المجتمع ومظاهر تطوره فى اللغة ، وفى الكتابة ، وفى الإدراك ، كما يدرسها ويحللها علماء النفس والاجتماع ، نقول هل حياة المجتمع بالنسبة لهذه النواحى يمكن أن تكون شيئاً آخر سوى صورة من حياة الطفل ، ومظاهر تطوره فى اللغة ، وفى الكتابة ، وفى الإدراك ؟

أشهر اللغات

واللغات المشهورة التى شغلت العلماء ، وكانت هدفا لأبحاثهم ، وموضوعا لدراساتهم هى اللغات التى تفرعت عن هذين الأصلين : الآرى والسامى .

فمن الآرى تفرعت السنسكريتية ، واليونانية ، واللاتينية . أما السنسكريتية فقد انتشرت فى الشرق . وأما اليونانية واللاتينية فقد نمتا وتفرعتا فى الغرب .

ومن الأصل السامى تفرعت اللغات السامية المعروفة وهى : البابلية — الآشورية ، والكنعانية (الفينيقية والعبرية) ، الآرامية ، واليمنية ، والحبشية ، والعربية .

ولما لم يكن من شأننا ولا من موضوع بحثنا أن ندرس هذه اللغات العديدة ، ونتتبع فروعها الكثيرة المتشعبة فسنتركها جانباً ، ونخص بالكلام اللغة العربية التي هي موضوع درسنا الحقيقي .

أسبق اللغات

أما الكلام عن أسبق اللغات ، وأيها كانت اللغة الأولى للمجتمع الإنساني فنظن أنه كلام لا طائل تحته ، إذ لا سبيل لمعرفة ذلك الآن ، فكل ما لدينا من وثائق التاريخ ووسائل العلم لا يجعلنا نطمئن إلى ماذكره القدماء بخصوص هذا ، ولا يجعلنا كذلك نؤمل أن نصل إلى معرفة ذلك بعد قليل . وكل ما ذكره القدماء في ذلك إنما هو من قبيل التخمين ، قد أملاه عليهم في أغلب الأحيان نوع من التعصب للجنس أو للدين : من ذلك ما قيل من أن لسان آدم كان سريانياً أو عبرانياً .

وإليكم ما يذكره صاحب الفهرست (١) : « قال تيادورس المفسر في تفسيره للسفر الأول من التوراة أن الله تبارك وتعالى خاطب آدم باللسان النبطي وهو أفصح من اللسان السرياني وبه كان يتكلم أهل بابل فلما بلبل الله الألسنة تفرقت الأمم إلى الأصقاع والمواضع وبقي لسان أهل بابل

---

(١) الفهرست ص ١٨ . المطبعة الرحمانية سنة ١٣٤٨ هـ .

على حاله فأما النبطى الذى يتكلم به أهل القرى فهو سريانى مكسور غير مستقيم اللفظ . وقال غيره اللسان الذى يستعمل فى الكتب والقراءة وهو الفصيح فلسان أهل سوريا وحران والخط السريانى استخرجه العلماء واصطلحوا عليه وكذلك سائر الكتابات وقال آخر إن فى أحد الأناجيل أو فى غيره من كتب النصارى أن ملكاً يقال له سيموزس علم آدم الكتابة السريانية على ما فى أيدى النصارى فى وقتنا هذا » ثم يمضى صاحب الفهرست فى بيان أقلام السريانيين .

ونحن نورد هنا على سبيل المثال ما ذكره هيرودوت المؤرخ اليونانى الكبير :

يرى هيرودوت أن أحد الفراعنة من ملوك مصر أراد أن يعرف اللغة الطبيعية الأولى للجنس البشرى . ولعله سأل فى ذلك العلماء والفلاسفة ورجال الدين ، فلم يجد لديهم جوابا يطمئن إليه ، وأخيراً فكر فى هذه التجربة ونفذها : ذلك أنه أمر أحد خواصه بأن يبحث عن طفلين رضيعين حديثى عهد بالولادة ، ويضعهما بمعزل فى مكان ناء عن المجتمع بحيث لاتصل إليهما أصوات الناس ، ثم يتعهدهما بالرضاع والإطعام حتى يكبرا دون أن يسمعا أى لفظ كان من أى إنسان كان . وقد أشرف هذا الرجل على تنفيذ إرادة الملك . وفى يوم ما وهو يقدم إليهما الطعام سمع أول لفظة ينطق بها أحد الطفلين وهى (بيكوس) فطار بها الرجل وأبلغها

للملك . ولما لم تكن هذه اللفظة معروفة فى اللغة المصرية فقد سأل العلماء فى ذلك ، وأخيراً عرف أن هذه اللفظة إحدى ألفاظ اللغة اليونانية ، وأن معناها (الخبز) .

وأظننا فى غير حاجة لأن نشير إلى الروح التى أملت على هيرودوت أن يقص هذه القصة ، وفى غير حاجة أيضاً لأن نذكر الهدف الذى رمى إليه من وراء هذه القصة .

ومما يدخل معنا أيضاً ويتصل بهذا الموضوع مايقال عن مستقبل بعض اللغات مثل مانسمعه من أن لغة القـبر هى السريانية ، أو أن لغة أهل الجنة هى اللسان العربى ، أو أن الشعوب جميعاً صائرة إلى أن تصبح شعباً واحداً يتفاهم بلغة واحدة . ومما يشبه ذلك ماقام به العلماء منذ قليل من ابتكار لغة عالمية تصلح أداة لتفاهم الشعوب جميعاً ، تلك هى لغة الأسبيرانتو .

وبالرغم من مثابرة القائمين على شأن هذه اللغة حتى اليوم ، وبالرغم من محاولاتهم العديدة لتثبيت أقدامها والعمل على تعميمها ونشرها ، وبالرغم مما ألفوه فى هذا الميدان من كتب ، وما أنشئوه من مكتبات ، وما نشروه من أبحاث فإنها لا تزال فى دائرة ضيقة محدودة ، ولا تزال بعيدة عن أن تصبح لغة تفاهم حتى بين القائمين عليها .

ولقد أردنا أن نخبر هذه اللغة ، وحاولنا أن نتبين مدى قبولها للانتشار

فقرأنا بعض ماكتب منها باللغة الفرنسية ، واتصلنا ببعض المشرفين على تعليمها فى باريس خلال عامى سنة ١٩٤٧ و سنة ١٩٤٨م ، ولكننا خرجنا من كل ذلك بفكرة هى : أن هذه اللغة صائرة إلى الموت قبل أن تغادر المهد وأن هذه المحاولات مآلها الفشل بالرغم من صدق المشرفين عليها ، ومن إخلاصهم فى العمل . ونستطيع أن نعزو ذلك إلى أسباب نلخصها فيما يلى :—

أولا : أن اللغة لاتفرض على الشعوب فرضا فهى ليست مظهراً خارجياً يمكن تشكيله حسبما تتطلب الظروف وإنما هى عنصر أساسى من عناصر تكوين المجتمع تمتزج بروحه منذ طفولته ، وتلازم تطوره العقلى فى كل مظهر من مظاهر ذلك التطور ، وليس أدل على ذلك من فشل محاولات بعض الشعوب فى فرض لغاتها على بعض المناطق التابعة لدول أخرى ، جرياً وراء أغراض سياسية ، وذلك مثل محاولات فرنسا فى إقليم السار التابع لألمانيا ، ومحاولات ألمانيا المتكررة فى إقليم الألزاس واللورين التابعين لفرنسا . بل هناك ماهو أبعد من ذلك فى الدلالة ، فقد تقوم الدولة السياسية على عنصرين أو أكثر من عناصر الأمة الواحدة ، ومع ذلك يستمر كل عنصر يحافظ على لغته الخاصة ، وأسلوبه فى التعبير والأداء ، دون أن يتأثر بمحاولات الدولة من أجل التوحيد فى اللغة ، كما تأثر بها فى محاولاتها من أجل التوحيد فى الأهداف السياسية للوطن وفى كثير من المظاهر الاجتماعية للمواطنين ؛ وأوضح مثال لذلك بلجيكا ، التى تضم بين حدودها عنصرين متباينين فى اللغة : عنصر ينطق بلغة هى من أصل

ألمانى ، وعنصر ينطق باللغة الفرنسية ؛ وأكثر من ذلك سويسرا التى تضم بين حدودها ثلاثة عناصر مختلفة ؛ عنصر يتحدث بالفرنسية ، وعنصر يتحدث بالإيطالية ، وعنصر يتحدث بالألمانية .

وأمامنا أيضاً من الأمثلة الحية ما رأيناه من فشل محاولات الإنجليز فى فرض لغتهم فى يوم ما على المصريين ، وعلى الهنود ؛ وكذلك ما رأيناه من فشل محاولات فرنسا فى فرض لغتها على شمال افريقيا ، وعلى سوريا ولبنان . أما ما نراه فى كندا أو فى الولايات المتحدة أو فى غيرها من البلاد الأخرى فإن اللغة فيها لم تفرض على السكان الأصليين ، ولكن السكان الجدد هم الذين جاءوا إلى هذه البلاد بلغة جديدة فاستعمروها واستمروا يتحدثون بلغتهم الأصلية .

ثانياً : أن تعليم لغة جديدة من اللغات لأفراد أو لشعب من الشعوب لهم لغتهم الأصلية يستلزم فى كثير من الأحيان شيئاً من المنطق ؛ واللغة كظاهره طبيعية من مظاهر المجتمع تتنافى مع المنطق ؛ ويكاد يكون مستحيلا تعليم شعب بأسره مادة من المواد تخضع للمقاييس المنطقية ؛ ولم يكن فشل المحاولات التى أشرنا اليها سابقاً إلا نتيجة لذلك .

ما هى اللغة العربية ؟

واللغة العربية التى نحن بصدد الحديث عنها هى تلك اللغة التى كان ينطق بها أفراد القبائل الضاربة فى شبه الجزيرة العربية ، من شمال اليمن حتى ريف العراق وبادية الشام .

وكانت هذه اللغة متشعبة ومتنوعة بتنوع القبائل الناطقة بها ، وذلك ما يعرف باللهجات العربية . ومنذ نهضت قبيلة قريش فى أرض الحجاز وبدأت تسود غيرها من القبائل وتتزعمها فى الدين والسياسة والاقتصاد أخذت لهجتها كذلك تسود اللهجات الأخرى ، وتتغلب عليها . وقد استمرت هذه اللهجة فى طريقها من الرقى بواسطة عدة عوامل اجتماعية وسياسية واقتصادية حتى كادت تهمل فى جانبها لهجات القبائل الأخرى ، وهى التى أورثتنا هذه الآثار الدينية والأدبية والعلمية ؛ وهى أيضاً لغة القرآن والحديث والأدب العربى .

وعلماء الشرق مجمعون على أن هذه اللهجة هى لهجة قريش ؛ ولكن من بين الغربيين الآن من بدأ يناقش هذا الرأى قائلا بأن ما يسميه العلماء لهجة قريش يغلب على الظن أنه غير صحيح ، إذ من الصعب أن نتصور لقريش لهجة خاصة مع ما نعرفه من عدم بقائها فى بيئة منعزلة عن القبائل الأخرى . فقد كانت بيئتها مورداً للقبائل العربية يأتون إليها للتجارة والحج والمفاخرة والمنافرة فى الأسواق .

وكانت قريش بحكم زعامتها الدينيه والاقتصادية دائمة الاتصال تقريباً بهذه القبائل .

وعلى هذا فإن لهجة قريش يمكن أن يقال عنها بأنه لا وجود لها ، وما هي في حقيقة الأمر إلا خليط أو مزيج من لهجات القبائل الأخرى تكون على مر الزمن ، وانتهى به الأمر إلى أن يكون لهجة البيئة الحجازية التي تسكنها قريش .

ونحن بدورنا نقول إن هذا الرأي مع ما له من وجاهة ، وفيه من نضوج وعمق تفكير لا يسهل التسليم به : إذ أننا كيف ننفي وجود لهجة قرشية بسبب كثرة الدخيل فيها ؟

من المسلم به أن قريشا كانت على صلة بالقبائل العربية الأخرى ، وأن لهجتها كانت في أغلب الأحيان هدفاً لأن تطعم من اللهجات الأخرى .

ومهما كثر الدخيل في تلك اللهجة القرشية فلن يرقى فيما نظن إلى أن ينمحي أمامه الأصل ليتأصل ذلك الدخيل . والذي ينبغي أن نتصوره ونطمئن إليه هو أن لقريش لهجة خاصة ممتازة ، وكانت مع ما لها من صلات دائمة باللهجات الأخرى تبتلع وتهضم ما يفد إليها من تلك اللهجات . وليس أدل على ذلك من هذه الفروق في اللهجات الأخرى التي نجدها في بعض الأمثلة والشواهد التي نقلها إلينا من تصدى لجمع اللغة وتدوينها من القدماء . وحتى لو سلمنا جدلاً بأن اللهجة القرشية الأولى قد انمحت تماماً وحل

محلها هذا الخليط من اللهجات الاخرى فإننا لا نزال نجد أنفسنا أمام لهجة متماسكة ومتميزة عن غيرها من اللهجات الأخرى . ويستوى فى ذلك أن نسميها لهجة قريش أو لهجة بيئة الحجاز .

* * *

هذه اللهجة القرشية السائدة فى بيئة الحجاز والمتزعمة تبعاً لمكانتها لجميع اللهجات العربية الأخرى هى التى نزل بها القرآن ، وروى بها الحديث ، وما بقى من الشعر الجاهلى . ثم هى نفسها الأداة التى دونت بها العلوم والمعارف الإسلامية فى مختلف العصور . وسنرى عند الكلام عن النحو العربى أنه أسس على هذه اللهجة القرشية ، ولم يتعرض لغيرها من اللهجات إلا فى القليل النادر . وكذلك الحال بالنسبة لمن تصدى لجمع اللغة العربية وتدوينها . وهذا ما جعلنا نحس دائماً بفجوة فى معلوماتنا عن اللغة العربية ، وبعجز عن فهم بعض النصوص العربية التى وردت عفوا فى ثنايا الكتب ، والتى عللها علماء اللغة بما يسمونه الشذوذ ؛ وما كان يملأ هذه الفجوة ولا يوضح تلك الأمثلة الشاذة — كما يسمونها — إلا معرفتنا بتلك اللهجات العربية الأخرى . ومن هنا نلمس كم أتعبنا هؤلاء العلماء وأضاعوا علينا من الفوائد ، وإن لم يكن ذلك منهم عن قصد واختيار . ولو أنهم نقلوا إلينا (فيما نقلوا) سائر اللهجات العربية الأخرى لأراحوا النحاة وأراحونا معهم من تلك التأويلات البعيدة ؛ وذلك التخريج العجيب ، ولكن سامحهم الله وغفر لهم .

على أننا لم نصل بعد إلى درجة اليأس من الوصـــول إلى معرفة شيء كثير من تلك اللهجات . فهناك يمكن أن نعثر على بعضها فى بطون كتب اللغة ؛ وفى ثنايا كتب النحو ؛ وفى خـــلال النصوص الأدبية ، وخصوصاً فى القراءات العديدة التى قرئت بها آيات القرآن . نعتقـــد أننا لو قرأنا ذلك كلـــه قراءة الممحص المدقق ؛ واستخرجنا من تلك الكتب جميعاً مايدخل فى هذه الدائرة من البحث ؛ ثم جمعنا هذه العناصر المبعثرة ؛ وألفنا بين هذا الشتات لتكونت لدينا ثروة لانشك فى أنها تصلح لأن تكون موضوعا لهذا الدرس .

إن تعدد اللهجات من طبيعة اللغات ، سواء فى ذلك قديمها وحديثها ؛ وكثيراً ماكان الحرص على معرفة اللهجات المختلفة معينا على فهم أساليب اللغة وما فيها من أسرار بلاغية ؛ ووسيلة لإدراك الفـــروق بين الشعراء والكتاب الناشئين فى بيئات مختلفة اللهجات ، وكثيراً ماكان الحرص على جمع اللهجات المختلفة للغة من اللغات أساســاً لدراسة تلك اللغة . ومعرفة الظروف التى نشأت فيها . ثم تطورت حتى أخـــذت لها مظهراً موحداً ؛ وأسلوباً عاما .

ونظرة بسيطة إلى تاريخ اللغة اليونانية . وآثارها الأدبية . ثم مقارنة هذه الآثار بعضها ببعض . بالنسبة للألفاظ ومعانيها والجمل وتركيبها ، والأفكار وطرق عرضها ؛ نقول إن نظرة بسيطة إلى ذلك تلقى ضوءاً على

قيمة معرفة الدراسين باللهجات المختلفة فى اللغة الواحدة . ولقد ترسم علماء اللغة اليونانية وآدابها هذه الخطوات فاهتـــدوا إلى نتائج هامة بالنسبة لفهم اللغة وآدابها . ولعل أهم تلك النتائج من الناحية العملية بالنسبة للغة ، ومن الناحية العلمية بالنسبة للدراسين هو ما وجدوه من ثروة طائلة فى وسائل التعبير عن الفكرة الواحدة .

ولقد سلكت اللغة اللاتينية بعد اليونانية نفس الخطوات . وكان اهتمام الباحثين فيها وفى آدابها مماثلا لاهتمام الباحثين فى اللغة اليونانيه . ثم إن النتائج المادية والعلميه لجمـــع اللهجات ودراساتها وتحليل أساليبها بعد أن اتخذت سبيلها إلى التوحيد تشبه فى جملتها نفس النتائج التى وصلت إليها دراسات اللغه اليونانيه وآدابها .

هذا وقد أخذ العلماء فى دراسة اللغات الحديثة وآثارها بنفس الطريقة التى درست بها اللغات القديمة . واستطاعوا ملاحظة كثير من الفوارق بين الأدباء المختلفين باختلاف بيئاتهم ولهجاتهم . وذلك مثل ماحدث فى اللغة الفرنسيه ، فإن ماتمتاز به الآن من ثروة فى المفردات ، وسهولة فى التعبير ، ودقة فى الأداء . إنما مرجعه إلى تعدد لهجاتها ، وتباين أساليبها ، ثم إبقائها على الكثير من مزايا هذه الأساليب وتلك اللهجات .

ومن هنا يتبين لنا إلى أى حد ينبغى أن نوجه عنايتنا بدراسة اللهجات فى اللغة العربية ، وألا يكون صنيعنا حيالها صنيع رجال اللغة والنحو من

القدماء . وللوصول إلى هذه الغاية ينبغى ألا نستصغر شأن ما لدينا من أمثلة وشواهد لتلك اللهجات ، فإن إهمال القدماء لها وعدم اهتمامهم بجمعها وإبداء رأيهم بصريح العبارة فيها من أنها ضعيفة أو شاذة ، أو غير مشهورة كل ذلك قد حط من شأن قيمة معرفة هذه اللهجات ، وزهد من سبقونا فى دراستها ؛ ويقابل هذا الإهمال تشيع متعمد من ناحية أخرى بالنسبة للهجة قريش ، فقد رفعوا من شأنها على حساب اللهجات الأخرى ، بل إنهم زادوا فى احترامها ، وأسبغوا عليها صفات هى أقرب إلى صفات القداسة .

وعلينا الآن ، بعد أن اطلعنا على مناهج البحث الحديث ورأينا النتائج التى وصل إليها علماء هذه المناهج ، أن نواجه نظرية اللهجات فى اللغة العربية بفكرة جديدة ، وفهم واسع ، ونجمع أولا ما يمكننا جمعه منها مهما قل ؛ فمن الخيوط البسيطة الواهية يتكون الحبل القوى المتين .

وهل كانت أوائل العلوم الواسعة سوى بعض المسائل البسيطة الهينة ؟ ولعل منشأ قصور الدارسين حتى اليوم هو أنهم لم يوسعوا دائرة اطلاعهم ، ولم يستوعبوا كل ذلك التراث العلمى الواسع ، والأدبى الغزير . وحتى من اطلع منهم على الكثير منه لم يقرأه وهو يقصد ذلك الهدف ، أو يرمى إلى تلك الغاية التى أشرنا إليها .

ولما لم يكن من طبيعة هذا البحث أن يتعرض فى شىء من التوسع لذكر هذه اللهجات العربية المختلفة ، وذكر بيئاتها ، والتعريف بمميزاتها ،

وجمع ما يمكن جمعه من أمثلتها وشواهدها ، فإننا نترك ذلك كله لدرس مستقل ؛ فهو ميدان بكر وخصب معا يستحق من الدارسين المختصين عناية عظيمة وجهداً كبيرا .

ولكننا مع ذلك لا نود أن نتركه دون أن نشير إلى تلك الفكرة الخاطئة التى سادت فيما بيننا زمناً طويلا والتى كان من شأنها أن فهم الباحثون قلة الموروث من تلك اللهجات ، وعدم الغناء فى جمعها ، وإحيائها ؛ وكان من شأنها كذلك أن دب اليأس فى نفوس الدارسين فانصرفوا عن الاهتمام بها أجيالا عديدة ، وأصبحوا لايذكرونها إلا فى معرض التدليل على ضعفها ، وفى سبيل الاستشهاد على قاعدة نحوية غريبة أو شاذة .

هذه الفكرة هى القائلة بضعف هذه اللهجات ، وبعدم مساواتها للهجة قريش فى الفصاحة والبيان ، وقد ألمعنا فيما مضى إلى فسادها ؛ وليس أدل على ذلك من نزول بعض آيات القرآن بها ، وإجماع علماء الإسلام على صحة قراءة المشهورين من القراء بأساليبها ، وموقف الرسول ﷺ من تصويب القراءات المختلفة بالنسبة للنص القرآنى الواحد .

كل هذا يدعونا إلى نبذ تلك الفكرة ، وإلى أن نكرس جزءاً من مجهودنا إلى جمع اللهجات العربية ودرسها . ولسنا نميل إلى مشايعة القائلين بقلة الموروث من هذه اللهجات ؛ بل إننا نستطيع أن نزعم بأن ما يوجد منها فى ثنايا الكتب والآثار يصلح لأن يكون موضوعاً كافياً للدرس ؛

وقد أشرنا فيما مضى إلى مظان وجود تلك اللهجات ، وإلى المصادر التى ينبغى أن نعتمد عليها لنجمع منها المادة الأولى ؛ ونضيف إلى ما تقدم كتب التاريخ وكتب السير ، والنصوص الأدبية حتى نهاية العصر الأموى . وإن نظرة عامة إلى ما جاء فى كتاب سيبويه وحده من أمثلة للهجات القبائل العربية المختلفة لتقنعنا بصدق ما نزعم ، وتكفينا مئونة الاستقصاء لتدعيم الدليل .

والآن بعد هذا العرض العام بخصوص اللغة ونشأتها ورأى العلماء ، قديماً وحديثاً فى ذلك ، ثم بخصوص أهم اللغات ، والأسس التى قامت عليها دراسة هذه اللغات ؛ نقول بعد هذا العرض العام لهذه المسائل ، محاولين ما أمكن أن نظهر هدفنا الخاص من وراء ذلك ، وهو موضوع اللغة العربية : الذى هو مدار بحثنا ، ننتقل إلى موضوع آخر أخص من الأول وهو الصلة بين اللغة والنحو .

اللغـــة والنحـو

اللغة العربية ــ النحو :

صلته باللغة ــ نشأته

لقد كان موضوع حديثنا فيما مضى بمثابة تمهيد لا بد منه للحديث عن النحو ، وقد انتهينا منها إلى بيان كيف كانت اللغة العربية متعددة اللهجات ومنتشرة فى كل القبائل الضاربة فى شبه الجزيرة العربية تقريباً ، ثم كيف تضاءلت هذه اللهجات وانحصرت فى لهجة قريش فقط ، وذلك بواسطة صنيع الرواة والعلماء ، ومن تصدى لجمع اللغة ، وتدوين ملاحظات عليها .

نحن إذن أمام اللغة العربية ممثلة فى لهجة قريش فقط التى ورثنا بها نصوص القرآن ومتن الحديث والتراث الأدبى القديم .

ونحن إذ نقرر ذلك إنما نساير الفكرة الشائعة التى أوضحناها فى الفصل السابق ، ولكننا حيث نجرد أنفسنا من تلك الفكرة ومن مثيلاتها من الفكر ، التى أخذناها عن القدماء بطريقة هى أقرب إلى التلقين ، حين نواجه النصوص الدينية ، والأدبية ، واللغوية مواجهة صريحة نجد أن كثيرا من لهجات القبائل العربية الأخرى ممثلا فى هذا التراث اللغوى الواسع ، غير

أن ذلك التمثيل لم يكن كافياً فى نظر القدماء لكى يدخلوه فى حسابهم ويتناولوه بالدرس ، أو يسلموه لنا على الأقل مجرداً من تلك الاعتبارات الواهية التى ألصقوها به ، والأحكام الشبيهة بالخاطئة التى أصدروها عنه ؛ فكان لذلك أثر سيء فى نفس من جاء بعدهم بالنسبة لتقدير هذا التراث.

وإن صور الخلاف بين اللهجات التى نقلها إلينا النحاة فى ثنايا كتبهم لتشهد بما كان لبعض اللهجات من قوة تكاد تساوى بها قوة لهجة قريش ؛ فكل من درس النحو يدرك مبلغ النفوذ الذى كانت تتمتع به لهجة تميم ، ويعرف ما أثبته النحاة فى قواعدهم ، وفى مؤلفاتهم من خلاف بين « ما » الحجازية و « ما » التميمية . وإذا كان النحاة لم يكثروا من صور الخلاف بين لهجة قريش ، ولهجات القبائل العربية الأخرى ، وتعمدوا فيما نظن أن يغضوا عن كثير منها ، الا أننا نستطيع أن ندرك فى سهولة صوراً أخرى كثيرة ، وقوية ومنتشرة بين سكان الجزيرة العربية فيما كان يحدث بين القبائل من مفاخرة ، ومنافرة ومهاجاة ؛ إذ أنه ليس من السهل أن نتصور خضوع شعراء القبائل جميعها للهجة قريش فى كل ما ينشدونه من قصائد فى مجتمعاتهم ، وفى أسواقهم الأدبية ؛ وليس من السهل أن نتصور كذلك أن الحكم بين الشعراء من قبائل مختلفة كان يدخل فى حسابه ، حين يصدر حكمه على قيمة الشعر ، ما كان من خلاف فى اللهجة بين شعراء هذه القبائل المتباينة .

والنحو بالنسبة للغــة هو عبارة عن مجموع الملاحظات والقواعـد التى تلتزمها أساليب اللغة فى طرق أدائها للمعانى . فالـتزام الرفـع فى كل مـن يصدر عنه الفعل أو الحدث ، والتزام النصب فى كل من يقع عليه الحدث ، والـتزام الجر فى كل حالة من حالات الإضـافه وفى كل اسـم مسبوق بحرف من حروف الجر ، والتزام الجزم فى الفعـل المضـارع إذا أسنـد إلى نون النسوة أوسبق بحرف من حروف الجزم ؛ نقول إن التزام حالة من حالات الإعراب المختلفة لـكل حالة من حالات الكلمة بالنسبة لموضعها من الجملة إن هو إلا طريق من طرق الأداء فى اللغة العربية . أمـا ملاحظـة ذلك للسير على نهجه فهو من النحو .

ومن هنا نلمس نقطة هامة وهى أن النحو لا ينشـأ مع نشأة اللغـة ، وإنما هو مرحلة من مراحل نموها ، ومظهر من مظاهر رقيها ؛ إذ هو بهذا الاعتبار وليد العقل ، واللغة فى نشأتها الأولى وليدة الحس .

وليس من شك فى أن العقل متأخر فى الوجود عن الإحساس . وليس أدل على ذلك من أن النحو لا يوجد إلا فى اللغات الراقية ذات الآثار الأدبية والعلمية الواسعة .

وقد سارت اللغة العربية فى هذا الطريق سير غيرها من اللغات الأخرى كاللغة اللاتينية واليونانية مثلا . وإذا لم يكن لدينا من الوثائق التاريخية ، ولا من الأدلة العلمية اليقينية ما يسهل علينا مهمة إثبات ذلك بالنسبة للغة

العربية ، فإن ما نجده فى مثيلاتها من اللغات الأخرى يجعلنا نطمئن إلى هذا الحكم ، ونضرب صفحا عن رأى بعض علماء العرب القائلين بأن النحو العربى قديم النشأة ، بل إنه توقيفى . كما أن اللغة فى نظرهم توقيفية أيضاً . ومن هؤلاء العلماء ابن فارس [١] ، وسنعرض بالتفصيل لوجهة نظره عند الكلام على نشأة النحو العربى .

من الثابت أن كلاً من اللغة اليونانية واللاتنية قد نشأت بسيطة فى ألفاظها وفى تراكيبها ، محدودة فى أساليبها ، وفى طرق أدائها للمعانى . غير أنها لم تلبث أن اتسعت دائرتها ، وتعددت أساليبها ، وتلا ذلك طبعاً ما يشبه التعقيد المعنوى ، فبدأت تلتزم طرقاً خاصه لتأدية المعانى ، وتميز بعض التراكيب عن بعض . إذ أن اللغة فى حياتها تخضع لحياة المجتمع وطبيعته ؛ فكلما اتسع المجتمع ، وتعددت مشاكله ، وتعقدت أموره كان فى حاجة إلى أن تتسع لغته ، وتتعدد تراكيبها ، وتتشكل أساليبها وفق ما يستلزمه النمو العقلى فى المجتمع . ولعل أول مظهر من مظاهر رقيها هو ما وجد فيها من الأغانى الشعبيه التى تكون جزءاً مما يعرف عند الغربيين بالفولكلور *Folk-lore* . ولما كان زمام هذه الأغانى الشعبيه لايزال منوطاً بيد الحس ، ولا دخل للعقل فيه إلا عن بعد ، فإن الملاحظات النحوية والالتزامات الدقيقة المنظمه لا ترى ولا تحس إلا قليلاً ؛ ولنا فيما نراه

---

[١] التعريف بابن فارس تقدم فى ص ٢٢

من الأغانى الشعبية شاهد على ذلك ،

ولكن عندما يدخل العقل فى دور العمل ويتسلم زمام اللغه ، ويبدأ فى تصريفها وترتيبها بحيث يسهل أن يؤدى بها كل ما يتصور من المعانى ، وماتدعو إليه الحياة الاجتماعيه ؛ نجد اللغه تبعًا لذلك تدخل بدورها فى التزام طرق للأداء مخصوصة ، وأساليب فى التعبير متباينة تباين المعانى والتراكيب .

فلغة الشعوب البدائية بعيدة كل البعد عن ذلك التشقيق وتلك الطرق المتباينة فى الأداء ؛ بل إن مجموعة بسيطة من المفردات وبقية يسيرة من التراكيب ، وطائفة قليلة من الأساليب التقليدية تكفى للتعبير عن حاجيات هذه الشعوب ، ولشرح أغراضها . ولكى نتصور ذلك فى وضوح فما علينا إلا أن نرجع بأذهاننا إلى الوراء لننظر فى تاريخ الكتابة الهيروغليفية أو السومرية ؛ فإن عدداً بسيطاً من الرسوم كان كافياً لأداء مايراد أداؤه ، وللتعبير عما يراد تسجيله ؛ وبقدر ماكان يظهر من النمو العقلى فى المجتمع كانت تتطور وتتعدد تلك الرسوم ؛ ولكن حينما ضاقت هذه الرسوم عن كل مايدور فى أفق المجتمع ، وكل مايقع تحت حسه الباطنى أخذت الصورة الواحدة تدل على كثير من المعانى ، فأصبحت الكتابة بذلك وسطاً بين الرمز والتصوير ؛ وفى المرحلة النهائية للكتابة تنتقل إلى الرمزية الخالصة حيث تعجز الرسوم تمامًا عن شرح وأداء مايراد . وتاريخ الكتابة التصويرية يعتبر إلى حد كبير مرآة لتاريخ اللغة نفسها ؛ وكل من اللغة

والكتابة يمثل النمو العقـــلى فى المجتمع بعد مرحلة الحس الخالص . وحينما تصل اللغة إلى الدرجـة التى تستطيع أن تسـاير بها المجتمع فى إحساسه ، وتصوره ، وخيـاله ، وإدراكه للأمور فإنها تـكون قد استكملت إلى حد كبير ثروتها فى التراكيب والأسـاليب كما استكملت ثروتهـا فى المفردات . وحينئذ نجد أن هذه الطرق ، وتلك الأساليب هى التى تمهد للملاحظات النحوية ، ولاستنباط القواعد والأحكام التى هى من عمل النحاة .

هذا ولو استعرضنا تاريخ حياة اللغة على ضوء هذه الاعتبارات السريعة لوجدناها تمر بأطوار أساسية ثلاثة : طور الطفولة ؛ وطور الشباب ؛ وطور النضـوج . على أن المدة التى تقضيهـا اللغة فى كل طور من هذه الأطـوار تختلف باختلاف الظروف والملابسات ، فقد تبقى اللغة فى طفولتها لا تنتقل إلى طور آخر مادام الشعب فى حيـاته البدائية الأولى كلغـات الشعوب فى إفريقيا الوسـطى ؛ وقد تنتقل طفـرة إلى طور النضوج إذا أتيح لهـا من الفرص مايؤهلها لأن تأخذ مكانتها بين اللغات المهـذبة الراقية . وهكذا نجد اللغة ، باعتبارها ظاهرة اجتماعية ، تتأثر بما يتأثر به سائر الظواهر الاجتماعية الأخرى ؛ وهذه الأطوار الثلاثة التى تكلمنا عنها إنما هى المراحل الرئيسية الثلاث التى مرت بهـا كل من اللغـة اللاتينية واليونانية . ونعتقـد أنها هى نفسها التى مرت بها اللغه العربية . وما يقال غير ذلك فليس بمقبول ؛ إذ أن اللغة العربية لم تـكن بدعًا ولا منفردة فى نشـأتها عن اللغـات الأخرى .

وينبغي ألا يحول جهلنا بتاريخ هذه اللغة بيننا وبين الاطمئنان إلى هذا الافتراض، كما ينبغي ألا يمنعنا ذلك الجهل أيضاً من تطبيق ما حصل فى اللغات الأخرى على اللغة العربية من حيث النشأة والتطور ؛ إذ أن القوانين الطبيعية واحدة فى ماهيتها وإن اختلفت فى الشكل والمظهر. هذا وما وجد حتى الآن من النصوص العربية القديمة، سواء ماكان منها منقوشاً على بعض المقابر أم ماكان مدفونا فى بعض الأماكن، يعتبر بداية طيبة لدرس تاريخ هذه اللغة، ويبشر بأن وراء هذه النصوص نصوصاً أخرى سيكشف عنها البحث، وستلقى ضوءاً على نشأتها، وتطورها. ولقد كانت أمثال هذه النصوص على قلتها وبساطتها فى اللغة اللاتينية أساساً لمعرفة أوليتها، ودرس تاريخها ؛ وما حدث فى اللغة اللاتينية يشبه إلى حد بعيد ماحدث فى اللغة الفرنسية. وليس من هدفنا فى هذا البحث أن نعرض لتاريخ هذه اللغات، قديمها وحديثها، ولا أن نبين فى وضوح عهود انتقالها مع ذكر المميزات لكل عهد ؛ ولكننا قد قصدنا بما تقدم بيان القوانين العامة، والأسس الطبيعية التى تخضع لها اللغات ؛ ومنها يتضح موقفنا من اللغة العربية ؛ ونستطيع أن نحدد أهدافنا من درسها ؛ ونبدى بعض الملاحظات على ماخفى من أمرها.

وإذن فمن هذا العرض السريع يمكننا أن نستخلص الحقائق الآتية :-

أولا :- اللغة العربية التى نحن بصدد الكلام عنها لم توجد فى أول عهدها

كاملة ناضجة ؛ فذلك يناقض القوانين الطبيعية العامة ؛ وإنما سارت على سنن غيرها من اللغات الأخرى ومرت بالمراحل الثلاث التي مرت بها سائر اللغات : طفولة ، شباب ، نضوج .

ثانياً : اللغة العربية كما نراها ونقرؤها تمثل المرحلة الثالثة ، التي هي عبارة عن مجهود زمن طويل ، وربما أجيال عديدة ، في سبيل تنوعها واتساعها وبلوغها إلى درجة من الدقة والرقي تستطيع معها أن تعبر عما تستلزمه حياة صاخبة في مجتمع عظيم .

ثالثاً : لم تلتزم اللغة العربية طرق الأداء الخاصة ، والنظام الدقيق في ملاحظه علامات الإعراب من حركات وحروف إلا في هذه المرحلة الأخيرة . أما ماسبقها من مراحل أخرى فليس من المعقول أن تكون كذلك من هذه الدقه والانضباط .

ومن هنا يظهر لنا فساد الرأي عند القائلين بأن اللغه العربيه توقيفية في قواعدها كما هي في نظرهم توقيفية في مفرداتها . وكذلك يظهر فساد رأي من قال بأن اللغه العربيه لم تعرف اللحن مطلقاً ، أو أن العربي لاينطق باللحن وليس من طبيعته أن يلحن . ليس هنا مجال عرض آراء هؤلاء العلماء ، ولا مناقشه هذه الآراء ، والرد عليها ؛ فسيكون لنا معهم بعد قليل موقف آخر ، نسائلهم ، ونحلل آراءهم ، ونبين مدى مخالفتهم لطبائع الأشياء . ويغلب على الظن أن مانجده الآن في بطون

الكتب القديمة ، وفى ثنايا النصوص من أمثلة نحوية وشواهد أدبية خارجة عن تلك القواعد التى وضعها النحاة ، ثم التمسوا لها تخريجا من تخريجاتهم حتى يتخلصوا منها وينسجموا مع قواعدهم ، فعللوها طوراً بالسماع ، وطوراً آخر بالشذوذ . نقول يغلب على الظن أن مانجده من هذا القبيل إن هو إلا بقايا من اللغة العربية فى مراحلها الأولى يوم أن كانت لاتلتزم هذه الطرق المعروفة فى الأداء ، ولا تتبع بالضبط هذه العلامات من الإعراب . وقد يتساءل القراء عن بقاء سبب هذه الآثار القديمة وعدم تطورها بتطور اللغة نفسها ، ولكننا نجيب عن ذلك بأن تعليل استمرار هذه البقايا على ألسنة العرب ، وفى استعمال العربية حتى أيام نهضتها ، وبلوغها درجة الكمال ، سهل ميسور . فالمسألة لاتعدو فى نظرنا أحد أمرين :

١ — إما أن تكون هذه البقايا من الأمثلة النادرة أو الشاذة قد جاءت على لسان بعض القبائل العربية الأخرى غير قبيلة قريش. وحينئذ يمكن أن تعلل هذه الأمثلة بأن تلك اللهجات العربية الأخرى التى لم تصل إلى ماوصلت إليه لهجة قريش من النضوج والكمال ، قد استمرت تتمثل فيها العهود الأولى للغة حيث لايلتزم فيها باطراد نظام مخصوص للأداء ، ولا قواعد مضبوطة للتعبير ، كما هو الشأن فى اللغات الأخرى

وحيث كانت القبائل العربية منفصلة متباعدة . لاتجتمع إلا فى ظروف ضيقة ؛ وحتى فى هذه الظروف لايجتمع إلا بعض أفراد منها كرؤساء

القبائل ، والقائمين بشئون التجارة ، مما لا يمكن معه أن تتأثر لهجة قبيلة بلهجة قبيلة أخرى ؛ فاستمرت العزلة ، وساعد على استمرارها ظروف الحياة فى شبه الجزيرة العربية حتى بعد نهضة قبيلة قريش ، ومحاولة الإسلام الكبرى بتوحيد القبائل ، وجمعها على لهجة واحدة . وذلك عكس ما لوحظ فى شبه جزيرة اليونان ، وفى شبه جزيرة إيطاليا بالنسبة لما كان هناك من لهجات متباينة ، ثم من صلات متبادلة ، وتوحيد فى اللهجة سريع .

ولقد كان من نتيجة هذه الحياة ونظمها الاجتماعية فى شبه الجزيرة العربية أن أصبحنا نجد هذه الفوارق فى طرق الأداء ، ونحس بما كانت تحدثه من خلاف واضطراب عند رجال النحو واللغة حينما تصدوا لجمعها ودراستها ، وتدوين ملاحظاتهم عليها .. وإليكم بعض الشواهد مما يلقى ضوءاً على ذلك ؛ وقد حاولنا جمع هذه الشواهد فى طوائف . كل طائفه منها خاصه بقاعدة نحوية ؛ فما يختص بقاعدة إفراد الفعل مع تقدمه على الفاعل المثنى أو الجمع نجد :

جاءونى بنو فلان ، وأكلونى البراغيث

وقول الشاعر

رأين الغوانى الشيب لاح بعارضى ٭ فأعرضن عنى بالخدود النواضر

وقول الآخر

نتج الربيع محاسنا ☆ ألقحنها غر السحائب [1]

ومنها أيضاً قول أمية بن أبى الصلت :

يلوموننى فى اشتراء النخيـــل أهلى فكلهم ألوم

وقول ابن قيس الرقيات :

تولى قتال المارقين بسيفه ☆ وقد أسلماه مبعد وحميم

وقول الفرزدق ضمن قصيدة يهجو بها ابن عفراء الضبي :

ولكن ديافى أبوه وأمه ☆ بحوران يعصرن السليط أقاربه [2]

وقد جاء القرآن بأمثلة من هذه اللهجة فقال تعالى : « وأسروا النجوى الذين ظلموا » وقال : « ثم عموا وصموا كثير منهم » . ومن ذلك أيضاً ما روى : يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار .

---

(1) انظر فقه اللغة للثعالبي — القسم الثانى ؛ سر العربية ص ٤٨٨

(2) هذه الأبيات الثلاثة قد ذكرها الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطى فى كتابه « همع الهوامع على جمع الجوامع » بمناسبة الكلام على القاعدة النحوية التى ذكرناها ؛ ثم شرحها وعلق عليها الأستاذ أحمد بن الأمين الشنقيطى فى كتابه — الدرر اللوامع — على همع الهوامع شرح جمع الجوامع — جـ١ صـ ١٤١—١٤٢ . وقد ذكر بعض النحاة أن هذه الشواهد قد جاءت بلهجة طىء ، وقال بعضهم إنها لهجة أزد شنوءه ، الذين يأتون بالألف فى الفعل مع المثنى ، وبالواو مع الجمع للمذكر وبالنون مع الجمع للمؤنث .

هذه الأمثلة لجمع الفعل مع تقدمه مع الفاعل الجمع تيسر لنا سبيل القول بأنه من المرجح أن تكون هذه الطريقة فى التعبير أسبق من القاعدة العامة المعروفة الآن وهى إفراد الفعل عندما يتقدم الفاعل الجمع ، فالمعقول أن يجمع الفعل مع الجمع ، ويفرد مع المفرد . وقد أحس بهذا الثعالبي وأشار إليه [1] حين اعترف بأصالة هذا التعبير ؛ والثعالبي هو من أولئك العلماء الذين امتازوا بقوة الإدراك ، ودقة الحس بالنسبة لحقيقة اللغة العربية ، وأساليبها ؛ وله فى كتابه « فقه اللغة » مواقف عدة تؤيد صحة هذا القول ؛ فكثيراً ما ثار على النحاة وانتقدهم فى طريقة فهمهم لأساليب اللغة ، ونبه إلى أن اللغة ينبغى أن تدرك بالذوق والحس قبل أن تدرك بالمنطق والعقل .

ومن العجيب أن نجد النحاة يقررون عكس هذا المبدأ ، فيسمون حالة إفراد الفعل مع تثنية الفاعل أو جمعه قياساً ؛ ويكون العكس إذن ، وهو تثنية الفعل مع الفاعل المثنى ، وإفراده مع الفاعل المفرد ، وجمعه مع الفاعل الجمع ، خروجا عن القياس . [2]

---

(1) فقه اللغة ص ٢٨٨

(2) انظر الدرر اللوامع للشنقيطى جـ١ صـ١٤١

ومن القواعد النحوية أيضاً ، التي اهتم بها النحاة وأكثروا فيها من الأمثلة والشواهد الخارجة على قواعدهم المقررة ، والمشيرة إلى لهجات قبائل أخرى غير لهجة قريش ، قاعدة إعراب الأسماء الخمسة .

ومن ذلك أيضاً ما نجده في كثير من أبيات الشعر لشعراء قبائل مختلفة قد اهتم بها النحاة ، وأوردوها في جملة من أبواب النحو مثل الأسماء الخمسة ، والمثنى ، وجمع المذكر السالم وملحقاته ، وجمع المؤنث السالم ، ومالا ينصرف ... الخ

ونذكر من ذلك على سبيل المثال فقط لا على سبيل الاستقصاء قول أبي النجم العجلي ، وهو من بني عجل من بكر وائل :

واها لريا ثم واها واها ٭ هي المنى لو أننا نلناها

يا ليت عينيها لنا وفاها ٭ بثمن نرضى به أباها

إن أباها وأبا أباها ٭ قد بلغا في المجد غايتاها

وهنا نلاحظ قصر الأب من الأسماء الخمسة على الألف ، وكذلك قصر المثنى على الألف في (غايتاها) . ومن قصر المثنى أيضاً قول الشاعر .[1]

تزود منا بين أذناه ضربة ٭ دعته إلى هابي التراب عقيم

---

[1] شرح همع الهوامع ج ١ ص ١٤ . هابي التراب = ما اختلط منه بالرماد ، عقيم = لا يلد .

نلاحظ « أذناه » بدل « أذنيه »

وقول عمرو بن العاص ، فى رواية ، حين حمله معاوية على مبارزة على ابن أبى طالب : مكره أخاك لا بطل .

ومن ذلك أيضاً ما جاء على لسان رجاز من ضبة كما يقول المفضل [1]

إن لسلمى عندنا ديوانا ✽ يخزى فلانا وابنه فلانا

كانت عجوزاً عمرت زمانا ✽ وهى ترى سيئها إحسانا

أعرف منها الأنف والعينانا ✽ ومنخرين أشبها ظبيانا

نلاحظ « عينانا » و « ظبيانا » مع « منخرين » .

ثم نلاحظ كذلك التزام فتح نون المثنى فى تلك اللهجة ، ويقال إنها لغة بنى الحارث بن كعب ، إذ أنهم يقلبون الياء الساكنة إذا انفتح ما قبلها ألفاً فيقولون : أخذت الدرهمان ، واشتريت ثوبان ، والسلام علاكم . قال ذلك أبو حاتم والأخفش . [2]

ومن العرب أيضاً من يلزم المثنى الألف ، ويعربه بالحركات على النون ، من ذلك هذا البيت الوارد فى كتاب المواقيت منسوبا إلى أبى عمر الزاهد :

يا أبتا أرقنى القذان ✽ فالنوم لا تطعمه العينان [3]

---

(1) شرح همع الهوامع جـ ١ صـ ٢١

(2) المصدر السابق جـ١ صـ ٢١

(3) المصدر السابق جـ ١ صـ ٢٢ . القذان = جمع قذة : البراغيث

ومما خرج عن قاعدة إعراب جمع التصحيح وما ألحق به ما روى عن جرير أنه قال أبياتا يخاطب بها فضالة العربى منها :

عرفنا جعفراً وبنى أبيه ☆ وأنكرنا زعانف آخرينِ

حيث روى بكسر النون فى « آخرين » وقد قرر فريق من النحاة أنها لغة فى الجمع .[1]

ومنها ما نقله الشنقيطى عن السيوطى : إلا الخلائف من بعد النبيينِ[2] بكسر النون أيضاً فى « النبيين » .

ومن الملحق بجمع المذكر السالم ماورد بلغة بعض بنى تميم وبنى عامر حيث يلزمونه الياء ويجعلون إعرابه على النون ؛ وذلك مثل بيت جرير الذى قاله ضمن قصيدة يهجوبها الفرزدق :

رأت مر السنينِ أخذن منى ☆ كما أخذ السرار من الهلال

حيث كسرت النون بالإضافة إلى (مر) .

وبيت آخر يروى لشاعر من خزاعة أو من جرهم .[3]

ألم نسق الحجيج سلى معداً ☆ سنينا ما تعد حسابا

حيث لزمت الياء أيضاً فى « سنينا » ونصبت النون .

---

(1) انظر: الدرر اللوامع للشنقيطى جـ١ صـ٢١ .

(2) نفس المرجع جـ١ صـ٢٢ .

(3) نفس المرجع جـ١ صـ٢٠

وهكذا نستطيع أن نمضى فى ذكر أمثلة من جمع المؤنث السالم ، والاسم الممنوع من الصرف قد شذت عن القواعد النحوية التى قررها النحويون لها ؛ ولكننا نحيل القارىء إلى هذين البابين فى كتب النحو الواسعة كشرح ابن عقيل وشرح الأشمونى على ألفية ابن مالك ؛ وكتاب المفصل للزمخشرى ، وعلى رأس هذه الكتب جميعاً كتاب سيبويه .

هذه الشواهد التى ذكرها النحاة فى مؤلفاتهم وعلى رأسهم سيبويه ، وحاولوا جهدهم فهمها فهما منطقياً وتعليل خروجها عن قواعدهم المقررة تعتبر فى الواقع بعيدة الدلالة : فهى لا تقف عند إثبات لهجة من اللهجات كما يذهبون ، ولكنها تلقى ضوءاً على كثير من المسائل الحساسة فى اللغة العربية ؛ إذ أنها تبين إلى حد بعيد طرق الأداء المختلفة عند القبائل ، وحالات الإعراب فى اللهجات ، وطبيعة اللغة فى العصر الجاهلى ومدى ما كان هناك من خلاف فى الأساليب مع توافق فى المعنى .

والذى يزيدنا اهتماماً بهذه الأمثلة وتشبثاً بدراستها دراسة عميقة ، وفهمها فهماً جديداً هو ما نجده من شبيه لها فى النصوص القديمة من اللغات المعربة كاليونانية واللاتينية ، فقد كانت هذه الأمثلة فى هاتين اللغتين بمثابة أساس انبنى عليه كثير من المسائل لفهم تاريخ اللغة ، وتطور الإعراب فيها . وما دامت اللغات فى مجموعها خاضعة لنواميس طبيعية واحدة فإن

مقارنة اللغة العربية بغيرها من اللغات القديمة المعربة يعتبر عظيم الجدوى لفهم ما غمض من مسائلها ، وما أهمل من موضوعات الدرس فيها . ولقد كان من نتائج هذه الدراسات المقارنة أن تنبه لها كثير من العلماء فتوسعوا فيها حتى شملت كثيراً من العلوم كالأدب المقارن ، والنحو المقارن . والقانون المقارن ؛ وأكثر من ذلك إنها فتحت آفاقا جديدة لفهم بعض الأمور فى كل ميدان على حدة من ميادين المعرفة الإنسانية ، بل لقد تخطى بعض العلماء هذه الميادين جميعها وأدخلها فى الأديان يقارنها ببعضها ، ويبين مدى ما يمكن أن يكون بينها من تشابه واختلاف ، ومدى ما يمكن أن يكون بعضها قد استمد مبادئه وتعاليمه من البعض الآخر . لهذه الاعتبارات قد اعتمدنا فى بحثنا اعتماداً كبيراً على مقارنة اللغة العربية ونحوها بغيرها من اللغات الأخرى وما يتصل بها من دراسات ؛ وسيرى القارىء صوراً عدة من هذه المقارنة كلما امتدت به القراءة فى هذا البحث .

عرضنا منذ قليل لبعض الشواهد الأدبية من لهجات القبائل المختلفة التى لا تتفق مع قواعد النحو المقررة ، وعرضنا لبيان وجهة النظر عند النحاة فى فهمها ، ثم بينا وجهة نظرنا نحن إذا ما وجدناها وحاولنا دراستها . وأما ما نجده من ذلك فى القرآن أو فى الحديث ، أو ما جاء عن لسان بعض القرشيين فيمكن أن يعلل بتعليل آخر :ـ

ذلك أن يكون القرآن أو الحديث قد التجأ إلى هذه الطرق من التعبير

لغرض خاص استلزمه أمر بلاغى أو ظرف اجتماعى ، فأحياناً يلجأ البليغ إلى التعبير بأساليب قديمة ؛ إما لأن موضوع الحديث يستدعى ذلك ، وإما لأن المتحدث إليه تجمعه بذلك القديم صلة وثيقة ؛ وإما لاستحضار صورة من ذلك القديم لأغراض أخرى .

كغرض التأثير ، أو الإيقاظ ، أو التبجيل ، أو الذكرى ؛ فإن مجرد الإشارة فى كل هذا يغنى عن عبارة ؛ وقد اتخذ علماء البلاغة من هذا ميدانا لدرسهم وتكفلوا ببيانه ، وذكر الآثار النفسية والأدبية ، التى تحدثها هذه الطرق فى الأداء . ولم يكن ذلك بدعًا فى اللغة العربية ولا فى أساليبها ، فإننا نجد كبار الكتاب اليونانيين والرومانيين يصنعون ذلك فى أساليبهم لأغراض بلاغية كالأغراض التى ذكرناها من قبل ، فتكون هذه التعابير القديمة ، سواء أكانت خاصة باللغة أم بالقواعد النحوية ، فى ثنايا الأساليب الحديثة بمثابة حلية تزينها ، أو لحمة تكسبها قوة .

ومن أشهر من عرف بذلك هو فيرجيل ، أكبر شعراء اللاتينية فى ملحمته « الإينياده » وتيتوس ليفوس من أكبر مؤرخيها أيضاً فى تاريخه الرومانى .

ثم إننا نجد صدى ذلك كله واضحًا تمام الوضوح فى صنيع المؤلفين

المسرحيين ، قديمهم وحديثهم على السواء . كأرستوفان *Aristophane* [1] . أوربيد *Euripide* [2] من اليونانيين ، وبلوت *Pleute* [3] ، تيرانس *Terance* [4] من اللاتنيين ، وشكسبير *Shekespeare* [5] من الانجليز ؛

---

[1] ارستوفان *Aristophane* عاش فى القرن الخامس قبل المسيح . اشتهر بشعره المسرحى فى أثينا وله أحد عشر مسرحية انتقد فيها الأدب والسياسة فى عصره .

[2] أوربيد *Euripide* ولد نحو سنة ٤٨٠ ق . م ومات سنة ٤٠٦ أو ٤٠٥ ق . م شاعر مسرحى أيضاً وله عدد كبير من المسرحيات يصف فيها نزعات الحب ، ويعالج الناحية العاطفية معالجة دقيقة .

[3] بلوت *Plaute* ولد نحو سنة ٢٥٠ ق . م ، مات نحو سنة ١٨٤ ق . م
شاعر مسرحى رومانى وقد استطاع أن يصور فى مسرحياته نزعات عصره وأخلاق المجتمع .

[4] تيرانس *Terance* شاعر مسرحى رومانى ولد فى قرطاجنه سنة ١٩٤ ق . م ومات ١٥٩ ق . م وهو من العبيد المحررين وله عدد كبير من المسرحيات قلد فيها المسارح اليونانية .

[5] شكسبير *Shekespeare* ولد سنة ١٥٦٤ ومات ١٦١٦ م أكبر شاعر مسرحى إنجليزى وله عدد كبير من المسرحيات المشهورة ، وقد استطاع أن يصور بصدق كل الإحساسات وكل نزعات الحب .

وكورنى Corneille (١) ، وموليير Molière (٢) ، وراسين Racine (٣) من الفرنسيين . هؤلاء جميعاً قد لاحظوا فى مسرحياتهم هذه الاعتبارات ملاحظة دقيقة ؛ إذ أنهم فى حاجة إلى تصوير شخصياتهم ووصف مناظرهم تصويراً ووصفا حقيقيين أو شبيهين بالحقيقـــة حتى يكون المنظر على نفس الناظر أعظم وقعا ، وأبعد أثراً ؛ فإن كانت أشخاص المنظر من القدماء استحضروهم بهيئاتهم وأجروا على ألسنتهم نفس لهجاتهم وأساليبهم وألفاظهم وتركوا منطقهم يعبر عن تفكيرهم ، ويشرح مبلغ ما لديهم من ثقافة ومعرفة ؛ وإن كانت أشخاص المنظر من المحدثين لاحظوا فى تمثيلهم وتصويرهم كل ما يتصل

---

(١) كورنى Corneille ولد سنة ١٦٠٦ ومات ١٦٨٤

وهو أبو التراجيدى الفرنسية كما يقول رجال الأدب فى فرنسا . وله عدد كبير من المسرحيات يصور فيها أخلاق عصره .

(٢) موليير Molière ولد سنة ١٦٢٢ مات ١٦٧٣ م

وهو شاعر مسرحى وممثل ومدير لمسرح فى آن واحد . وقد تجول فى ميدان المسرحيات منذ أبسطها حتى أسماها . وقد خدم بمسرحياته لغة الأدب وله عدد كبير من المسرحيات .

(٣) راسين Racine ولد سنة ١٦٣٩ مات ١٦٩٩ م

وقد قلد القدماء فى مسرحياتهم وأساليبهم التى تدور حول تصوير العواطف والإحساسات . وله عدد عظيم من المسرحيات .

بظروفهم الاجتماعية ، والثقافية ، والأخلاقية ، وحاولوا إبراز هذا كله في هيئاتهم وفي لغتهم ، وأساليبهم ؛ وكلما كان نجاح المؤلف المسرحي عظيما في هذه الأمور ، كانت مكانته في التأليف أكبر ، وشهرته أوسع .

وإذن فعلى ضوء هذا المبدأ البلاغي الذي يكاد يكون مبنياً على إحساس فطري يمكن أن يفهم ما جاء في القرآن والحديث موافقاً للهجات القبائل العربية الأخرى غير قبيلة قريش .

ومن أمثلة ذلك في القرآن مانجده في قوله تعالى :

وأسروا النجوى الذين ظلموا .

ثم عموا وصموا كثير منهم .

واتبعوا ما تتلوا الشياطين .

وفي الحديث :

يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار .

وكل ذلك خاص بجمع الفعل مع تقدمه على الفاعل الجمع .

ولعل من هذا القبيل أيضاً مانجده في القرآن من مخاطبة الواحد بلفظ الاثنين كقوله تعالى مخاطباً مالكا خازن النار : « ألقيا في جهنم كل كفار عنيد » .

ومن ذلك أيضاً مايلجأ إليه القرآن من تأنيث بعض الأسماء مرة وتذكيرها أخرى دون أن يلتزم طريقة واحدة في هذه الأسماء ومنها :

« وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً » ثم يقول بعد ذلك « إذا رأتهم من مكان بعيد . » فمرة ذكر السعير ومرة أنثه .

« إذا السماء انشقت » . « السماء منفطر به . »

فمرة ذكر لفظ السماء ومرة أنثه .

ومن هذا القبيل أيضاً ما نجده فى القرآن من التزام المثنى الألف فى حالة النصب والرفع مثال ذلك قوله تعالى :

« إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما . »

ومن ذلك أيضاً ما ورد عن السيدة فاطمة رضى الله عنها أنها قالت :

(ياحسنان ياحسنيانُ .)

إن ما أوردناه من الأمثلة وما هو موجود فى كثير غيرها يمكن بسهوله أن يعلل بما ذكرنا ، ثم إنه فوق ذلك يلقى ضوءاً قويا أمام الباحثين بالنسبة لمن يدرس اللغة العربية وتطورها ، والنحو العربى ونشأته ، إذ أننا لو استعرضنا كل ذلك مع ملاحظة تطبيق هذين المبدأين المنطقيين : البسيط يسبق المركب ، وما يدركه الحس يسبق ما يدركه العقل ؛ نقول لو استعرضنا هذا الخليط من الشواهد العربية مع ملاحظة هذين المبدأين لحل أمامنا كثير من المشاكل التى لم يتنبه لها نحاة العرب ، ولاستنار طريق وضع تاريخ لتطور قواعد النحو من وجهة النظر الفنية لا العلمية ؛ فندرك مثلا أن التزام قاعدة الإعراب بواسطة الحركات كانت أسبق إلى الانضباط منها إلى الإعراب بواسطة الحروف ؛ وندرك كذلك أن

الألفاظ الدالة على المحسوسات كانت أسبق فى الوجود من الألفاظ الدالة على الأمور المعنوية ؛ وأن الألفاظ المكونة من مقطع واحد — أى من حرف متحرك وآخر ساكن — أسبق من الألفاظ المكونة من مقطعين أو ثلاثة .

وهذا ما سار عليه الأب انستاسى مارى الكرملى فى كتابه « نشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها » وما سنسير عليه عند الكلام على النحو العربى ونشأته .

إن ما أوردناه من أمثلة حتى الآن ، وما حاولناه من تعليل لوجود هذه الشواهد فى القرآن وفى الحديث ، وفى كلام بعض القرشيين إنما هو من قبيل العرض ، والوصف لما هو كائن ؛ والتعليل لبقائه واستمراره حتى سادت لهجة قريش وعمت أساليبها ؛ أما تعليل نشأته فإننا لم نتعرض لذلك بالتفصيل . وينبغى ألا نختم بحثنا فى اللغة العربية ، وألا ننتقل إلى البحث فى النحو قبل أن نبين السبب فى نشأة هذه الطرق المختلفة فى التعبير التى كان من جرائها هذا التمايز فى اللهجات ، وذلك الاضطراب فى الأساليب ؛ إننا نرجح أن مصدر هذا الخلاف فى تذكير بعض الأسماء وتأنيثها على السواء ، وفى إعرابها مرة بالحروف ، ومرة بالحركات ، وفى دلالتها طوراً على معنى ، وطوراً آخر على معنى يخالف المعنى الأول ؛ نقول إن مصدر كل هذا يمكن أن يرجع بصفة إجمالية إلى تعدد اللهجات ؛ فبعضها

كان يستعمل ألفاظا على أنها مؤنثة ، والبعض الآخر كان يستعملها على أنها مذكرة ؛ وبعضها كان يستعملها بمعنى ، والبعض الآخر كان يستعملها بمعنى آخر .

وليس من السهل أن يكون الأمر كما وصفنا إلا حينما كانت القبائل العربية منفصلة تماماً ؛ وكل قبيلة تخلق من الألفاظ وتكون من التراكيب ما يتلاءم مع بيئتها ، وظروفها الطبيعية والاجتماعية .

وها نحن أولاء لا نزال نجد صورة حية من ذلك بين قبائل البدو المختلفة الضاربة فى صحراء مصر الشرقية ؛ فلقد جمعنا منذ سنتين مجلس مع أحد البدو المقيمين فى الصحراء قريباً من مدينة حلوان ؛ وسار بنا الحديث حتى تكلمنا عن لهجات القبائل البدوية المختلفة ، ومكث يقص علينا أوجهاً من الخلاف فى الألفاظ وفى المعانى ، وإن هذه القبيلة مثلاً تعبر عن نفس المعنى بلفظ كذا ، وتلك القبيلة تعبر عن نفس المعنى بلفظ آخر ؛ ثم ذكر حادثة كان هو شاهد عيان فيها قال : اجتمع أحد البدو بشيوخ قبيلة تقيم بناحية الفيوم ، وفى أثناء الحديث انتسب البدوى إلى قبيلة معروفة من القبائل الضاربه فى الصحراء الشرقية ما بين مدينتى حلوان والصف ؛ ولكن شيوخ القبيلة قد لاحظوا عليه لكنة غريبة ولهجة لا تتفق مع لهجة القبيلة التى انتسب إليها ؛ فتصدى له أحدهم ، ووجه إليه بضعة أسئلة يلجأ إليها البدو عادة فى مثل هذه الظروف لكى يميزوا أفراد قبيلة من أفراد قبيلة أخرى ؛ ذلك أن

ذكر له جملة أسماء لمسميات ، ثم طلب منه أن يذكر أسماءها فى القبيلة التى انتسب إليها ؛ فراح ذلك البدوى يذكر أسماءها كما يعرف ؛ ولم يمض طويل حتى كشف أمره وعرف كذبه ، وتبينوا أنه أجنبي عن تلك القبيلة جاء من قبيلة أخرى متنكراً يريد بأحد الأفراد شراً .

هذه الحادثة هى بلا شك ، صورة لما كانت عليه لهجات القبائل العربية فى العصور الجاهلية الأولى ، ولما كانت تمتاز به لهجة قبيلة عن لهجة قبيلة أخرى ؛ ولكن حينما بدأت هذه القبائل تتصل ببعضها ، وأخذت لهجاتها بحكم هذا الاتصال تتقارب ، نشأ فيما نعتقد ، ما يشبه أن يكون لغة عامة يشترك جميع القبائل فى التفاهم بها وإن انفردت كل قبيلة بلهجتها الخاصة ؛ هذه اللهجة أو هذه اللغة كانت ممثلة فى لهجة قريش التى سادت شبه الجزيرة العربية بمكانتها الدينية ، والاقتصادية ، والاجتماعية .

هذه اللهجة الموحدة لم تنضج ولم تتسع إلا على حساب اللهجات الأخرى ، أى أنها أخذت من اللهجات العربية ما تستحسنه من الألفاظ والتراكيب ، وطرق الأداء ؛ ثم مزجت ذلك كله ، وأبرزته فى صورة لغة موحدة .

وإذن فإننا نزعم أن أكثر ما فى اللغة العربية على الأقل من مترادفات ، ومن طرق متنوعة لبيان معنى الواحد ، ومن أساليب إعرابية متعددة لنفس التركيب الواحد ، إن هو إلا أثر من آثار تلك اللهجات العربية التى أخذته لهجة قريش وأضافته إلى ما كان فيها من

ألفاظ وأساليب .

وإن نظرة إلى النص القرآنى ، وما فيه من مفردات كانت تختص بقبائل أخرى غير قبيلة قريش لترينا إلى أى حد كانت تستمد ألفاظاً من اللهجات الأخرى ، وإلى أى حد كانت لغة القرآن صدى للهجات العرب جميعاً . وقد لفتت هذه الظاهرة فى نص القرآن نظر علماء الإسلام فكتب بعضهم فى هذا وحاول أن يشير إلى ما فى القرآن من ألفاظ غير قرشية ، ثم عزا كل لفظ من هذه الألفاظ إلى القبيلة التى هو مأخوذ منها . [1]

---

(1) انظر كتاب اللغات فى القرآن أخبر به اسماعيل بن عمرو المقرىء عن عبد الله بن الحسين بن حسنون المقرىء بإسناده إلى ابن عباس

تحقيق ونشر صلاح الدين المنجد

وقد ذكر صاحب هذا الكتاب مجموعة من الألفاظ الخاصة بالقبائل العربية ونسب كل لفظ إلى القبيلة التى تنطق به ؛ ثم إنه قد ذكر الألفاظ الواردة فى القرآن والخاصة بقبيلة قريش دون أن يشركها فيها غيرها .

والألفاظ المذكورة فى هذا الكتاب تدل على مبلغ ما جاء فى القرآن من لهجات القبائل المختلفة لا فرق بين شمال شبه الجزيرة العربية وجنوبها ولا بين شرقيها وغربيها وإليكم أسماء القبائل التى أخذ القرآن من ألفاظها :

قريش ، هذيل ، كنانة ، حمير ، جرهم ، تميم ، قيس عيلان ، جثعم ، أزد شنوءه ، أهل عمان ، طيء ، مذحج ، مدين ، غسان ، بنى حنيفه ، حضرموت ، أشعر ، أنمار ، خزاعة ، بنى عامر ، لخم ، =

كنده ، سبأ ، أهل اليمامه ، مزينة ، ثقيف ، سدوس ، سعد العشيرة ، العمالقة ، عذره ، الأزد ، تغلب ، الأوس ، همدان .

ونجد فى الصفحات الأولى من هذا الكتاب جدولا يذكر اسم هذه القبائل ويشير إلى عدد الألفاظ التى أخذت من كل قبيله :

اسم القبيله	عدد الألفاظ
قريش	١٠٤
هذيل	٤٥
كنانة	٣٦
حمير	٢٣
جرهم	٢١
تميم ، قيس عيلان	١٣
أهل عمان ، أزدشنوءه ، خثعم	٦
طيء ، مذحج ، مدين ، غسان	٥
بنو حنيفه ، حضرموت ، أشعر	٤
أنمار	٣
خزاعة بنو عامر لخم كنده	٢
سبأ ، أهل اليمامه ، مزينه ، ثقيف ، العمالقة ، سدوس ، سعد العشيره	١

ويؤيد هذا الفرض الذى افترضناه بالنسبة للغة العرب ما حدث بالنسبة للغة اليونانية ، ولغة اللاتينيين ، ثم للغة الفرنسيين من حيث وجود مفردات متعددة لمعنى واحد بعد أن توحدت لهجاتها فى لغة واحدة ، ومن حيث وجود التردد فى التذكير والتأنيث لبعض الألفاظ ومن حيث وجود الطرق المختلفة للتعبير عن الفكرة الواحدة . ولدينا أمثلة عديدة لكل هذا فى كل من هذه اللغات الثلاث ؛ ولولا أن ذلك يبعدنا عن بحثنا ، ويطيل ما لجأنا إليه مضطرين من استطراد لأتينا على الكثير منها .

والآن بعد كلامنا على اللغة وما يتصل بها نوجه همنا إلى الكلام على النحو وما يتصل به .

نشأة النحو العربى

لسنا نبغى من وراء هذا البحث أن نتناول النحو العربى كما تفاهم عليه العلماء أو كما نجده مدوناً فى كتبهم ولكننا سنذهب إلى الوراء البعيد، ونتناول النحو تناولا لم يعهد حتى الآن؛ فنبين حقيقته؛ ونذكر موضعه من اللغة؛ ونشرح الصلة بينهما على ضوء نشأة كل منهما وإذن فمما لاشك فيه أن النحو العربى كغيره من سائر العلوم الأخرى؛ قد نشأ فناً قبل أن يكون علماً؛ أى أن هذه الطرق الخاصة للأداء فى اللغة العربية قد التزمت باطراد فى تراكيبها وأساليبها ومرنت عليها ألسنة العرب وتمكنت من طبائعهم قبل أن توضع لها القواعد النحوية المجردة وضعاً علمياً وتدرس دراسة مستقلة لتعرف وتحتذى.

وإذن فنحن أمام نحوين إن صح هذا التعبير: نحو فنى؛ ونحو علمى.

أما النحو الفنى فهو جزء من اللغة وعنصر أساسى من عناصر تكوينها كلغة مهذبة راقية؛ وهو فى نشأته فى اللغة يكاد يكون فطرياً وإن كان الأساس فى وجوده هو المجهود العقلى. فإن اللغة بعد أن تتجاوز مرحلة الطفولة؛ ويبدأ العقل يتصرف فيها من حيث الاشتقاق، والنحت؛ والتصريف، ثم من حيث التراكيب ووضع الضوابط المميزة بين هذه

التراكيب بالنسبة لأدائها المعانى : نجد نفسها مضطرة بحكم مسايرتها لظروف المجتمع إلى التزام بعض الضوابط لتمييز بعض التراكيب عن بعض ، ولمعرفة وظيفة كل لفظ بالنسبة لموقعه من الجملة . هذه الضوابط فى صورتها الأولى هى عبارة عن النحو الفنى .

وهو كسائر الفنون يسبق النحو العلمى ؛ ففن الهندسة أو الهندسة العملية وجدت قبل أن يوجد علم الهندسة ؛ وفن النحت وجد قبل أن توجد النظريات العلمية له وفن الموسيقى وجد قبل أن تسجل نظرياتها العلمية .

ولا نزال نرى فى الطبقات العامية من الشعوب فنانين قبل أن يدرسوا هذه الفنون أو يتلقوا نظرياتها عن أساتذة أو فى معاهد خاصة . فهناك الموسيقيون وهم لا يعرفون شيئاً عن علم الموسيقى ، وهناك البناؤن وهم لا يعرفون شيئاً عن النظريات العلمية فى العمارة . وهناك الزارعون وهم لا يدرسون شيئاً عن مسائل الزراعة ، بل وهناك الأطباء وهم لا يؤدون شيئاً عن علم التشريح . وهكذا لو استعرضنا تاريخ الشعوب وتاريخ حضاراتهم لوجدنا أنهم كانو فى كل شىء فنانين قبل أن يكونوا علماء ، وأن مظاهر الفن قد سبقت نظريات العلم . وعلى هذا فإن اللغة كما ذكرنا منذ قليل حينما تدخل فى دور النمو فى الألفاظ والتوسع فى التعبير يبدأ العقل الاجتماعى فى وضع ضوابط يمكن بها تمييز المعانى بعضها عن بعض ، ويسهل بواسطتها فهم الأساليب العديدة المتنوعة ، والنحو الفنى وإن لم يصاحب اللغة من يوم نشأتها

إلا أنه يلازمها من يوم نموها ولا ينفصل عنها مادامت هى فى سبيل الحياة ومن هنا كان ذلك النحو واحداً فى كل اللغات لا يختلف فى لغة عنه فى لغة أخرى إلا بمقدار ما تختلف لغة عن لغة أخرى فى ألفاظها ودلالاتها وخواص تراكيبها .

ومن هنا أيضاً كانت نشأة ذلك النحو طبيعية فى كل لغة قدر لها أن تكون لغة أدب وعلم وفن .

ولعل القراء يتساءلون الآن عن تاريخ ذلك النحو الفنى ، وعن الحالة التى كان عليها فى عهده الأول ، وعن الظاهرة الأولى التى بدرت لتكون بمثابة اللبنة فى بناء تلك الضوابط النحوية العملية ؛ ونحن نقرر أنه ليس من السهل أن نجيب عن هذه الأسئلة ، إذ الفرق بعيد جداً بين تأريخ الفنون وتأريخ العلوم فالفن جزء من الماهية ، وهو إلى حد بعيد يعتبر صدى للإحساسات ؛ والإحساسات قديمة النشأة فى الإنسان ، دقيقة التكوين فيه . أما العلم فهو تجريد أو وصف لما تمتاز به الماهية ، وهو إلى حد بعيد يعتبر صدى للعقل ؛ والعقل يجىء بعد مرحلة تكوين الإحساس .

ومن هنا كان تأريخ الفن تأريخاً حقيقياً من المسائل الصعبة بل من المشكلات ؛ أما تأريخ العلم فسهل ميسور متى عرفت ظروفه وجمعت وثائقه . وإن من يدعى تأريخ الفن بهذا الاعتبار الدقيق كمن يدعى معرفة أول بيت بنى على الأرض ، وأول نبت نبت فيها ؛ وذلك وهم وخيال .

وإذن فكل محاولة لتأريخ النحو بمعناه الفنى تعتبر محاولة عابثة ؛ غير

أننا نستطيع أن ننظر فى تلك الضوابط النحوية التى تميز تراكيب اللغة ، ونستطيع أن نستعرضها فى مجموعها لنقارن بين ظواهرها المختلفة فى الكلام ، فمن ألفاظ تلتزم حالة واحدة فى النطق مهما تغير موضعها فى الجملة كالمبنيات ، ومن ألفاظ تتغير بتغير التراكيب كالمعربات ؛ ثم من هذه الألفاظ المتغيرة ما يتغير بالحركات فقط كالرفع ، والنصب ، والجزم ، والجر ، ومنها ما يكون مظهر التغير فيها بواسطة الحروف كالألف ، والواو ، والياء ، والنون .

وعلى ضوء ذلك النظر ، وهذه المقارنة نستطيع أن نقرر ولو على سبيل الافتراض أن بعض هذه الظواهر كان أسبق من بعضها الآخر ، وأن بعضها قد تطور من حالة إلى أخرى بينما التزم البعض الآخر نفس الحالة التى عرف بها منذ القدم .

وقبل أن ندخل فى تفصيل الكلام عن هذه الظواهر الفنية فى تراكيب اللغة العربية نحب أن نذكر أولا أننا نستبعد تماماً أن تكون اللغة العربية قد وجدت أول ما وجدت وفيها تلك الظواهر الفنية ، أو أن تكون قد عرفت أول ما عرفت وهى متميزة بضوابط الإعراب المختلفة . وليس لنا أن نمضى فى الاستدلال على صحة ما ذهبنا إليه ، ففساد العكس أمر بديهى ؛ وسيكون لنا فى هذا الموضوع كلام آخر .

وعلى هذا فإننا نتناول الآن بعض ما يبدو لنا من ملاحظات على طبيعة هذه الظواهر ، وما يمكن أن نصل إليه من نتائج .

كما أن حالة الإفراد في اللغة ، على ضوء ما تقدم من ملاحظات تسبق حالة الجمع ، نستطيع أن نقول ونحن مطمئنون أن حالة الإعراب بواسطة الحركات من رفع ونصب وجر قد سبقت حالة الإعراب بالحروف من ألف وواو وياء ونون ؛ وليس أدل على ذلك من الإبقاء على الإعراب بتلك الحركات مع وجود هـذه الحروف وذلك في بعض اللهجات كأن يقال مثلا :

جاء الزيدانُ ، ورأيت الزيدانَ ، ومررت بالزيدانِ .

برفع النون في الأول ؛ ونصبها في الثاني ، وجرها في الثالث ؛ وعلى هذه اللهجة ورد البيت الذي تقدمت الإشارة إليه منذ قليل :

يا أبتا أرقني القذان ☆ فالنوم لا تطعمه العينان

ومن ذلك أيضاً ما ذكره الإمام الشنقيطي عن الشيباني من ورود هذا المثال : هما خليلان ، بالتزام ألف التثنية وضم النون .[1] ومن هذا الباب أيضاً ما سمع من السيدة فاطمة رضي الله عنها — يا حسنان ويا حسينان — ؛ وقد قيل إن ضم النون في هذه الأمثلة وما شابهها لغة عن بعض القبائل .

ومن ذلك أيضاً ما ورد من الإعراب بالحركات في الجمع وملحقاته مع

---

[1] — الدرر اللوامع على همع الهوامع للشنقيطي جـ ١ ص ٢٢

وجود الحروف وهى لهجة لبعض بنى تميم وبنى عامر ؛ إذ كانوا يلزمون الياء للجمع ويبقون على الإعراب بالحركات مثل بيت الشعر لجرير ، الذى ذكرناه فيما مضى من قصيدة يهجو بها الفرزدق:

أرى مر السنين أخذن منى ۝ كما أخذ السرار من الهلال [1]

ومثل هذا البيت وهو فيما يظهر لشاعر من خزاعه أو من جرهم كما تقدمت الإشارة إلى ذلك .

ألم نسق الحجيج سلى معدا ۝ سنيناً ما تعد لنا حسابا[1]

ومثل هذا البيت أيضاً :

رب حى عرندس ذى طلال ۝ لايزالون ضاربين القباب[2]

ويمكن الاستدلال على صحة هذه النظرية (الإعراب بالحركات وجد قبل أن يوجد الإعراب بالحروف) بما يأتى :

أولا :ـ البسيط يسبق المركب ، والاعراب بالحركات بمثابة البسيط والإعراب بالحروف بمثابة المركب .

ثانياً :ـ الاعراب بالحروف وجد فى ألفاظ لايمكن أن تكون قد وجدت واللغة فى حالتها الأولى ، فالمثنى والجمع وُجِدَا حتما بعد الألفاظ المفردة ، ووجودهما يدل على تطور فى اللغة ، ويتبع ذلك أن علامات إعرابها قد وجدت بعد علامات إعراب المفردات .

ثالثاً :ـ ما جاء فى بعض اللهجات من شواهد وأمثلة فيها علامات

---

(1) انظر شرح همع الهوامع ج ا ص ٢٠

(2) المصدر السابق . عرندس = شديد ، طلال = الحالة الحسنة ، ضاربين = ضاربى القباب

الإعراب بالحركات مع وجود الحروف ، وقد تقدمت طائفة كبيرة من تلك الشواهد ، ويمكن العثور على عشات منها مبعثراً فى كتب اللغة والنحو .

رابعاً : — النسبية فيما نجده فى اللغة معرباً بالحروف بجانب ماهو معرب بالحركات ، فلقد جمع النحاة ما هو معرب بالحروف فيما يأتى : —

الأفعال الخمسة : يفعلون ، وتفعلون ، ويفعلان ، وتفعلان ، وتفعلين.

والأسماء الستة : أبوك ، وأخوك ، وحموك ، وفوك ، وهنوك ، وذو مال .

ثم المثنى ؛ والجمع للمذكر السالم ، وما ألحق بهما .

وهذه الأنواع الأربعة يمكن أن ترجع إلى نوعين اثنين هما المثنى والجمع .

أما الأفعال الخمسة فيمكن أن تلحق بالمثنى والجمع إذ أنها صور منها . وكذلك الأسماء الستة فهى إما أن تكون حروفها امتداداً لحركات الإعراب الحقيقية الموجودة على الحروف السابقة ؛ وإما أن تكون مضافة ، أى مركبة ؛ فتلحق بالمثنى أو بالجمع من حيث إضافة شيء جديد إلى الاسم فى حالته الأولى ، وهى إذا قطعت عن الإضافة رجعت إلى الإعراب بالحركات كالمثنى والجمع إذا رجع كل منهما إلى حالة الافراد .

وعلى هذا فالنسبة تبدو واضحة ؛ إذ أننا لا نجد ما يعرب بالحروف على هذا الاعتبار سوى المثنى والجمع وما بقى فهو ملحق بهما ، ولنا فى صنيع النحاة وفى اصطلاحهم تأييد لما ذهبنا إليه ، فقد قالوا إن هذه الحروف فى تلك الأنواع التى تعرب بها ليست إلا نيابة عن حركات الإعراب .

وهناك ملاحظة أخرى تتصل بهذه الحروف التي نابت عن الحركات في الإعراب ؛ ذلك أننا نرجح أن الإعراب بهذه الحروف من واو ونون ، ومن ياء ونون ، ومن ألف ونون ، لم يوجد كذلك مرة واحدة ، ولم تلتزم طرق الأداء به من أول الأمر بهذه الصورة التي نراها الآن ، وإنما وجد الحرف الاول وهو الألف أو الواو أو الياء ، وسارت اللغة على ذلك مدة من الزمن ، ثم التزمت النون بعد ذلك .

ولنا على هذا ما نجده مثلا في اللغة اللاتينية ، قبل أن تستقر فيها علامات الإعراب وتلتزم طريقة خاصة ؛ فقد كانت بعض العلامات الإعرابية المكونة من حرفين فأكثر غير مستقرة على نظام ، وغير كاملة العدد بالنسبة للحروف التي نراها مكونة لعلامات الإعراب بعد أن شمل اللغة نظام واحد من الإعراب . ويكاد يكون هذا طبيعياً في تطور اللغة ، فالكمال مسبوق بنقصان . وسنعرض بعد قليل لكثير من الأمثلة في اللغة اللاتينية يتضح منها حالة تلك العلامات الإعرابية قبل أن تأخذ وضعها النهائي .

ومما يمكن الاستدلال به على هذا في اللغة العربية هو ما نراه في بعض اللهجات من أمثلة وشواهد ، وحاول النحاة أن يوجدوا لها تخريجاً أو تعليلا كدأبهم في كل ما يتنافى مع قواعدهم أو يشذ عنها .

وهذه بعض الأمثلة كما نراها في كتب النحو واللغة :ـ

هما خطتا إما إسارٍ ومنةٍ ٭ وإما دم والقتل بالحر أجدر

وقد ورد هذا البيت ضمن أبيات فى حماسة أبى تمام ، وقد استشهد به النحاة على أن النون فى « خطتان » قد حذفت للإضافة المقدرة ، وراحوا يتأولون هذا المضاف المحذوف . ورأى فريق منهم أن المضاف إليه هو إسار وقد فصل بين المضاف والمضاف إليه بـ إما .

وأما ابن جنى فإنه يرى رفع « إسار » ويستجوده .[1]

ومعنى هذا أنه يقر حذف النون من المثنى مع عدم الإضافة إلى كلمة «إسار » ، وأصرح من هذا ما ذكره البغدادى من أن هذا الشاهد وأمثاله قد جاء بلغة من يحذف نون التثنية من القبائل دون أن يكون هناك ما يستدعى حذفها كالإضافة .

وقد ذكر من ذلك أمثلة شعرية وأخرى نثرية تؤيد وجود هذه اللغة عند العرب . ومن ذلك أيضاً هذا البيت :ـ

خليلى ما إن أنتما الصادقا هوي ☆ إذا خفتما فيه عذولا وواشيا

وقد علل النحاة حذف النون من « الصادقان » للاقتصار ، ولم يشيروا مطلقاً إلى احتمال أن تكون هذه هى الحالة الأولى لطريقة الأداء فى التعبير بالمثنى أو الجمع ، وذلك بالرغم من تعليلهم أحياناً ما يرونه من شذوذ على القواعد النحوية بأنه قد جاء على لغة قبيلة كذا ، أو بلهجة قبيلة كذا

---

(1) شرح همع الهوامع جـ ١ ص ٢٢

وكأنهم بهذا يفهمون أن اللغة وجدت كاملة ناضجة لم تتعثر فى طريق تكوينها ، وأن النحو وطرق الأداء كما يتصورونها قد نشأت عامة شاملة ، وفى دفعة واحدة . وظاهر جداً أن عدم تروى النحاة فى المسألة ، أو عدم تنبههم إلى تلك المراحل الطويلة التى مرت بها اللغة والنحو ، وهما فى طريق التكوين ، قد جعلاهم يتفننون فى التعديلات ، ويمعنون فى التخريج ، حتى ولو كان ذلك على حساب المعنى فى الجمل والتراكيب . بل إنهم قد يتغاضون عن المعنى أحياناً ؛ ويلجئون إلى تأويلات قد تضره أو تفسده .

ولهم فى ذلك مواقف عدة يظهر منها تمسكهم الشديد بحرفية القواعد التى وضعوها أو تلقوها ؛ من هذه المواقف ما نجده فى بعض الشواهدالأدبية وطريقة تحكمهم فى فهمها ، وفى بعض الآيات القرآنية ومحاولتهم فرض قواعدهم على قراءتها ، وتخطئة القراء إن هم أخلوا بتلك القواعد . على أنه ينبغى أن نحتاط فى هذا الحكم بالنسبة للنحاة فلا نتهمهم جميعاً بهذا الجمود فى التفكير ، والصلابة فى تطبيق القواعد ، إذ أن منهم وهم أوائل النحاة ، وعلى رأسهم الخليل بن أحمد وسيبويه والفراء من كانت درايته باللغة واسعة ، وذوقه فى إدراكها سليم .

وكتاب سيبويه يشتمل على أمثلة عدة تبين إلى أى حد كان مؤلفه يحتكم إلى اللغة لا إلى القواعد النحوية ، وينفذ إلى طبيعتها وطبيعة الناطقين بها وظروف المعانى التى قصد بها التعبير عنها ، دون أن يقف عند شكلها الظاهرى

وملاحظها المنطقية ، التي كثيرا ما تتنافى مع طبيعة نشأتها وتطورها .. من ذلك ما نجده له عندما يجانب النحو وضوابطه ويتكلم عن اللغة من حيث أدائها للمعانى ، فيناقش الجملة مناقشة المدرك لأسرارها البلاغية ، ولمقتضيات ظروفها وأحوال الناطق بها ..

ومن ذلك أيضاً ما نراه عندما يناقش مسألة نصب بعض الأسماء دون أن يكون فى الكلام فعل ظاهر يعمل فيه ، فإنه يفهم النصب على أنه من طبيعة الاستعمال العربى ، لا على أن الضوابط النحوية هى التى أدت إلى هذا .

يقول سيبويه[1] فى هذا : ((وحذفوا الفعل لكثرة استعمالهم إياه فى الكلام ؛ ولعلم المخاطب أنه محمول على أمر ؛ ونظير ذلك قولك : انته يافلان أمراً قاصداً ، إنما أردت انته وآت أمراً قاصداً ، إلا أن هذا يجوز لك فيه إظهار الفعل ، ومثل ذلك قول القطامى :

فكرت تبتغيه فوافقته * على دمه ومصرعه السباعا

ومثله قول ابن الرقيات :

لن تراها ولو تأملت إلا * ولها فى مفارق الرأس طيبا

وإنما نصب هذا لأنه حين قال وافقته وقال لن تراها فقد علم أن الطيب والسباع قد دخلا فى الرؤية والموافقة وأنها قد اشتملا على ما بعدها

---

(1) ـ سيبويه ـ الكتاب جـ ١ صـ ١٤٣

فى المعنى ، ومثل ذلك قول ابن قميئة :

تذكرت أرضا بها أهلها ✿ أخوالها فيهـا وأعمامها

لأن الأخوال والأعمام قد دخلوا فى التذكر . ومثل ذلك فيما زعم الخليـل :

إذا تغنى الحمام الورق هيجنى ✿ ولو تغربت عنها أم عمار

قال الخليل : لما قال هيجنى عرف أنه قد كان ثم تذكر لتذكرة الحمام وتهييجه فألقى ذلك الذى قد عرف منه على أم عمار كأنه قال : هيجنى فذكرنى أم عمار)) . إن طريقه هذين العالمين الجليلين فى تحليل هذه الشواهد ، ومناقشتها وفهمها تدل على مبلغ تحررها من القواعد الجـافة ، التى ألفنا وجودها عند من جاء بعد ذلك من النحاة وترينا من ناحيـة أخرى أن أهم العوامل فى علامات الإعراب المختلفة إنما هو المعنى الذى يريد العربى أن يعبر عنه . وبجانب سيبويه وأستاذه الخليل نجد الفراء يسلك نفس السبيل فى فهم الأساليب العربيـة ؛ سواء ما كان منها فى الأدب أم فى القرآن .

ومواقفه فى ذلك عديدة ومشهورة فى كتابه ـ معانى القرآن ـ الذى لا يزال مخطـوطاً حتى الآن . وإن من يطلع على هذا المخطوط يستطيع أن يلاحظ بوجه عام أن الفراء فى تحليله للاساليب ، وفى تعليله للضوابط الإعرابية يركن إلى طبيعة العربى ، وحسه فى استعمال اللغة ثم إلى حسه هو فى فهمها ؛ فهو تعليل يتلاءم مع أولى المراحل العلمية فى اللغة يوم أن كانت قريبة جداً من النقاء ولادخل

للصنعة المنطقية فيها . ومن أمثلة ذلك تعليله للفرق فى المعنى بين إضافة اسم الفاعل إلى مفعوله ، ونصبه له ، فهو يقول إن الاضافة تفيد معنى المضى فى الحدث ، والنصب يفيد معنى الحالية . وذلك عند شرحه لقوله تعالى « هل هن كاشفات ضره »[1] .

ولقد تنبه إلى هذا الأمر أيضا بعض من تصدى لدراسة اللغة وآثارها من غير النحاة الخلص ، وصفت مداركه لفهم كنهها وآثارها مثل المبرد الذى لم يكن شديد الثقة بالنحاة ، ولم يكن يتحرج من تخطئتهم ، والتصريح بعدم مقدرتهم على فهم بعض أسرار التراكيب ، إذ أنهم كانوا شديدى الحرص على ظاهر التركيب ، وحرفية القواعد .

من ذلك قوله : من الآيات التى ربما يغلط فى مجازها النحويون قول الله تعالى « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » . والشهر لايغيب عنه . ومجاز الآية : فمن كان منكم شاهدا بلدة فى الشهر فليصمه ، والتقدير : فمن كان شاهداً فى شهر رمضان فليصمه ، ونصب الشهر للظرف لانصب المفعول[2] . ويضاف إلى ذلك أيضاً ما نراه من موقف الألوسى فى تفسيره .[3]

وفى المغرب للمطرزى ، أن النحاة زعموا أن العرب أماتت ماضى (يدع)

---

(1) ـ أنظر صـ ١٦ من المخطوط سطر ١٢

(2) فقه اللغة للثعالبى جـ٢ = ٥٤٦ طبعة مصطفى محمد ١٩٣٣

(3) ١٥٦ /٣٠/ روح المعانى ـ حموده صـ ١٤٤

والنبى صلى الله عليه وسلم أفصحهم وقد قال عليه الصلاة والسلام « لينتهين أقوام عن ودعهم الجمعات » . وقرأ صلى الله عليه وسلم « ما ودعك » بالتخفيف .

وقال أبو الأسود الدؤلى :

ليت شعرى من خليلى ما الذى ٭ غاله فى الحب حتى ودعه

وهو دليل على استعمال ودع بمعنى ترك .

وفى الحديث « اتركوا الترك ما تركوكم ودعوا الحبشة ما ودعوكم » [1]

ولعل أوضح ما يستشهد به على ذلك هو تأويلاتهم الغريبة فى بابى الاشتغال والتنازع ، فإنهم هنا كثيراً ، ما يضربون صفحاً عن سر التراكيب اللغوية لكى يقوموا قواعدهم التى وضعوها ، ويتمشوا مع مبادئهم التى افترضوها ، من وجوب وجود العامل لكل معمول يبدو ظاهراً فى الكلام وامتناع أن يعمل العامل الظاهر فى ذلك المعمول بحجة أنه شغل عنه بالعمل

---

(1) ثم يمضى الأستاذ حوده فى سرد شواهد أخرى وأدلة أخرى على مغالاة النحاة وتقديسهم لقواعدهم مع عدم بصرهم بالعربية كما يجب ص ١٤٤ - ص ١٤٩ ؛ وقد يبدو فى كثير من المواقف أن المؤلف متحامل على النحاة ولكن تحامله لا يلبث إلا أن يكون تعبيراً عن الواقع حينما نرى آراء النحاة بالنسبة لقراءات القرآن وتخطئتهم للقراء كلما لمسوا فيهم مجافاة لقواعد النحو التى هى من صنيعهم دون أن ينظروا إلى كل اللهجات العربية نظرة دقيقة شاملة .

في الضمير ، وكأن المسألة في نظرهم عملية حسابية ، أو نظرية قياسية منطقية ، دون أن يكون للمعنى الذي في نفس المتكلم أثر في التعبير . وكتب النحو في هذين البابين تذكر أمثلة عدة من هذه التأويلات ؛ منها ما هو مأخوذ من الشواهد الأدبية ، ومنها ماهو مأخوذ من النصوص الدينية ؛ وليس لنا أن نتناول جميع ماذكروه من شواهد لنناقشهم فيها ونبين وجهة نظرنا بالنسبة لآرائهم ، ولكننا نكتفي بآية قرآنية واحدة نستعرض فيها وجهة نظرهم ، ثم نشرح وجهة نظرنا لكي يتبين للقراء مدى تصور النحاة لأساليب اللغة ، ومبلغ تمسكهم بحرفية مقاييسهم ولو كان ذلك على حساب المعنى وبلاغة التركيب ، هذه الآية هي قوله تعالى « والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع » ؛ ورأى النحاة فيها واضح معروف ، فهم يقررون أن الانعام مفعول لفعل محذوف يفسره المذكور ، وهو خلق ؛ ولا يصح أن يعمل هذا الفعل المذكور في الأنعام لأنه شغل بالعمل في ضمير الأنعام ؛ وإذن فلابد من تقدير عامل آخر لكي يبرر العمل في لفظ الأنعام ، وهذا العامل في تقديرهم هو من لفظ « خلق » المذكور .

هذه هي وجهة نظرهم ، ونحن لو سايرناهم في هذا لكان تركيب الآية هو « وخلق الأنعام خلقها لكم . . . » ونحن نترك الركة اللفظية مؤقتا ولا نعترض بها عليهم لانهم يستطيعون الدفاع عنهـا بأن الفعل واجب الاستتار فلا يمكن أن يظهر ، وبالتالي لا تظهر الركة اللفظية ونحاول أن نناقش الآية من ناحية المعنى بالنسبة لتقديرهم : إن الآية في اعتبارهم تؤدي إلى تأكيد الخلق فيكون اهتمامها الأول موجهاً إلى هذه العملية وهي خلق الأنعام ، بينما الأنعام نفسها وهي نتيجة عملية الخلق تصبح في الدرجة

الثانية من العناية والاهتمام . ونحن لا نظن أن القرآن فى هذا التركيب قد قصد إلى ذلك ، ونستبعد أن يكون اهتمامه موجها إلى الخلق لا إلى الأنعام . ثم كيف يمكن أن يفهم التأكيد لعملية الخلق واللفظ لم يذكر صراحة فى صدر التركيب ؟ وكيف يمكن أن يفهم ذلك أيضاً والآية كلها تؤكد وتلح فى التأكيد بالنسبة للأنعام ؟ وهذا التأكيد يبدو واضحاً فى تصدرها وفى عود ضمائر أربعة عليها : الأول فى « خلقها » ، والثانى فى « فيها » والثالث فى « ومنها » ، والرابع فى « ولكم فيها جمال » ، وفى شحن الآية بصفات من خواصها : « دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الانفس » .

من كل ذلك يظهر جليا أن الآية شديدة الاهتمام بالأنعام لا بعملية الخلق فيها ؛ ولكن النحاة — سامحهم الله — قد جانبوا المعنى وبلاغة التركيب وتمسكوا بحرفية قواعدهم ، وبتطبيق مقاييسهم فجاءت تأويلاتهم كما نرى فى هذه الآية .

وعلى ضوء هذا نقدر أننا لا نمانع ولا نجد غضاضة فى أن يكون لفظ الأنعام مفعولا مقدماً للفظ خلق المذكور ، وأن تقديمه على الفعل قد جاء لغرض بلاغي كما تقدم ، ولا نجد غضاضة أيضاً فى أن يكون الضمير المتصل بخلق ؛ والذى أوجد الإشكال فى نظر النحاة فمنعهم من نصب

الأنعام بلفظ خالق المشغول بالضمير ، نقول إننا لا نجد غضاضة أيضاً فى أن يكون هذا الضمير تأكيداً للفظ الأنعام ؛ إذ المسألة لا تخرج بهذا عن دائرة بعض التعبيرات اللغوية مثل : جاء زيد هو . ولهذا التركيب نظائر فى اللغات الأخرى كاللاتينية والفرنسية ؛ ففى اللاتينية نجد الضميرين : *Ipse - idem* يذكران فى الجملة أو يذكر أحدهما ، ويقصد منهما التأكيد إن كان المؤكد مذكوراً فى الكلام ، ويتبعانه فى حالة الاعراب ، والعامل فى الكل واحد ؛ ويحلان محله إن لم يكن مذكوراً فى الكلام .

ونعود بعد هذا إلى ما نحن بصدده فنقول : إنه مما يمكن الاستشهاد به أيضاً على حذف النون من المثنى والإبقاء على الألف فقط قول الأخطل من قصيدة يفتخر فيها بقومه ويهجو جريراً :(1)

أبنى كليب إن عمى اللذا * قتلا الملوك وفككا الأغلالا

فقد حذف النون من « اللذان » وأبقى على الألف فقط .

وقوله أيضاً :

هما اللتــــا لو ولدت تميم * لقيل فخـــر لهم صميم

فقد حذف النون كذلك من « اللتان » واقتصر على الألف .

---

1 ـ شرح همع الهوامع ج ١ ص ٢٣ . يقصد الأخطل بعميه عمراً ومرة ابنى كلثوم ؛ فإن عمراً قتل عمرو بن هند ملك العرب ، ومرة قتل المنذر بن النعمان ابن المنذر .

وها هى ذى أيضاً بعض الأمثلة للجمع الذى حذفت منه النون واكتفى بالحرف السابق لها ؛ سواء أكان ذلك الحرف واوا أم ياء :

فمثال الواو ما ذكره عمرو بن امرىء القيس الخزرجى ، وهو جد عبد الله بن رواحة ، وقد مات قبل الاسلام :

والحافظو عورة العشيرة لا ☆ يأتيهم من ورائنا وكف [1]

فقد روى بفتح عورة على أنها مفعول لاسم الفاعل قبلها ، وحذفت النون من « الحافظون » وهذا البيت وإن كان قد روى بكسر « عورة » أحياناً لتجويز حذف النون للإضافة ، إلا أنه يكفينا للدلالة على ما نحن بصدده أن يكون قد روى أيضاً بنصب « عورة » دون أن تخطأ هذه الرواية .

ومن ذلك أيضاً :

غشوم حين ينقذ مستفاد ☆ وخير الطالبى الترة الغشوم [2]

وهذا البيت كالبيت السابق ، غير أن البيت الأول كان لفظ الجمع فى حالة الرفع ، فاستبقى الواو . والبيت الثانى لفظ الجمع فيه فى حالة الجر فاستبقى الياء وحذف النون .

ومن ذلك أيضاً حذف النون فى الاسم الموصول للجمع فى بيت للأشهب بن رميله [3]

إن الذى حانت بفلج دماؤهم ☆ هم القوم كل القوم يا أم خالد

---

(1) - الوكف : العيب والإثم .

(2) همع الهوامع للسيوطى ص ٤٩ — شرح همع الهوامع للشنقيطى ج ١ = ٢٤

(3) المصدر السابق ج ١ ص ٢٤ الفلج = اسم موضع

وبعد فربما يبدو للقارىء هنا أيضاً إننا أطلنا فى ذكر الأمثلة والشواهد ، وفى تحليلها والتعليق عليها ، ولكننا قصدنا إلى ذلك قصدا لنرى صورة واضحة عن مظهر الإعراب بالحروف عند العرب . ومبلغ ما كان هناك من اضطراب فى هذه المظهر ، ولكى نثبت من وراء ذلك ماذهبنا إليه من ملاحظات .

وقبل أن نترك هذا الميدان نحب كذلك أن نعرض موقف النحاة من هذه الشواهد وأمثالها حتى تتبين روحهم فى فهم الأساليب العربية القديمة . وكيف كانوا خاضعين لقواعدهم بالنسبة لتلك الشواهد .

وإليكم مثلا من أمثلة تعليلات النحاة يوضح موقفنا منهم ، ويزيدنا ثقة من أنهم لم ينظروا إلى اللغة العربية ككائن حى ينشأ صغيراً غير واضح المعالم ، ولا مفصل الأعضاء ، ثم ينمو وتبين أجزاؤه ، وأخيراً يكبر مع الزمن ، ويصل إلى درجة الكمال :

لاحظ النحاة أن البصريين والكوفيين متفقون على جواز حذف النون من الأسماء الموصولة ، سواء أكان ذلك فى حالة التثنية أم فى حالة الجمع ، وقد اختلفوا بعد ذلك فى تعليل هذا الحذف فذهب البصريون إلى أنها تحذف لاستطالة الأسماء الموصولة بالصلة بعدها . ورأى الكوفيون أنها تحذف مطلقاً سواء أطالت الصلة أم قصرت ، إذ أن حذفها عندهم بناء عن

لغة فيها ، وهذا صحيح . فإن بنى الحارث بن كعب وبعض بنى ربيعة كانوا يحذفون النون من الأسماء الموصولة فى حالتى التثنية والجمع[1] . وحينما جاء هذا على لسان بعض الشعراء فى غير الأسماء الموصولة من الأمثلة التى تقدم ذكرها حاول النحاة أن يعللوا هذا الحذف الذى خرج عن قواعدهم النحوية : فقالوا إن النون قد حذفت فى الأمثلة المتقدمة تشبيهاً لها بالأمثلة الموصولة . إذ أنها صفات وصلت « بأل » الموصولة . وممن قال بذلك صراحة ابن جنى[2] . ولكن حينما وجدوا هذا الحذف واردا أيضاً فى ألفاظ لاصلة لها البتة بالأسماء الموصولة مثل :

أقول لصاحبى لما بدالى ** معالم منهما وهما نجيا

بدل « نجيان » ومثل :

لو كنتم منجدى حين استعنتكم ** لم تعدموا ساعداً منى ولا عضداً

نقول إنهم حينما وجدوا الحذف هنا لم يجدوا مخلصاً لهم سوى أن يلجئوا إلى ضرورات الشعر . ومع ذلك فماذا عساهم يقولون حينما نورد لهم هذا المثال العربى القديم فيما حكاه الغرب عن لسان الحجلة تخاطب القطاة :

بيضك ثنتا وبيضى مائتا

أى بيضك ثنتان وبيضى مائتان[3]

---

(1) ، (2) شرح همع الهوامع للشنقيطى ج ۱ ص ۲۲-۲۳

(3) نفس المرجع ج ۱ ص ۲۲

فلم يكن ذلك من الأسماء الموصولة . ولم يكن كذلك مما يشبه الأسماء الموصولة . ولم يكن أيضاً فى الشعر حتى يمكن التعلل بالضرورة .

ومن ذلك الضرب أيضاً ماأثر عن العرب من حذف نون التثنية فى حالة النفى مثل :

لاغلامى لك ، ولا يدى لزيد ، وقميص لا كمى له [1]

ومن ذلك أيضاً مانجده فى بعض نصوص القرآن والحديث ، فمن القرآن قوله تعالى : (تظاهرا)

بتخفيف الظاء ، وهى قراءة فيها

وكذلك الحديث الذى خرجه مسلم فى قتلى بدر حين قام عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم فناداهم ، فسمع عمر قوله ، فقال : يارسول الله ، كيف يسمعوا وأنى يجيبوا . وإذا كنا بصدد التدليل على أن هذه الأمثلة ، التى أوردناها ، لها صلة بالقديم وأنها استمرار لاستعمال اللغة منذ كانت غير ناضجة ، ولا مستقرة على نظام واحد ، نقول إذا كنا بصدد التدليل على هذا ، وبصدد نقد النحاة فى موقفهم من اللغة ومن فهم أساليبها فأننا نجد أيضاً دليلا لنا فيما اعترفوا هم به ، ذلك أنهم أقروا مبدأ الترخيم فى المنادى ، واعترفوا بوجود لهجة من لهجات القبائل العربية تحذف آخر الكلمة مثل « ياأبا الحك » بدلا من « ياأبا الحكم »[2] . ونحن نظن أن الترخيم ليس إلا ذكرى من ماضى اللغة . وأثراً من آثارها

---

(1) فقه اللغة للثعالبى جـ٢ . صـ٥٠٧

(2) هذه اللهجة عرفت بها قبيلة طىء وقد اصطلح العلماء على تسمية تلك اللهجة - قطعة طىء - بضم القاف ؛ وكان ذلك عاما عندهم فى كل الكلمات .

القديمة ولم يكن الأمر فيه كما فهمه النحاة من أنه استغناء عن الحرف الأخير فى الاسم مادامت الحروف الباقية تدل عليه .

وكذلك الشأن فيما يختص بلهجة طيء ، التى لانزال نجد آثارها فى بعض اللهجات بمصر [1] . ولنا بعد هذا أن نقول :

الواقع أن النحاة لم يكن من شأنهم أن يمعنوا النظر فى اللغة ، ولا فى تكوينها ، شأن النحاة فى سائر اللغات الأخرى ؛ ولم ينظروا إلى النحو نظرة فاحصة مدققة ، ليدركوا أن هذه الطرق فى الأداء ، والأنظمة المتبعة فى التراكيب لم تنشأ كاملة من أول الأمر وإنما مرت بأدوار من الرقى حتى وصلت إلى المرحلة النهائية التى بنى النحاة عليها قواعدهم . ومن أجل ذلك وقعوا فيما وقعوا فيه من تعليلات وإشكالات .

وصوروا اللغة لمن جاؤا بعدهم تصويراً يبعدها عن طبيعتها ، ويجعل بينها وبين ماضيها فجوة واسعة يجد الدارس كثيراً من العناء إذا ماحاول أن يملأها . وقد أحسسنا نحن بهذه الفجوة وبذلك العناء حينما بدأنا دراسة فقه اللغة العربية ، لا كما كان يعالجه القدماء ، بل وفقاً المنهج الحديث عند الغربيين فى دراسة هذا العلم . فقد كنا فى سبيل البحث عن تاريخ بعض المفردات ، وتاريخ استعمالها الحسى والمعنوى فى مختلف العصور ، ومعرفة التغير الذى طرأ على بنيتها ومؤداها فى مراحلها الطويلة ، نقول أننا كنا فى سبيل ذلك كمن يتحسس الطريق بغير مرشد . كنا لانجد أمامنا سوى معاجم اللغة ، وهى خليط هائل من المعانى ، وكتب الأدب والنحو وهى غير

---

(1) فى بعض جهات من مديرية بنى سويف يحذف الناس المقطع الأخير من الكلمة فيقولون مثلا : محمـ ، حسيـ ، محمو ، بدلا من محمد ، حسين ، محمود .

محددة الأهداف بالنسبة لما نريد التعرف عليه ، فنغوص هنا وهناك ، ونعمل الفكر فى الافتراضات حتى نهتدى إلى خيط بسيط نستمسك به ونجمع حوله من الخيوط الأخرى ؛ ومع هذا فكنا ننجح طوراً فى عمل نسيج متماسك من تلك الخيوط ، ونفشل طوراً آخر فنهمل ماجمعناه ، ونتركه نهباً للنسيان كان هذا ، ولا يزال دأبنا فى دراسة فقه اللغة ؛ وها نحن أولاء نقضى نحوا من أربع سنوات فى دراسة سورة المطففين دراسة تتفق مع منهج فقه اللغة الحديث ؛ وبالرغم من ذلك كله ، وبالرغم من النتائج الهامة التى اهتدينا إليها فى فهم آياتها وإدراك بعض أسرارها البلاغية من ناحية الألفاظ ، والمعانى ، والأسلوب ، فإننا لا نزال غير مطمئنين لوضع الأسس العامة لهذا العلم بالنسبة للغة العرب ، ولاخراج بحث ناضج فيه .

والآن بعد مناقشة هاتين النظريتين الخاصتين بمظاهر النحو الفنى ؛ ومناقشة النحاة فى فهمهم ؛ وتعليلهم لوجود تلك المظاهر ؛ ثم الاستدلال على صحة ماذهبنا إليه خاصا بتلك النظريتين ؛ نستطيع أن نثبت باختصار النتائج العملية من وراء ذلك ؛ وهى تنحصر فى هذه الملاحظات:

أولا : — التأكد من أن كل ماسماه النحاة شاذا أو خارجا على القواعد النحوية أو سماعيا يعتبر أثرا قديما قد بقى فى اللغة بمثابة الرواسب ؛ التى تبقى فى بعض فروع النهر بعد أن تجف ؛ وتتحول جميعاً إلى مجرى واحد

ثانيا : — ينبغى أن نسقط كل هذه الامثلة من حسابنا إذا أردنا أن نضع النحو

وضعا جديداً ، فلا ندع قواعده تتعثر بسببها وذلك كصنيع النحاة فى سائر اللغات المعربة ، حيث تركوا جانبا بقايا اللهجات القديمة ووجهوا همهم إلى اللهجة القوية الموحدة .

ثالثا :ـ هذا يمهد لنا السبيل لمعرفة تاريخ اللغة أو فترة من تاريخها على الاقل ، ثم إنه يرينا نوعا من أنواع التطور اللغوى ، وبهذا نستطيع أن نضع الاساس لدراسة فقه اللغة على المنهج الغربى الحديث ، الذى اشرنا اليه وإلى بعض وسائله واتجاهاته منذ قليل .

رابعا :ـ إن هذه العلامات التى سماها النحاة علامات أعراب لم تكن أولا باتفاق الجميع ، ولم توضع فى أول الامر بناء عن فكرة مجردة عن معنى كل علامة من هذه العلامات ، ولم يكن الحكم فى وضعها معنى الجمل والتراكيب وإنما هو اتفاق الناطقين باللغة على هذه الطريقة أو تلك من الأداء ، فالمسألة اتفاقية لا منطقية أو قياسية ، وبمعنى أوضح أنهم لم يفكروا فى رفع الفاعل قبل أن ينطقوا به مرفوعا ولا فى نصب المفعول قبل أن ينطقوا به منصوبا ولا فى جر المضاف اليه قبل أن ينطقوا به مجروراً وذلك عكس طريقة النحاة فى فهمهم لهذه العلامات الاعرابية وتحليلهم لها ، ولو كان الامر كما ذهب النحاة لاستلزم أن يكون النضوج العقلى عند العرب قد سبق النضوج اللغوى بمراحل طويلة وهذا ما لا يمكن أن نتصوره بحال من الاحوال

والمسألة فى نظرنا لا تعدو أن يكون الناطقون باللغة قد اتفقوا ، بأى طريق كان ، على رفع فصيلة من الاسماء لها اعتبار خاص فى تركيب الجملة ، ونصب فصيلة أخرى

منها لاعتبار آخر وجر فصيلة لاعتبار يغاير الاعتبارين السابقين حتى يمكن بذلك التفرقة أو التمييز بين هذه الاعتبارات المختلفة.

ومما يدل بوضوح على أن المسألة فى علامات الاعراب هى كما صورناها أننا نجد فى بعض الأحيان قبيلتين عربيتين قد اختلفتا فى علامة الاعراب بالنسبة للاسم الواحد، ومكانته من الجملة هى هى، واعتباره فى نفس الجملة هو هو، مثل المسألة «الزنبورية»[1]، التى اختلف فيها سيبويه، عالم البصره، والكسائى، عالم الكوفة، وهذه

---

[1] يمكن تلخيص هذه المسألة وظروفها فيما يأتى: يقال أن سيبويه، وهو عالم البصرة اذ ذاك، قدم إلى بغداد، وكان فيها الكسائى يعلم الأمين وفد سيبويه على يحي بن خالد البرمكى وولديه جعفر والفضل، وأبدى لهم رغبته فى مناظرة الكسائى، وهو أعلم أهل الكوفة إذ ذاك فعمل يحي وولداه على توصيله إلى الرشيد وإقامة المناظرة وكان مما وجهه الكسائى من أسئلة إلى سيبويه قوله: كيف تقول: ظننت أن العقرب أشد لسعة من الزنبور، فإذا هو هى، أو: إياها ...؟

فقال سيبويه: فإذا هو هى، وخالفه الكسائى فأجاز القولين، الرفع والنصب فى الخبر وذلك لأن نصب الخبر المعرفه بعد «إذا» يجيزه الكوفيون ويمنعه البصريون ثم قال الكسائى: كيف تقول يا بصرى: خرجت فإذا زيد قائم أو قائما؟ فقال سيبويه أقول: قائم ولا يجوز النصب. فقال الكسائى أقول: قائم وقائماً.

فقال الرشيد: قد اختلفتما وأنتما رئيسا بلديكما، فمن يحكم بينكما؟ فقال له الكسائى: هذه العرب ببابك، قد سمع منهم أهل البلدين، فيحضرون ويسألون. فلما جاءوا بالأعراب الذين كانو يومئذ بالباب. وهم أبو فقعس، وأبو دثار، وأبو الجراح، وأبو ثروان، وعرضوا عليهم مسائل الخلاف بين سيبويه والكسائى، وطلبوا حكمهم فى هذا، وافقوا الكسائى فيما ذكر.

المسألة مشهورة عند النحويين ، ورواها كثير من المؤلفين ، وكانت مثار خلاف بين الرواة ، فمنهم من ينسبها إلى سيبويه والكسائى ، ومنهم من ينسبها إلى سيبويه والفراء ومنهم من يقرر أنها كانت بحضرة الخليفة هارون الرشيد ومنهم من ينفى ذلك ، ويدعى أنها كانت بحضرة يحيي بن خالد البرمكى . ونحن لا يعنينا الخلاف بين أسماء النحاة ، ولا بين من كان فى حضرته هذا الخلاف ، بقدر ما تعنينا المسألة فى ذاتها ، فسواء لدينا أكان الخلاف بين سيبويه والكسائى أم بينه وبين الفراء ، والمهم أن نقرر أن الخبر المعرفة بعد ـ إذا ـ يمكن أن يكون مرفوعاً كما يمكن أن يكون منصوباً .

ومن هذا القبيل أيضاً مسألة المستثنى فى الكلام الناقص بين التميميين والحجازيين .

ومثالها : ليس الطيب إلا المسكُ [1].

---

[1] ـ يذكر أبو على القالى فى كتابه الأمالى ٣ : ٣٩ حدثنا أبو حاتم قال سمعت الأصمعى يقول : جاء عيسى بن عمر الثقفى ونحن عند أبى عمرو بن العلاء فقال يا أبا عمرو « ما شىء بلغنى عنك تجيزه ؟ » قال وما هو ؟ قال « بلغنى عنك أنك تجيز : ليس الطيب إلا المسك » بالرفع « فقال أبو عمرو « نمت يا أبا عمرو وأدلج الناس ، ليس فى الأرض حجازى إلا وهو ينصب وليس فى الأرض تميمى إلا وهو يرفع ، » ثم قال أبو عمرو : « قم يا يحي يعنى اليزيدى ـ وأنت يا خلف ـ يعنى الأحمر ـ فاذهبا إلى أبى المهدى فأنه لا يرفع ؛ واذهبا إلى المنتجع ولقناه النصب فأنه لا ينصب » . =

فالحجازيون ينصبون والتميميون يرفعون . وعلى هذا الخلاف فى الرفع والنصب بين الحجازيين والتميميين جاءت القراءة فى قوله تعالى :

« ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك [1] »

= قال فذهبا فأتيا أبا المهدى فاذا هو يصلى ؛ وكان به عارض ؛ وإذا هو يقول : « لقد اخسأناه عنى » ثم قضى صلاته والتفت الينا وقال : ما خطبكما قلنا : « جئناك نسألك عن شىء » قال : « هاتيا » فقلنا : « كيف تقول ليس الطيب إلا المسك - بالرفع -؟ فقال « أتأمرانى بالكذب على كبرة سنى ؟ فأين الجادى وأين كذا ؟ وأين بنة الأبل الصادرة ؟ » فقال له خلف « ليس الشراب إلا العسل - بالرفع - فقال « فما يصنع سودان هجر ؟ مالهم شراب غير هذا التمر » قال اليزيدى : فلما رأيت ذلك منه قلت له : ليس ملاك الأمر إلا طاعة الله والعمل بها فقال « هذا كلام لا دخل فيه ، ليس ملاك الأمر إلا طاعة الله والعمل بها » . فقال اليزيدى : ليس ملاك الأمر إلا طاعة الله والعمل بها » فقال : ليس هذا لحنى ولا لحن قومى فكتبنا ما سمعناه منه . ثم أتينا المنتجع فأتينا رجلا يعقل فقال له خلف « ليس الطيبُ إلا المسكَ » فلقناه النصب وجهدنا فيه فلم ينصب وأبى إلا الرفع فأتينا أبا عمرو فأخبرناه وعنده عيسى بن عمر لم يبرح ؛ فأخرج عيسى بن عمر خاتمه من يده وقال : ولك الخاتم بهذا والله فقت الناس » .

(1) سورة هود : ٨١

فالحجازيون ينصبون وعليه أكثر القراء ، والتميميون يرفعون وعليه اثنان من القراء [1].

ومن هذا الوادى أيضاً ما نجده من خلاف بين الحجازيين والتميميين فى عمل - ما - وإهمالها مثال ذلك قوله تعالى :

« ما هن أمهاتهم[2] »

فالنصب على لغة الحجازيين والرفع على لغة التميميين ، الأولى قرأ بها الجمهور والثانية قرأ بها المفضل عن عاصم . وما ذكرناه من الأمثلة إنما هو بعض ذكره النحاة فى بابى الاستثناء ؛ وما التى تعمل عمل ليس ، ومن ذلك يتضح فى جلاء أن الأعراب ؛ أو الضوابط النحوية وضعية ، وأنها لم تكن على أساس منطق واحد بين جميع القبائل العربية .

خامساً -: إن النحو بمعناه الفنى ، أى طرق الأداء فى اللغات المهذبة الراقية ، يوجد مبكراً فى اللغة قبل أن يوجد النحو العلمى ، وأن تطوره ونضوجه يلازم تطور اللغة ونضوجها ، إذ أنه يعتبر جزءًا منها ملازمًا لها ؛ ولن يقف نموه إلا إذا وقف

---

(1) الاثنان هما : ابن كثير وأبو عمرو (انظر الاتحاف ١ : ٢٥٩ ، ابراز المعانى ٣٥١ ، البحر المحيط ٥ : ٢٤٩ - القراءات واللهجات لعبد الوهاب حمودة ص ٧٩ ، ص ١٢٢

(2) المجادلة : ٢

نمو اللغة نفسها ، فهو يكاد يكون خاضعاً لطبيعة اللغة لا لأسباب خارجة عنها أو مؤثرة فيها . وذلك عكس ما نلاحظه فى النحو العلمى الذى يبدأ حيث ينتهى النحو الفنى ؛ ويأخذ طريقه نحو النضوج والكمال تبعاً لظروف اجتماعية طارئة على اللغة ، وتحت مؤثرات عقلية أو علمية قد لا يكون للغة عهد بها من قبل .

وبعد ، فنحن إذ نصدر هذا الحكم لا يغيب عنا ما قد يحصل فى بعض الأحيان من أثر فعال يصدر عن النحاة فى تكوين اللغة وتنميتها وتهذيبها بوضع أسسها وضبط قواعدها ؛ وحذف ما لا ينطبق على القواعد العامة فيها وذلك كما حدث فى خلال القرن الثانى قبل الميلاد بالنسبة للغة اللاتينية ، حيث نهض بعض الشعراء والكتاب من اللاتينيين أنفسهم لخدمة اللغة ، والعمل على ضبطها بتسجيل بعض القواعد النحوية ، وتوحيد طريقة النطق والأداء بها ، واستبعاد ما يمكن أن يكون محل شبهة . من هؤلاء الشعراء إينيوس *Ennius* ، وأكسيوس *Accius* ومن الكتاب *Varron* ، وقيصر *Céasar* . ولكن مع هذا ينبغى أن نلاحظ أن اللغة العربية التى نحن بصدد الكلام عنها وعن نحوها لم يتوفر لها ذلك ، أو على الأقل لم يعرف من تاريخها تلك المرحلة التى يمكن أن يكون بعض أصحابها المتمكنين منها قد قاموا بهذا الدور ، وأدوا لها هذه المهمة فى عصورها القديمة فى الجاهلية . إذ أننا حتى الآن نكاد نجهل تماماً ما كان يعمل فى العصور الجاهلية

من ضبط اللغة العربية ، وطرق التحرى والاختيار بالنسبة للتعبير والأداء إذ أن كل ماوصل الينا علمه خاصاً بحياة اللغة العربية فى العصور الجاهلية الاولى لا يعدو أن يكون مبادىء عامة ، ونظريات مجملة كالكلام عن اللهجات المختلفة فى القبائل العربية ، والكلام على نهضة قريش وتغلبها على سائر اللهجات بسبب ما توفر لها من أسباب اجتماعية عديدة . أما حقيقة كل لهجة ، ومعرفة عوامل التطور الداخلى فيها وإدراك الشكل العام لأساليبها وضوابطها ، فكل ذلك يكاد يكون خافياً علينا وليس لدينا منه إلا بعض أمثلة مبعثرة فى ثنايا الآثار القديمة ، قد جمعت لأغراض أخرى لا نستطيع أن نكون منها وحده ولا أن نبنى عليها أسساً علمية مؤكدة . ولهذا فإننا فى محاولتنا هذه نعتمد كثيراً على الافتراض مستعينين بدراستنا لتاريخ بعض اللغات القديمة . هذا هو شأن اللغة العربية ، وشأن رجال النحو فيها ، أما هؤلاء الذين قاموا بهذا المجهود فى اللغة اللاتينية فهم أصحابها المتمكنون منها والقادرون على تصريفها .

ومن هنا يتضح جلياً الفرق بين النحو الفنى والنحو العلمى من ناحية ، وبين اللغة العربية واللاتينية من ناحية أخرى . ويتضح كذلك السبب الأساسى الذى من اجله وقع نحاة اللغة العربية فى هذه الخلافات التى لا حصر لها ؛ وفى تلك الاشكالات التى أخرجتهم فى بعض الأحيان عن طبيعة أبحاثهم ، وجعلتهم يحملون اللغة أكثر مما تحتمل .

فبينما نجد جمهرة النحاة فى اللغات الأخرى ، من أصحاب هذه اللغات

المتمكنين فيها ؛ القادرين على تصريفها ، الذين لا يجدون حرجاً فى أن يخطئوا فى بعض الاحيان بعض الناطقين بهذه اللغات ؛ إذ بنا نجد العكس فى اللغة العربية ، فجمهرة أساتذة النحو فيها دخلاء عليها ، فنهم اليهود مثل هارون بن الحائل[1] ، ومنهم الفرس كسيبويه ، والكسائى ، والأخفش ؛ والسيرافى والفراء وقلما نجد العربى الخالص ، بل أننا رأينا الروح عند العرب تستنكف دراسة النحو ، ثم يضاف إلى هذ أنهم افترضوا صحة كل ما ثبت أنه جاء على لسان العرب الخلص ، ولم يحاولوا مواجهة الفكرة فى أن هذه الضوابط المتبعة فى الأداء قد سلكت طريقاً طبيعياً فى التكوين ؛ كما تسلك اللغه نفسها هذا الطريق . فكانت فى أول الأمر بسيطة غير مطردة ؛ ولكنها مع الزمن قد نمت ، وعمت ، والتزمت .

وإذا كنا لا نستطيع الوقوف على طبيعة تطور هذه الضوابط فى اللغة العربية ؛ ولا على طريقة ذلك التطور ؛ لجهلنا بتاريخ اللغة نفسها ؛ ولقلة ما اكتشف حتى الآن من آثار قديمة تقدم لنا صوراً عن حالة اللغه يوم أن كانت مضطربة فى الفاظها ، وفى معانيها وفى أساليبها ، وفى ضوابطها ، نقول: إذا كنا نجهل كل ذلك ، وإذا لم يكن لدينا من الأدلة المادية ما يساعدنا على معرفته فإننا نلجأ مرة أخرى الى اللغه اللاتينيه لنرى فيها بعض مظاهر ذلك التطور ، لندرك بعض الشيء مما يمكن أن تكون اللغه العربيه قد مرت به

---

(1) ـ الفهرست لابن النديم ص ١١١ - ١١٢

أو ما يمكن أن يكون على الأقل صورة لطبيعة هذا التطور فى ضوابط اللغة ومناهج الاداء فيها .

والأمر فى ذلك ميسور بالنسبة للغة اللاتينية . فهى لغة معروفة التاريخ لم يطل بها العهد فى أدوار حياتها الأولى حتى يتسرب إلى أوضاعها وأنظمتها النسيان . ولم يمر طور من أطوار حياتها دون أن يترك فيه أثر كتابى يلقى ضوءاً على حالتها العامة وعلى ما تتميز به أساليبها وطرق الأداء فيها من خواص . ومن حسن الحظ لهذه اللغة ، ولمن تصدى للبحث فيها أن اكتشف كثير من هذه الآثار ، ما بين قبور وجـــدر وصحائف وألواح وأدوات ؛ وعليها من النقوش الكتابية الواضحة ما مهد السبيل للعلماء ، وقدم لهم مادة غزيرة للبحث والتحليل .

وسنحاول أن نعرض فى عجالة بسـيطة أطوار هذه اللغـة ذاكرين بعض الأمثلة فى عصورها المختلفة لكى يتبين لنا كيف تخضع حركات الإعراب لنظام النشوء والارتقاء وكيف تتغير من عصر إلى عصر حتى تعم وتكمل ثم تثبت على حال واحدة .

فى الفترة السابقة للقرن الثالث قبل الميلاد لم تكن اللغة اللاتينية سوى لهجة بسيطة يتخاطب بها فريق محدود من سكان إيطاليا وكان هـذا الفريق ممثلا فى الأسر والعشائر اللاتينية التى تقيم فى المنطقة المعروفة قديماً باســـم « لاتيوم *Latium* » فى وسط إيطاليا تقريباً ، والممتدة حول مصب نهر

التيبر شمالا وجنوباً ، وحتى فى هذه المنطقة المحدودة لم تكن اللغة اللاتينية موحدة فى اللهجة التى قدر لها أن تصبح فيما بعد لغة العلم والفن والقانون والأدب ، ولكن كان هناك عدد من اللهجات يصارع بعضه البعض الآخر فى مدن تلك المنطقة ، وأهم تلك اللهجات هى لهجة مدينة رومه *Rome* ؛ ولهجة مدينة برينيست *Préneste* ثم لهجة مدينة توسكولوم *Tusculum* (1)

أخذت لهجة مدينة رومه تنمو وتنتشر على حساب اللهجات الأخرى . وقد توفر لسكان مدينة رومه من الأسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية ما جعلهم يتزعمون سكان المدن الأخرى من تلك المنطقه ، وسادت تبعالهم لهجتهم على سائر اللهجات اللاتينيه الأخرى ، ويكاد هذا يشبه تماماً ما حدث فى شبه الجزيرة العربيه من صراع لغوى بين لهجه قبيلة قريش التى كانت تقطن حول مكة ولهجات القبائل الأخرى التى كانت تضرب فى نواحى شبه الجزيرة .

إن أهم أثر يوضح لنا حالة اللغة اللاتينية فى الفترة السابقة على القرن الثالث قبل الميلاد هو مشبك من ذهب ؛ وجد فى مدينة برينيست يرجع تاريخ صنعه إلى القرن السادس قبل الميلاد وقد كتبت عليه هذه العبارة

Manios med fhefhaked Numasioi

وهذه العبارة لو كتبت بالطريقة التى استقر عليها نظام اللغة اللاتينية

Histoire illustrée de la littérature latine par J. Humbert p. 1-6 -1

أخيراً لأصبحت *Manius me fecit Numerio* ومعنى هذه العبارة هو: قد صنعنى مانيوس من أجل نوميريوس.

والذى يعنينا أن نلاحظه فى هذه العبارة هو التغيير الذى طرأ عليها بالنسبة لعلامات الإعراب، فالعلامة « *os* » فى الاسم « *Manios* » كانت علامة للرفع قديماً لبعض الأسماء فى حالة الإفراد، وقد أصبحت فى اللاتينية أخيراً علامة للنصب لطائفة من الأسماء فى حالة الجمع، أما علامة الرفع لهذه الطائفة من الأسماء فى حالة الإفراد فقد أصبحت « *us* ».

وكذلك ضمير المتكلم المفرد فى حالة النصب كان قديماً « *med* » ولكنه صار أخيراً « *me* ». وعلامة الفعل الماضى فى حالة الإفراد للشخص الغائب التى كانت قديماً « *ed* » قد أصبحت « *it* » وأخيراً فإن علامة الإعراب فى الاسم من نفس الطائفة من الأسماء التى أشرنا إليها آنفاً؛ فى حالة المفعول غير المباشر كانت قديماً « *oi* » ولكنها اصبحت كما نراها « *o* ».

ومن هذا يتضح مبلغ التطور الذى تعرضت له اللغة اللاتينية بالنسبة لعلامات الإعراب.

وفى خلال القرن الثالث قبل الميلاد يدخل الصراع بين لهجة روما وغيرها من لهجات المدن الأخرى فى دور حاسم؛ ولا يأتى آخر هذا القرن حتى يكتب للهجة رومه التغلب التام، ولا تقف سيادتها على منطقة « لاتيوم *Latium* » فقط وإنما تتسرب إلى الجهات الأخرى، وتأخذ

فى صراع أوسع مع ما كان فى شبه الجزيرة الإيطاليه من لغات كاللغه الإيتروسكيه *L'etrusque* ، التى كان يتخاطب بها فى البلاد الواقعه شمال رومه والمحصورة بين نهر التيبر شرقاً وسواحل إيطاليا غرباً ، وكاللغة الأومبريه *L'ombrien* ، التى كانت لغه التخاطب فى البلاد الواقعه شرق نهر التيبر والممتدة حتى سواحل بحر الأدرياتيك ، وكاللغه الأوسكيه *L'osque* التى كانت لغه البلاد الواقعه فى الجنوب وفى الشرق من منطقه لاتيوم .

ومع أن هذا الصراع اللغوى قد استمر أثناء القرن الثالث والثانى وفترة طويلة من القرن الأول قبل الميلاد فإن اللغه اللاتينيه نفسها لم تكن قد فرغت نهائياً من تنظيم أساليبها والتزام حالات الإعراب فى تراكيبها ، فقد بقيت فى خلال هذه الفترة الطويلة فى شبه اضطراب من هذه الناحيه حيث لم تطرد فيها قواعد الإعراب بعد ، ولم توحد فيها أشكال الصيغ ، ولذا فإننا نستطيع أن نسمى هذه الفترة من حياة اللغه اللاتينيه بالمرحلة الثانيه . ومن أمثلة هذا الاضطراب فى الصيغ وفى حالات الإعراب ما يأتى :

المصدر من « قال » فى اللاتينيه هو « *dicēre* » ، وإذا جىء بصيغة المبنى للمجهول من هذا المصدر يقال « *dici* » وهذه هى الصيغه التى بقيت فى اللغه بعد أن استقر نظامها واطردت قواعدها ، ولكننا نجد بجانب هذه الصيغه صيغه أخرى كانت تستعمل فى أثناء فترة الاضطراب التى نحن بصدد الكلام عنها هى « *dicier* » .

مثال آخر : كلمة « *Dominus* » بمعنى السيد ، قد بقيت بهذه الصيغة في حالة الرفع ، ولكنها في نفس الحالة من الإعراب كانت تكتب قديماً « *Dominos* » .

مثال ثالث : يتجلى فيه بوضوح مظهر الاضطراب كلمة « *facies* » ومعناها « الوجه » هي إحدى الكلمات التي تخضع لنظام التصريف الخامس من الاسماء ؛ ومن خواص هذا التصريف أن تكون نهاية هذه الاسماء في حالة المفعول لاجله أو المفعول غير المباشر هي « *ei* » . ولكن هذه الكلمة في نفس الحالة من الإعراب كانت تكتب وتنطق بهذه الصيغ : *faciéi, facii, faciêi, facié* بل وبصيغ أخرى غير ذلك .

هذا جانب من مظاهر الاضطراب في تكوين قواعد النحو ، وخضوع اللغة لقوانين عامة وثابتة أثناء هذه الفترات التي سميناها فيما مضى بالمرحلة الثانية من تطور اللغة اللاتينية . وقد بقي هذا الاضطراب ماثلاً حتى القرن الأول قبل الميلاد ، ولكنه كان آخذاً في النقص ، وذلك بفضل المجهود العظيم الذي كان يبذله رجال النحو والأدب في تصفية اللغة من الغريب ، وتثبيت قواعدها ، وطرق الأداء فيها .

أما المرحلة الثالثة فتبدأ من حوالي منتصف القرن الأول قبل الميلاد ، حيث وصلت اللغة إلى القمة من ناحية النقاء والاستقرار ؛ وكان ذلك في عصر شيشرون وقيصر . ولكنها مع ذلك قد احتفظت بكثير من الآثار

القديمة التى تبدو مخالفة لما استقر نهائياً من قواعد الإعراب ، ولم يستطع أدباء اللاتينية ولا نحاتها أن يتخلصوا من تلك الآثار ؛ فبقيت ماثلة حتى انقراض اللغة اللاتينية ، وإن كان بعضها قد توارى وهجره الاستعمال .

وهذه الرواسب القديمة التى بقيت فى تراكيب اللغة وأساليبها ، واعترف بها النحاة ، ولجأ إليها الشعراء والكتاب فى بعض الأحيان ، هى التى تعنينا بالذات ، إذ أنها توضح إلى حد ما ، ما نجده فى اللغة العربية وفى شواهدها الأدبية من خروج على القواعد العامة التى وضعها النحاة ، وذهبوا فى تطبيقها كل مذهب .

ولقد حاول نحاة العرب جهدهم أن يخضعوا هذه الشواهد لقواعدهم ، ولما استعصى عليهم الأمر حكموا عليها بالشذوذ مرة ؛ أو خرجوها تخريجاً نابياً أفسد على اللغة طبيعتها مرة أخرى . وقد رأينا صورة من تخريجاتهم منذ قليل .

لم يفكر واحد منهم أن هذه الشواهد يمكن أن تكون رواسب قديمة ، وتراثاً للغة العرب يوم أن كانت مضطربة وفى شبه فوضى ، لم توحد لهجاتها ولم تستقر وتطرد ضوابطها . ولكنهم فهموا او اعتبروا على الأقل أن اللغة العربية وجدت كاملة ناضجة ، وأن العربى معصوم لا يخطىء .

وها نحن أولاء نذكر بعض الأمثلة من اللغة اللاتينية لتلك الرواسب التى بقيت فيها بعد أن توحدت وكملت :

لقد عرفنا مما درسناه أن علامة الإعراب فى صيغة الفعل الماضى التام إذا أسند لضمير الغائبين هى « Erunt » ولكننا نجد عوضاً عنها هذه العلامة « ère »

فيقال مثلا : « amavère » بدل « amaverunt » بمعنى أحبوا ،
« laudavère » بدل « laudaverunt » بمعنى مدحوا أو تغنوا ،
وكذلك نجد فى دائرة الأفعال أيضاً هذه الصيغ :
« amasti » بدل « amavisti » بمعنى أحببتم .
« audieram » بدل « audiveram » بمعنى كنت سمعت .

ولو تركنا دائرة الأفعال وانتقلنا إلى ميدان الأسماء لوجدنا فيها ما يأتى :
معروف أن علامة النصب فى حالة الجمع للتصريف الثالث من الأسماء هى « es » ولكننا نجدها فى بعض الأحيان « is » وعلى هذا فبدل أن يقال :
« cives amo » أحب المدنيين ' يمكن أن يقال « civis amo » .
وكذلك فى صيغة المضاف إليه فى حالة الجمع للتصريف الثانى من الأسماء نجد علامة الإعراب « orum » ولكنها قد تستبدل أحياناً بالصيغة القديمة لهذه الطائفة من الأسماء وهى « ùm » فيقال مثلا : terra a déum est
بدل terra a deorum est = إن الأرض من صنع الآلهة .

بل إن بعض الصيغ القديمة قد احتفظت بكيانها فى بعض الأسماء ، ولم تستبدل بالصيغة العامة الجديدة . ومن هذه الاسماء « Parentes » ومعناها

الأقرباء ؛ « senes » ومعناها الكهول . هذان الاسمان يتبعان طائفة من الأسماء علامة إعرابها فى حالة المضاف اليه الجمع هى « ium » ولكنهما احتفظا بصيغة أخرى هى « um » فيقال مثلا :

filios parentum tuorum amas

بـــدل

filios parentium tuorum amas

أى (تحب أبناء أقربائك)

وكذلك يقال :

Consilia senum saepe est bona

ولا يقـــال :

Consilia senium saepe est bona

أى (إن نصيحة الشيوخ غالباً ما تكون طيبة)

كلمة « manus » ومعناها « اليد » تعتبر من الأسماء التى تخضع لقاعدة التصريف الرابع ؛ وعلامة الإعراب لهذه الأسماء فى حالة الإفراد وفى حالة المفعول غير المباشر هى « ui » فيقال مثلا :

rosam manui portabat

ومعناها (كان يحمل الوردة على يده)

ولكننا قد نجد هذه الكلمة فى مثل هذا التركيب بحركة أخرى للإعراب هى « u » فقط ، فيقال *Rosam manu portabat*

ومعناها (كان يحمل الوردة على يده)

وكذلك كلمة « Rosa » = « وردة » تعتبر من الطائفة التى تخضع لقاعدة التصريف الأول . وعلامة الإعراب لهذه الأسماء فى حالة الإفراد من المضاف إليه هى « ae » فيقال مثلا :

Color rosae bonus est

أى « لون الوردة جميل »

وقد تكتب فى مثل هذا التركيب بصيغة إعرابها القديم : وهى « ai » فيقال

Color rosai bonus est

وأوضح من هذا كله كلمة « deus » = « الله »

وكلمة « Domus » = « البيت » ؛

أما اللفظ الأول فهو من الأسماء التى تخضع لقاعدة التصريف الثانى ، أى أنه فى حالة الرفع بصيغة الجمع يصبح « dei » ولكننا بجانب هذه الصيغة نجده مكتوبا بصيغتين أخريين هما « dii » أو « di » فيقال مثلا :

dei justi sunt = الآلهة عادلون

ويمكن أن يقال كذلك :

dii justi sunt

أو *di justi sunt*

وكذلك فى حالة المفعول غير المباشر ، أو المجرور بحرف الجر فى صيغة الجمع ، نجد « dis » بجانب « deis » فيقال مثلا :

Rosae factae a dis sunt = الورود مخلوقة بواسطة الآلهة

ويمكن أن يقال أيضاً :

وأما اللفظ الثانى وهو « domus » فهو من الأسماء الخاضعة للتصريف الرابع . وها هى ذى حركات الإعراب فى الأحوال المختلفة بالنسبة لما هو من قبيل « domus » فى الأسماء .

ولنأخذ لذلك كلمة « manus » = « يد » التى تقدمت منذ قليل :

فى حالة الإسناد أو الرفع وكذلك فى حالة النداء يقال : manūs

وفى حالة النصب يقال : manus

وفى حالة المضاف إليه يقال : manùs

وفى حالة المفعول غير المباشر أو لأجله يقال : manui

وفى حالة الجر بحرف الجر يقال : manu

كل ذلك فى الإفراد . وفى الجمع على حسب ترتيب الحالات السابقة يقال :

فى الرفع والنداء والنصب manūs

وفى المضاف إليه manuum

وفى حالة المفعول غير المباشر أو لأجله وفى حالة المجرور بحرف الجر manibus .

ولو كانت كلمة « domus » خاضعة للقاعدة العامة التى اطردت فى هذه الطائفة من الأسماء لتصرفت بالضبط كما تتصرف كلمة « manus » ولكنها قد احتفظت بشىء من التراث القديم بالنسبة لحركات الإعراب ، فأصبحنا نراها فى حالة المجرور بحرف الجر مفردة « domo » بدل « domu » ،

وفى حالة النصب جمعاً « domos » بجانب الصيغة العامة « domnus »

وفى حالة المضاف إليه جمعاً « domorum » بجانب الصيغة العامة « demuum »

ونستطيع أن نمضى إلى أبعد من هذا فى ذكر أمثلة من هذه الألفاظ وتلك التراكيب ، التى استمرت محافظة على بعض التراث القديم وشاهدت تطور اللغة اللاتينية من ناحية الضوابط وحركات الإعراب ؛ ولكن يكفينا هذا القدر ، إذ العبرة فى ذلك بالكيف لا بالكم . ومع أن هذه الرواسب قد بقيت فى اللاتينية بعد استقرارها ، ومع أن الأدباء والشعراء قد استخدموها فى أساليبهم وفى إنتاجهم الأدبى لأغراض بلاغية كما سبقت الإشارة إلى ذلك : فإنه لمما يعيننا جداً ملاحظته هو أن هذه الأشياء لم تكن عقبة أمام النحاة حينما بدأوا يضعون قواعد اللغة ، فإنهم ساروا فى طريقهم متبعين الظواهر العامة والضوابط الغالبة ؛ ضاربين صفحاً عن هذه البقايا دون أن يدخلوا لها حساباً فى قواعدهم .

من هذه المقارنة نستطيع أن نسجل هذه الملاحظات كنتيجة لها :

١ — معرفة بعض الحقائق التى نشأت ونمت وكملت تحت تأثير عوامل اجتماعية وربما كان يظن فى بعض الأحيان أن وجودها لم يكن إلا عن طريق المصادفات ، أو أن هناك أسراراً خفية تعاونت على خلقها ؛ وكانت تفسر هذه الأسرار تارة بالوحى والتوقيف ، وتارة أخرى بالمعجزات .

٢ــ ملاحظة وجه الشبه البعيد المدى بين ما حدث فى اللغة اللاتينية فى رومه ، واللغة العربية فى بيئة الحجاز من ناحية الصراع بين اللهجات المختلفه ، وتوفر الأسباب السياسيه والاقتصاديه والدينيه لتغلب واحدة منها على اللهجات الأخرى . ولو أن الفرصة أتيحت وامتد بنا ميدان المقارنة باللغة اليونانية لوجدنا نفس الظروف ونفس النتائج بالنسبه للهجات اللغه اليونانية أيضاً ؛ ولما كان للدور الذى لعبته أثينا فى ذلك الصراع اللغوى من أثر ملحوظ .

٣ــ إننا نلمس فى وضوح مبلغ المجهود العنيف الذى بذله علماء النحو العربى فى تدوين قواعدهم ، ووضع مقاييسهم وتطبيقها . فقد عرف لهم الشرق هذا المجهود فى تلك المؤلفات العديدة الضخمه التى أنتجوها فى النحو وعلى رأس هذه المؤلفات جميعاً كتاب سيبويه ، الذى كان يقول عنه المبرد . حينما يجد إنساناً يريد أن يقرأه معه ركبت البحر [1] تعظيماً له واستعظاماً لما فيه . ولقد اعترف العرب بهذا المجهود أيضاً لنحاة الشرق ، بل أن علماءه قد استكثروه عليهم فأخذوا يتلمسون الأسباب لعمق أبحاثه ، وشمولها ، ولسرعه نضوجه . غير أننا نظن أن هذا المجهود إنما كان فى كثير من الأحيان على غير أساس صحيح . ومصدر ذلك أنهم افترضوا أن كل ما سمعوه عن العرب الخلص إنما يمثل مرحلة النضوج والكمال

[1] انظر الفهرست ص ٧٧

فى اللغه العربيه ، وفاتهم أن اللغـه لا بد أن تكون قد مرت بمراحل أخرى من الاضطراب وعدم الاستقرار . وفاتهم كذلك أن بجانب لهجة قريش التى تتبعوها ، ووضعوا قواعدهم على أساسها ؛ وآثروها بالتفضيل فى كل موقف تتعارض فيه مع لهجه عربيه أخرى ، نقول : إنه فاتهم كذلك أنه بجانب لهجه قريش كانت هناك لهجات عربيه أخرى لها من القوة والذيوع ما يجعلها جديرة بالنظر ، وذلك مثل لهجه تميم . وكل من درس النحو العربى قد أحس من غير شك بقوة هذه اللهجه أو بمبلغ ما بينها وبين لهجة قريش من خلاف ، ثم بالدرجه التى كان يذهب إليها النحاة فى تفضيل لهجة قريش على غيرها من اللهجات [1] .

ونحن لا نلوم النحاة لتفضيلهم لهجه على لهجه أخرى ؛ ولكن الذى يؤخذ عليهم هو إيثارهم لهجة واحدة لوضع قواعدهم النحويه ، فى حين أنهم أهملوا ، سواء أكان هذا الإهمال عن قصد أم عن غير قصد ، سائر اللهجات الأخرى ، ولهذا فإنهم عند ما يصح فى نظرهم نص أدبى أو بيت من الشعر العربى القديم دون أن يوافق قواعدهم المؤسسه على لهجه قريش نراهم يتعسفون فى فهمه ، وفى تأويله ؛ وفى تخريجه . ومن العجيب أن صدى لهجات العرب الأخرى نجده ممثلاً فى القرآن ؛ وفى الحديث ؛ وفى كلام

---

(1) انظر على الخصوص بابى الاستثناء ، والحروف التى تعمل عمل ليس .

الصحابه من القرشيين بالنسبه اللفظ والأسلوب (١)

وعلى هذا الأساس فقد تمادى النحاة كثيراً فى صحه كل ما ورد عن العرب من ناحيه، وفى وجوب تطبيق مقاييسهم من ناحيه أخرى.

ونتيجه وجهه النظر الأولى أنهم وقعوا فى كثير من الخلافات والمناقشات فى سبيل تصحيح كل ما ثبتت عربيته من شواهدهم.

أما نتيجه وجهه النظر الثانيه فإنهم تجرءوا على تخطئه بعض القراء الذين يخالفون قواعدهم، وهؤلاء القراء — كما نعتقد — أولى بالصحه منهم. إذ أنهم يعتمدون فى قراءاتهم على السماع، وهم فيه ثقة، ويسايرون فيها المعنى أكثر من مسايرتهم للضوابط اللفظيه كما كان النحاة.

ولو أنهم افترضوا مراحل اللغه الأولى، ثم وجود رواسب من هذه المراحل فيما يروى عن العرب فى عصر الجاهليه أو عصر الإسلام لأراحوا أنفسهم، وأراحوا النحو نفسه، وأراحونا معهم من كل هذا العناء، وتلك الخلافات. بل ولما فتحوا أمام بعض المستشرقين هذه الثغرة الخطيرة التى

(١) تقدم الكلام على ذلك فى شيء من التفصيل ص٩٧، ٩٨ ونذكر منها الآن قوله تعالى — وأسروا النجوى، إن هذان لساحران؛ وقول الرسول صلى الله عليه وسلم — يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار — أو قول عمر رضى الله عنه — يارسول الله أنى يسمعوا وكيف يجيبوا — وقول عمرو بن العاص — مكره أخاك لا بطل.

نفذوا منها ووجدوا مجالا لمناقشة النصوص القرآنية مناقشة قاسية تخرجها عن دائرة التنزيل وتصورها بصورة كلام البشر الذى صدر عن الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن استقى أخباره من أساطير الأولين ؛ أو عن الكتب السماوية الأخرى .

ولقد كان هذا فيما نعتقد، الحافز الأول الذى جعل الأستاذ عبد الوهاب حموده يكرس جزءًا من جهده فيما كتبه عن اللهجات والقراءات فى القرآن إذ أنه جمع ما أمكنه جمعه من آراء المستشرقين وحججهم ، ثم عارض النحاة فى كثير من مواقفهم وأيد القراء إلى حد بعيد .[1]

أما نحاة العرب فلم يكن لهم مثل هذا الموقف ولو أنهم صنعوا مثل ما صنع نحاة اللغة اللاتينية لأراحوا أنفسهم من ذلك الجهد الفكرى العظيم الذى بذلوه فى خلافاتهم وفى تخريجاتهم ؛ ولأراحوا النحو كذلك من هذا الاضطراب، ومن ذلك التشتيت . ولعل من الإنصاف أن نلتمس لنحاة العرب بعض العذر ، فإن مكانتهم من اللغة ومقدرتهم على فهمها وتصريف أساليبها ليست كمكانة النحاة اللاتينيين ، فهم فى أغلب الأحيان دخلاء عليها وكانوا يتصيدون بعض شواهدهم من أفواه الأعراب ، وما وجدوه مروياً من الآثار الادبية قديمها وحديثها ، بل إن العرب أنفسهم كانوا

---

[1] انظر كتاب ـ القراءات واللهجات ـ للأستاذ عبد الوهاب حموده

يستصغرون شأن هذه الأبحاث النحوية ، ولا يعيرونها شيئاً من اهتمامهم ، ويقررون أنها من شأن الموالى ومن عملهم . وقد أشار إلى ذلك المبرد فى كتابه الكامل ، وروى الأستاذ مصطفى صادق الرافعى فى كتابه هذا الخبر[٢] دون أن يسنده وهو أن الشعبي سمير الخليفه عبد الملك بن مروان ، مر بقوم من الموالى يتذاكرون النحو فيما بينهم ، فقال :

« لئن أصلحتموه إنكم لأول من أفسده »

ويضاف إلى ذلك جهلهم بتاريخ اللغة ومراحل تطورها ، ولم تكن لديهم آثار كتابية يستطيعون بواسطتها التمييز بين حالة اللغة فى عصر دون غيره ، ثم يربطون هذه العصور بعضها ببعض ليدركوا منها مظاهر التطور فى الضوابط الإعرابية ، كما كان ذلك مهداً سهلاً للنحاة اللاتينيين .

ولقد سار النحو العربى فى نفس الطريق الذى رسمه له أوائل النحاة من اعتبار كل ما أثر عن العرب صحيحاً ، وبالتالى فكل ما صح لديهم من كلام العرب ينبغى أن يكون مطابقاً لهذه القواعد العامة التى لم تكن فى الواقع سوى ظواهر وضوابط للهجة قبيلة عربية واحدة ، هى لهجة قريش بعد أن توفر لها من عوامل الرقى ما يجعلها تتغلب وتسود لهجات القبائل الأخرى .

---

[٢] تاريخ آداب العربى الرافعى ج ١ ص ٢٤٥

ولم يتنبه هؤلاء النحاة إلى ما يمكن أن يكون هناك من أثر للهجات الأخرى ، ولا إلى ما يمكن كذلك أن يكون هناك من أثر بالنسبة لتطور تلك اللهجات ، ومنها لهجة قريش نفسها ، حتى استقرارها على طريقة واحدة فى النطق والأداء . بل ذهبوا فى اعتبارهم لهذه اللغة إلى درجة أنهم منحوها صفة القداسة وأعطوها معنى إلهيًا لمنزلة القرآن منها . ولم نجد من بين أولئك النحاة ، بالرغم من هذه العصور الطويلة التى مرت بها دراسة النحو ، من حاول أن يضع نصب عينيه هذه الاعتبارات . فيفهم اللغة على حقيقتها ، ويخلصها من ذلك الجمود الذى منيت به ، ومن تلك الشبه التى علقت بها .

ولعل أول من تنبه لذلك قديما هو ابن النديم صاحب الفهرست [1] حينما تحدث عن اللغة العربية ونشأتها ولكن حديثه عن ذلك لم يكن واضحاً ولا مستوفياً . وحديثاً ، هو الأستاذ مصطفى صادق الرافعى ، إذ أدرك بحسه أن اللغة العربية كسائر اللغات الأخرى من حيث التطور من حالة البساطة إلى حالات الرقى والكمال . يقول الأستاذ ما نصه : (وعلى ذلك يتعين أن تكون لغتهم أيضاً « بقصد العرب » قد ملكت التاريخ ولم يملكها ؛ وهى لا بد أن تكون قد تقلبت معهم على وجوه من

---

(1) الفهرست ص ٧

الإصلاح ، وجرت على مناح من التهذيب) [1]

ولكن يعارض تصريحه هذا ما نجده له من مواقف أخرى فى نفس الكتاب يرقى باللغة العربية فيها إلى درجة من التقدير تجعلها سيدة اللغات على الإطلاق ، وتكسبها من صفات القداسة ما يوحى إلى القارىء بأنها توقيفية إلى حد ما . [2]

ومع ذلك فإننا نلخص هنا ما ذكره بالنسبه لحياة اللغة العربية وما طرأ عليها من تطور أثناء عمرها الطويل . ونحن وإن كنا لا نجد من الآثار المادية ما نعتمد عليه فى إثبات ذلك ، إلا أننا نطمئن إلى هذا الافتراض ونرى فيه موافقة لما تستلزمه طبيعة اللغه أيا كان الشعب الذى ينطق بها . وعلى هذا الافتراض فإن اللغه العربيه قد مرت بأطوار ثلاثة . [3]

الطور الأول : هو ما كانت عليه هذه اللغه أيام إسماعيل ، الذى يعتبره العلماء أصل العربيه المصرية ، من البساطه ؛ ثم أخذت فيه من توسع بواسطة ما كانت تستمده من لغة جرهم من مفردات وتعبيرات . وكان ذلك فى أرض الحجاز فقط ، حينما كان الأصل العربى محصوراً فى إسماعيل وفى أولاده ، على حسب ما يصوره العلماء والمؤرخون . وذلك حوالى القرن التاسع عشر قبل الميلاد .

---

(1) تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٧٩

(2) تاريخ آداب العرب للرافعى ج١ ص ٨٣ ، ٩١ ، ١٧٨ ، ٢٢٣

(3) نفس المرجع ج ١ ص ٩٧ إلى ٩٠

الطور الثانى : يبدأ عندما يزداد عدد العرب ، وتضيق بهم بيئة الحجاز فيتركونها ليستقروا فى جهات مختلفه من الجزيرة العربيه . وهناك تتكون القبائل ، وتأخذ كل قبيلة فى إصلاح لهجتها حسبما تؤهلها ظروفها الطبيعيه والاجتماعيه .

الطور الثالث : وهو طور الكمال ، فهو عبارة عن الدور العظيم الذى قامت به قريش من الإصلاح , حيث كانت تنتفع بلغات الأمم الأخرى ، التى تتصل بها عن طريق التجارة ، وتأخذ عن لهجات القبائل العربيه ما تستحسنه ويزيد فى ثروة لهجتها الخاصه .

والذى يدهشنا أكثر هو أن الأستاذ الرافعى يرى ويعتقد أن اللغه العربيه تحتوى على بقايا أثرية من المفردات قد هجرها الاستعمال ، لأنها كانت تلائم بيئات خاصة ، وأزماناً خاصه ، وعقليات خاصه . ولكن بعد أن تغير كل ذلك أصبح هذا مهجوراً . كما حدث فى اللغه اللاتينيه . بالنسبة للغات الأوربية الحديثة التى تلجأ أحياناً إلى اشتقاق جديد من تلك الكلمات القديمة . يوضح الرافعى ذلك توضيحاً كافياً ، ويعقد المقارنة فى هذا بين العربية واللاتينية . وهذا صحيح . ولكن الغريب إنه لم يتنبه ولم يشر مطلقاً إلى جواز حدوث مثل هـــذا أيضاً فى علامات الإعراب وأثر الزمن والتطور فيها . بل إنه سار فى بحثه كله على افتراض أن علامات الإعراب كما هى بالوضع الحالى قديمة فى اللغة ، وإن العرب كانوا ينطقون بها كما نراها .

وهو حين يتناول مراحل الإصلاح فى اللغه يتكلم عن الإصلاح الذى يشمل اللفظ والمعنى والأسلوب ، ولا يشير إلى علامات الإعراب . وكذلك حين يتكلم عن البقايا الأثرية فى اللغه يتناول المفردات المهجورة بواسطة الاستعمال ، ولا يشير إلى بقايا علامات الإعراب قديمًا . وبالرغم من موقفه هذا فإن بحثه فى كلتا الناحيتين يقدم لنا دليلًا آخر على أن علامات الإعراب بدورها لا بد وأن تكون عرضة للإصلاح كالألفاظ والتراكيب سواء بسواء واعترافه كذلك بوجود بقايا أثريه فى اللغه مهجورة الاستعمال يشير من ناحية أخرى إلى ضرورة وجود بقايا أثريه فى علامات الإعراب سواء بسواء [1]

ولعل المثال الذى ذكره الرافعى فى آخر هذ البحث من تاريخ استعمال هذا الإصطلاح . « نحن فعلنا » يشير من بعد إلى التطور فى الاستعمال . وهذا فى الواقع بحث طويل يستحق منا عناية خاصة ، ويستلزم إحصاء شاملا لتاريخ الاستعمالات العربية ، لقد كان هذا النوع من الدراسة هو موضوع بحث الأستاذ المستشرق يوهان فوك *Yohann Fück* فى كتابه ـ العربيـة ، ومع اعترافنا بقيمة بحث هذا الاستاذ ومبلغ ما بذله من جهد فى الاستقصاء والتحقيق ؛ فإننا نقرر أنه فى حاجة إلى أن يمتد حتى يصل إلى استقصاء الكثير من الجمل والتراكيب ثم يلاحظ تطور الاستعمال فيها على اختلاف

---

(1) ـ أنظر البقايا الأثرية فى اللغة جـ ١ ص ٦٢ - ٦٤

العصور كما كان ذلك صنيعه بالنسبة لبعض الألفاظ . ولا نشك فى أن بحثاً من هذا النوع سيكون أجدى على اللغة وعلى النحو من تلك الأبحاث التقليدية المملة التى تسير على نفس المنهج الذى رسمه القدماء لدراسة اللغة والنحو ؛ وهو فوق ذلك يلقى ضوءاً على تاريخ اللغة والنحو فنفهم ما فيهما من حيوية واستعداد لمسايرة الزمان والمكان . ومن هذا تتضح قيمة ذلك البحث الذى أشرنا اليه ، ويتبين مبلغ المجهود الذى ينبغى أن يوجه من أجله . وإذا كان هذا النوع من الدرس من شأنه أن يبعدنا إلى حد ما عن بحثنا فى اللغة والنحو ، إلا أننا لا نود أن نتجاوزه ونكتفى بمجرد الإشارة اليه دون أن نذكر بعض الأمثلة باختصار لنرى نوع الاستقصاء فى الأساليب ، ومبلغ مايطرأ عليها من تغيير فى العصور ثم نترك للقارىء بعد ذلك تقدير القيمة العلمية والعملية من وراء ذلك :

المثال الأول : يفهم من كلام سيبوية أن خبر ـ كاد ـ ، والغالب فيه أن يكون فعلا مضارعاً ، يطرد اقترانه بأن ، وإن كان بعض النحاة قد فسر هذا الاطراد بأنه لا يعنى الندرة ولا الشذوذ.[1]

وليس من شك فى أن سيبويه قد بنى حكمه على الاستعمال العربى القديم ،

(١) ـ أنظر شرح الأشمونى مع حاشية الصبان على الفية بن مالك ـ جـ١ . صـ٢٠٩ ؛ والدرر اللوامع على همع الهوامع شرح جمع الجوامع جـ ١ صـ ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤

إذ أن موقفه من المحدثين ومن النصوص الدينية معروف [1] ومما يدل على وجهة نظر سيبويه أنه حينما أورد فى أمثلته على ـ كاد ـ بيتا من الشعر والخبر فيه عبارة عن فعل مضارع بدون ـ أن ـ تأوله بتقدير أن ؛ وهو :

فلم أر مثلها خباسة واحد ٭ فنهنهت نفسى بعد ما كدت أفعله

وإذا استعرضنا أساليب القرآن فيما يختص بكاد نجدها تستعمل الفعل المضارع خبراً بدون ـ أن ـ مثال ذلك : وإن كدت لتردين ، . . . فذبحوها

---

[1] ـ كان سيبويه يعتمد اعتماداً أولياً على الشعر العربى القديم فله من هذا الشعر فى كتابه نحو من ألف وخمسين بيتاً (١٠٥٠) ثم يأتى بعد الشعر العربى القديم الآيات القرآنية حيث يورد منها نحواً من ثلاثمائة آية (٣٠٠ ، وهو لا يستشهد من الأحاديث النبوية إلا بحديث واحد . أما الشعر الإسلامى فقد ضرب عنه صفحاً وبالرغم مما نجده عند بعض الرواة من أن سيبويه قد خطأ بشاراً فى جمعه نون على نينان وأن بشار بن برد قد هجا سيبويه بسبب ذلك فقال :

سيبويه يا ابن الفارسية ما الذى ٭ تحدثت من شتمى وما كنت تنبذ

أظلت تغنى سادراً فى مساءتى ٭ وأمك بالمصرين تعطى وتأخذ

وأن سيبويه قد أخذ بعد ذلك يستشهد بشعر بشار مخافة هجائه ، تقول بالرغم من ذلك فإننا لا نجد أثراً لشعر بشار فى كتابه ، وقد حقق هذه المسألة بعد مناقشتها المستشرق يوهان فوك فى كتابه ـ العربية ـ صـ ٥٢

وما كادو يفعلون ، وأن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم [1] .

---

[1] ـ وها هى ذى إحصائية بالآيات القرآنية التى استعملت فيها كاد ، ومنها يتبين اطراد الأسلوب القرآنى فى هذا الاستعمال دون أن يشذ فى آية واحـــدة من هـذه الآيات البالغة أربعة وعشرين آية :

من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم	سورة التوبة	آية	١١٧
إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها	سورة الفرقان	»	٤٢
إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها	سورة القصص	»	١٠
قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون	سورة البقرة	»	٧١
قال ابن أم إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى	سورة الاعراف	»	١٥٠
وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا اليك	سورة الاسراء	»	٧٣
وإن كادوا ليستفزونك عن الارض ليخرجوك منها	» »	»	٧٦
وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا	سورة الجن	»	١٩
ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلا	سورة الاسراء	»	٧٤
قال تالله إن كدت لتردين	سورة الصافات	»	٥٦
إن الساعة آتية أكاد أخفيها	سورة طه	»	١٥
تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض	سورة مريم	»	٩٠
تكاد السموات يتفطرن من فوقهم	سورة الشورى	»	٥
تكاد تميز من الغيظ	سورة الملك	»	٨
يكاد البرق يخطف أبصارهم	سورة البقرة	»	٢٠
يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان	سورة ابراهيم	»	١٧

ولقد صارت الأساليب العربية فى العصور الإسلامية على أساس الاستعمال القرآنى ، وأغلب ما اطلعنا عليه من الشعر العربى والنصوص الأدبية يويد هذا الاستعمال ، وحين يوجد الاستعمال الآخر فإنما يوجد قليلاً نادراً .

وإذا ما وصلنا إلى العصر الحديث واستعرضنا أساليب اللغة فيه وجدنا البيئات العربية تختلف فى استعمال ـ كاد ـ ، ففى العراق مثلا يحرص الكتاب على أن يقترن الفعل المضارع بأن حين يقع خبراً لكاد . (1) أما فى مصر

يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار	سورة النور	»	٣٥
يكاد سنا برقة يذهب بالأبصار	سورة النور	»	٤٣
أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين	سورة الزخرف	»	٥٢
وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر	سورة القلم	»	٥١
فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً	سورة النساء	»	٧٨
وجد من دونها قوما لا يكادون يفقهون قولا	سورة الكهف	»	٩٣
يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا	سورة الحج	»	٧٢
ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها	سورة النور	»	٤٠

(المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ـ محمد فؤاد عبد الباقى .)

(1) ـ اقرأ مثلا ترجمة الأستاذ أحمد عبد الباقى لكتاب ـ وادى الرافدين ـ مهد الحضارة . دراسة اجتماعية لسكان العراق فى فجر التاريخ تأليف الأستاذ ليونارد وولى ، فإنك تجد فى هذه الترجمة مبلغ حرص المترجم على أن يقترن خبر ـ كاد ـ وهو الفعل المضارع ، بأن المصدريه .

فكثيراً ما يستعمل الأدباء والكتاب هذا الفعل بدون - أن .

المثال الثانى :- ولعله أوضح من الأول فى بيان ما أشرنا إليه هو ما نجده من تطور فى استعمال هذه التراكيب : أنا الذى أفعل أو فعلت ، ونحن الذين نفعل أو فعلنا ، وأنت الذى تفعل أو فعلت ، وأنتم الذين تفعلون أو فعلتم ، وكذلك فى أنتما، وفى أنت ، وفى أنتن ، نجد فى هذه التراكيب بعد اسم الموصول تارة يسند إلى الضمير السابق على اسم الموصول كما تقدم فى هذه الأمثلة ، وتارة أخرى يسند إلى اسم الموصول نفسه بدون نظر إلى الضمير السابق كأن يقال مثلا فى التراكيب المتقدمة : أنا الذى يفعل أو فعل ، ونحن الذين يفعلون أو فعلوا وأنت الذى يفعل أو فعل ، وأنتم الذين يفعلون أو فعلوا ... الخ .

وهنا نجد النحاة يذهبون مذاهب عدة فى فهم هذه التراكيب ويتأولونها تأويلات مختلفة كدأبهم فيما يدرسون ، وكل منهم يحاول أن يثبت وجهة نظره بأى وسيلة كانت ، ومن يطلع على خلافاتهم وآرائهم ، وتأويلاتهم في هذه الاستعمالات لا يستطيع أن يخرج من ذلك برأى ناضج ولا بفكرة واضحة ولهذا فإننا نترك آراءهم جانباً ، ولا نتعرض لاختلافاتهم فإنها تفسد علينا الفكرة التى نهدف اليها ، وهى بيان تطور الأساليب بتطور الزمن . وها نحن أولاء نحتكم إلى الاستعمال العربى نفسه لهذه التراكيب لنرى كيف كانت طريقة العرب فى العصور المختلفة فى التعبير عن هذه المعانى ، ومع ذلك فإننا نحيل من يريد من القراء أن يطلع على آراء النحاه وعلى اختلافاتهم

ليأخذ صورة من مناقشاتهم وتأويلاتهم ، نقول إننا نحيل هذا الفريق من القراء إلى ما كتبه الأستاذ الشنقيطي عن هذه التراكيب بالذات [1] . كان الاستعمال الغالب عند الجاهليين فى هذا التركيب هو أن يعود الضمير فى الفعل التالى لاسم الموصول على اسم الموصول نفسه لا على الضمير السابق وشاهد ذلك قول امرىء القيس :ـ

أنا الذى عرفت فضله ٭ ونشدت عن حجر بن أم قطام

وكذلك يقول طرفه بن العبد فى معلقته :

أنا الرجل الضرب الذى تعرفونه ٭ خشاشا كرأس الحية المتوقد

وكذلك يقول أبو حرب الأعلم وهو جاهلى من بنى عقيل :

نحن اللذون صبحوا الصباحا ٭ يوم النخيل غارة ملحاحا

وإذا ما جئنا إلى صدر الاسلام فإننا نجد تطوراً فى هذا الاستعمال فمرة يحافظون على الاستعمال القديم ، ومرة يأخذون فى استعمال جديد ، ذلك بأن يعيدوا الضمير فى الفعل على الضمير السابق للاسم الموصول مثال ذلك ما نجده فى هذا البيت ، وهو لأحد الأنصار ، كما يفهم من المعنى ، ولم يعرف قائله بالضبط [2] .

نحن الذين بايعوا محمداً ٭ على الجهاد ما بقينا أبدا

---

(1) الدرر اللوامع على همع الهوامع شرح جمع الجوامع ج ١ ص ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤

(2) الشنقيطى الدرر اللوامع ج ١ ص ٦٣

وهنا نلاحظ الاستعمالين فى نفس البيت ، فالفعل - بايعوا - أسند إلى اسم الموصول ، والفعل - بقينا - أسند إلى الضمير السابق على اسم الموصول وهو - نحن - .

ومن ذلك أيضاً ما ورد فى رجز لأمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه قاله فى مبارزته لمرحب اليهودى يوم خيبر [1] :

أنا الذى سمتنى أمى حيدره ☆ ضرغام آجام وليث قسورة

وفى هذا البيت نجد الفعل مسندا إلى الضمير السابق على اسم الموصول ومن هذا الاستعمال أيضاً ما يروى لكثير عزه :

وأنت التى حببت كل قصيرة ☆ إلى ولم تعلم بذاك القصائر

وهناك بيت آخر من الشعر يذكر الشنقيطى أنه لم يعثر على قائله [2] ، وهـــو :

وأنت الذى آثاره فى عدوه ☆ من البؤس والنعمى لهن ندوب

ولكننا حين نستخدم هذا المنهج الذى سلكناه فى تطور الاستعمال لهذا التركيب نرجح أن هذا البيت جاهلى حيث اشتمل الفعل المتأخر على ضمير الموصول ، ولم يسند الى الضمير المتقدم على الاسم الموصول .

أما القرآن فإننا لم نهتد فيه إلى استعمال لهذا التركيب بالرغم من قراءتنا

---

(1) الشنقيطى الدرر اللوامع جـ ١ صـ ٦٢

(2) الشنقيطى الدرر اللوامع جـ١ صـ٦٣

المتواصلة لنصوصه ، ومن اطلاعنا الكثير على فهارس الفاظه .

وفى العصر الحديث نجد أن الاستعمال الغالب لدى الكتاب والأدباء إنما هو استعمال صدر الاسلام ، أى اسناد الفعل التالى لاسم الموصول الى الضمير السابق كان يقال : هل أنت الذى فعلت هذا ؟ وهل أنتم الذين فعلتم ذلك ؟ . . . الخ

وكنا نستطيع أن نمضى فى ذكر أمثلة مختلفة للأساليب المختلفة فى اللغة العربية ولكننا نكتفى بهذين المثالين فقط ، ونظرة فاحصة فى هذين المثالين وما تعرض فيها الأسلوب لتغيير واضح تهدينا إلى أن تغير هذا الأسلوب فى التعبير يدل على ماكانت تخضع له اللغة العربية من تغير فى دائرة أوسع ويشبه هذا ما حدث فى اللغة الفرنسية بالنسبة لهذا التعبير نفسه . فلقد كانت هذه اللغة قديماً تستعمل :

أنا الذى فعل	:	*C' est moi qui a fait*
نحن الذين فعلوا	:	*C' est nous qui avaient fait*
أنتم الذين فعلوا	:	*C' est vous qui avaient fait*

ملاحظين فى كل ذلك أن الفاعل للفعل الأخير هو اسم الموصول بصرف النظر عما يشير إليه من الضمائر السابقة . ولكن هذه اللغة قد خطت فى هذا الاستعمال خطوة أخرى فجعلت الفعل الثانى خاضعاً للضمير السابق على اسم الموصول ، واستقرت على هذا الاستعمال حتى الآن ، وقد هجر الاستعمال

الأول هجراً تاماً ، فأصبحوا يقولون :

أنا الذى فعلـــت	:	*C' est moi qui ai fait*
نحن الذين فعلنـــا	:	*C' est nous qui avons fait*
أنتم الذين فعلـــتم	:	*C' est vous qui avez fait*

ومن المقارنة البسيطة بين هذين الأسلوبين فى العربية والفرنسية نجد أن مظهر التطور واحد فيهما ، فبعد أن كان الفعل يسند أولا إلى اسم الموصول أصبح فى كليهما يسند إلى الضمير السابق ، وليس من شك فى أن أثر عمل العقل واضح فى هذه الخطوة من انتقال الأسلوب إلى مرحلة جديدة ، إذ أن هذا التركيب فى حالته الأولى كان بسيطاً وربما أمكن أن نسميه ساذجاً لاتفكير فيه ، فليس أسهل من أن يسند الفعل إلى أقرب مذكور . أما فى حالته الثانية فإننا نحس بأن المعنى قد بدأ يتحكم فى اللفظ ، وأن العقل قد بدأ تبعاً لذلك يساير المعنى ولا يتأثر بظاهر التركيب وقد يبدو أن هذه التطورات وما شابهها قد تمت فى اللغة دون أن نحس بأثر لعمل العقل فيها وهذا صحيح لو قصدنا من ذلك عمل العقل الفردى ؛ ولكننا نريد عمل العقل الجماعى ، فإن لكل مجتمع عقله ومنطقه ، وميدان عمله إنما هو المظهر العام لحياة ذلك المجتمع بما فى ذلك اللغة ، والعلم ، والأدب ، والفن ، ولهذا فإن أكبر الشعراء وأعظم الكتاب ، وأرقى الفنانين إنما هم فى الحقيقة مدينون إلى حد ما بالنسبة لبيئاتهم ومجتمعاتهم .

والآن بعد هذا الاستطراد الذى جرنا اليه ما لاحظه الأستاذ مصطفى صادق الرافعى من تطور بعض أساليب العربية نعود اليه لنناقشه فى وجهة نظره من ناحية تهذيب اللغة ، ولكن قبل أن نبدى فى ذلك رأينا نحب أن نضيف اليه أن لفظ قريش ، الذى نسبت إليه القبيلة العربية فى بلاد الحجاز والذى نسبت إليه لهجتها كذلك ، لم يكن اسماً لشخص معين وإنما هو لقب أعطى للنضر بن كنانة ، الجد الثانى عشر للرسول صلى الله عليه وسلم ، كما يذهب إلى ذلك جمهور العلماء ، ويرى فريق آخر أن هذا اللقب أعطى لفهر بن مالك ، حفيد المتقدم . وسواء لدينا أكان هذا اللقب قد أعطى للنضر أم لفهر فإننا لا نظن أن اللهجة القرشية أخذت فى وسائل التهذيب والإصلاح منذ ذلك العهد وانما بقيت شأن غيرها من اللهجات الاخرى حتى أيام قصى إذ أن القرشيين كانوا فى ذلك العهد مختلطين بجرهم وخزاعه الذين كانت فى يدهم ولاية البيت والسيادة على مكة ، ولكن قصياً هذا هو الذى جمع أشتات قريش وحارب هاتين القبيلتين . واستخلص منهما أمر مكة وولاية البيت ، ومن هذا التاريخ تستقر قريش وتسود مكة وتبدأ فى تزعم القبائل العربية الأخرى وتبعاً لهذا الاستقرار وتلك الزعامة تأخذ اللهجة القرشية فى سبيل التهذيب والإصلاح [1] .

والذى نراه بالنسبة لما لاحظه الأستاذ مصطفى صادق الرافعى هو أنه

---

(1) انظر سيرة ابن هشام ج١: ص١١٢ ؛ واسواق العرب للأفغانى ص ٧٥ - ٩٤

قصد من التهذيب والإصلاح تهذيب اللغة نفسها من حيث اللفظ والمعنى والأسلوب أما من الجهة النحوية أى ضوابط التراكيب وحالات الإعراب فلم يلتفت إليها ولم يدخل لها فى مراحل التهذيب حساباً ؛ ومعنى هذا أن ضوابط النطق ثابتة منذ القدم، أى أن الفاعل منذ الطور الأول من أطوار نمو اللغة مرفوع ؛ والمفعول منصوب ؛ والأسماء الخمسة مرفوعه بالواو ومنصوبة بالألف ومجرورة بالياء ؛ وكذلك الشأن بالنسبة للمثنى ؛ وجمع المذكر السالم ؛ وما لا ينصرف ، وجمع المؤنث السالم ... و ... و ... إلى آخر ما نجده فى أقسام الكلام من خضوع لقواعد الإعراب ؛ وهذا ما لا يمكن أن نسلم به ، إذ أنه يقربنا من الاعتقاد بأن اللغة توقيفية وكذلك النحو . وقد ظهر لنا مادياً وعقلياً فساد هذا الرأى .

نتيجة البحث فى النحو بمعناه الفنى

والآن بعد فراغنا من البحث فى النحو بمعناه الفنى ، وبعد الذى أبديناه من ملاحظات عامة على نشأته ، وتطوره ، وبعد الذى سجلناه من نتائج جزئية فى ثنايا هذا البحث ، نريد أن نصل بالقارىء إلى الهدف البعيد الذى قصدنا إليه ؛ ذلك هو تخليص العقل من تلك الأفكار القديمة التى كانت تنظر إلى تراثنا العلمى نظرة إجلال وتقديس فتطوف حوله درساً وفهماً ، ولكنها لاتجرؤ على نقده ولا على إظهار ما فيه من

أخطاء . ولعل هذا كان أثراً من آثار النزعة الدينية والسلطان الروحي الذي أشرنا إليه وعللناه فيما مضى .

لقد رأينا أن اللغة ظاهرة اجتماعية تتمشى مع المجتمع وتتطور بتطوره ورأينا كذلك أن النحو بمعناه الفني جزء من ماهية تلك اللغة ؛ وإذن فلا بد وأن يكون كل منهما قد مر بحالات متعددة مختلفة فمن السذاجة والبساطة إلى النمو والنضوج . وإذا كان من المسلم به أن اللغة العربية قد وصلت إلى درجة الكمال أيام نزول القرآن الكريم ، وإذا كان من المسلم به أيضاً أن النحاة ، بصرف النظر عما وقعوا فيه من اضطراب نتيجة أبحاثهم المحدودة ، وتفكيرهم الضيق ، قد وضعوا قواعدهم بناء على ماوقفوا عليه من النصوص اللغوية ، وما عرفوه من أساليبها ، فإنه ينبغي أن يكون من المسلم به أيضاً أن تستمر اللغة متأثرة بحالة المجتمع الذي تعيش فيه ، ولا تستقر على الحالة التي كانت عليها أيام نزول القرآن الكريم وهذا ما يهدى إليه العقل ويؤيده الواقع ؛ فإن مئات الألفاظ الجديدة قد دخلت في اللغة العربية ، وكذلك مئات الأسماء الأعجمية التي لم يكن للعرب عهد بها من قبل ، ومئات التراكيب المتغيرة التي لم تعرف في تراكيب العربية ولا في أساليبها ؛ بل ان الأمر في هذا الجديد ، وفي تلك الإضافات لم يقف عند بيئة عربية واحدة ، وانما تعدى ذلك الى كل البيئات الاسلامية التي اتخذت اللسان العربي أداة للتفاهم بين أفرادها ؛ فعربية الحجاز الآن غير عربية العراق ، وعربيه العراق غير عربية سوريا ، وعربية هذه الأقطار

الثلاثة غير عربية مصر ، وعربية مصر غير عربية بلاد شمال أفريقيا ؛ وما جد فى كل قطر من هذه الأقطار يخالف ، الى حد ما ، ما جد فى غيره من الأقطار الأخرى . وليس فى ذلك شيء من الغرابة ؛ اذ أن اللغة مرآة البيئة ، وسجل المجتمع ، وترجمان فلسفته فى الحياة ، ودرجته من العلم ، والفن ، والأدب . وما دامت الأقطار الناطقة باللغة العربية مختلفة فى بيئاتها ، متفاوتة الدرجة فيما ذكرناه من مظاهر الرقى العقلى والاجتماعى ، فإن اللغة لا بد وأن تختلف ، وتتفاوت أيضاً تبعاً لذلك . وها هو ذا الأستاذ يوهان فوك — *Yohann Fück* يقدم الدليل على ذلك فيما ذكره فى كتابه — العربية — ؛ فإنه قد تناول الجديد فى اللغة العربية عصر الإسلام ، فعصر الأمويين ، ثم عصر العباسيين ؛ وهذا الجديد يشتمل على ما استحدث من ألفاظ ، ومن عبارات ، وحتى من أخطاء .

وإذن فليس صحيحاً ما ذهب اليه القدماء أمثال ابن النديم [1] ؛ من أن اللغة العربية قد ثبتت بنزول القرآن الكريم ، وجمدت من بعده ؛ بل أن صنيع القرآن نفسه يعتبر مرحلة من مراحل تطور اللغة العربية فى ألفاظها وفى تراكيبها ؛ فقد رأينا مثلا أسلوب القرآن وطريقته فى استعمال - كاد - [2] ؛ اذ أنه قد ضرب صفحاً عن استعمال العرب قديماً لهذا الفعل

---

(1) انظر ما تقدم من كلام ابن النديم فى كتابنا هذا « اللغة والنحو » ص ٢١ ، ٢٢ »

(2) انظر الإحصائية التى جمعناها فى كتابنا هذا « اللغة والنحو » لاستعمال القرآن بالنسبة للفعل - كاد - وما تفرع منه ص ١٣١ ، ١٣٢

وتخير له أسلوبًا لم يشذ عنه فى آية واحدة من آياته ؛ ذلك أنه استعمل الفعل المضارع خبراً لكاد دون أن يكون مقترنا بأن المصدرية .

وها هو ذا مثال آخر نضيفه هنا الى هذا المثال لنرى الى أى حد كان القرآن فى بعض الأحيان يلتزم أسلوبًا واحدًا لا يحيد عنه فى استعمال فعل من الأفعال ، او تركيب من التراكيب بالرغم من استعمال بعض العرب لهذا التركيب او لذلك الفعل استعمالا آخر ؛ ذلك المثال هو عسى وطريقة استعماله . فالنحاة يقررون أنه يغلب استعمال - عسى - فى تركيب يكون الخبر بدون أن ، ويستشهدون على هذا بأمثلة منها هذا البيت :

عسى الكرب الذى امسيتَ فيه :— يكون وراءه فرج قريب . [1]

وكذلك بيت الفرزدق حين توعده الحجاج الثقفى :

وماذا عسى الحجاج يبلغ جهده ۞ إذا نحن جاوزنا حفير زياد

اما القرآن فقد استعمل — عسى — فى ثلاثين موضعا ليس فيها مثال

---

[1] هذا البيت لشاعر من غذره كان يعيش فى صدر الإسلام ايام معاويه ، واسمه هدبه بن خشرم بن كرز ؛ وهذا البيت ضمن ابيات قالها فى الحبس . (انظر اخباره فى الشعر والشعراء لابن قتيبه تحقيق وشرح احمد محمد شاكر - طبع القاهرة سنة ١٣٦٤ . جـ٢ صـ ٦٧١ - ٦٧٦)

واحد يكون الخبر فيه مجرداً من — ان — . [1]

---

[1] وها هى ذه إحصائية باستعمال القرآن للفعـــل عسى :

عسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم	البقرة	٢١٦
وعسى ان تحبوا شيئا وهو شر لكم	»	٢١٦
فعسى ان تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا	النساء	١٩
عسى الله ان يكف بأس الذين كفروا	»	٨٤
فأولئك عسى الله ان يعفو عنهم	»	٩٩
فعسى الله ان يأتى بالفتح او امر من عنده	المائده	٥٢
قال عسى ربكم ان يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض	الاعراف	١٢٩
وان عسى ان يكون قد اقترب اجلهم	»	١٨٥
فعسى اولئك ان يكونوا من المهتدين	التوبة	١٨
خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً عسى الله ان يتوب عليهم	»	١٠٢
اكرمى مثواه عسى ان ينفعنا او نتخده ولداً	يوسف	٢١
فصبر جميل عسى الله أن يأتينى بهم جميعاً	»	٨٣
عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا	الاسراء	٨
ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريباً	»	٥١
عسى ان يبعثك ربك مقاما محمودا	»	٧٩
وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشدا	الكهف	٢٤
فعسى ربى أن يؤتين خيراً من جنتك	الكهف	٤٠
وادعو ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا	مريم	٤٨

ولم يقف أمر استعمال القرآن عند هذا الحد ، بل هناك ما هو أقوى فى الحجة وأوضح فى الدلالة من هذا : ذلك أنه أثر عن العرب ثلاثة طرق فى استعمال عسى ، الأول ، هو أن تلتزم - عسى - حالة الإفراد والتذكير سواء أسندت إلى مؤنث أم مذكر ؛ وسواء أكان ذلك الاسم المتقدم عليها مفرداً أم مثنى أم جمعاً ، فيقال مثلا : زيد عسى أن يقوم ، والزيدان عسى أن يقوما ، والزيدون عسى أن يقومو ، وهند عسى أن تقوم والهندان عسى أن يقوما ، والهندات عسى أن يقمن ، وهذه هى لغة أهل الحجاز .

قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذى تستعجلون	النمل	٧٢
لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً	القصص	٩
ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل	»	٢٢
فاما من تاب وآمن وعمل صالحاً فعسى أن يكون من المفلحين	»	٦٧
يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم	الحجرات	١١
ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن	»	١١
عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم موده	الممتحنه	٧
عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيراً منكن	التحريم	٥
عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات	»	٨
عسى ربنا ان يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون	القلم	٣٢
قال هل عسيتم ان كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا	البقره	٢٤٦
فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض	محمد	٢٢

الثانى ، هو أن تتغير عسى بتغير الاسم الواقع قبلها ، فتؤنث إن كان مؤنثاً ، وتثنى إن كان مثنى ، وتجمع إن كان جمعاً ، وتفرد إن كان مفرداً فيقال مثلا : زيد عسى أن يقوم ، والزيدان عسيا أن يقوما ، والزيدون عسوا أن يقوموا ، وهند عست أن تقوم ، والهندان عستا أن تقوما ، والهندات عسين أن يقمن ، وهذه هى لغة بنى تميم .

الثالث ، هو أن تسند - عسى - إلى ضمير من جنس ضمير الفعل ، الواقع خبراً لها ؛ فيقال مثلا : عسانى أن أقوم ، وعسانا أن نقوم ، وعساك أن تقوم ، وعساكم أن تقوموا ، وعساهم أن يقوموا ؛ وعساه أن يقوم ... إلخ .

وقد أشار الزمخشرى فى كتابه - المفصل - [1] إلى هذه الطرق الثلاثة وذكرها باختصار دون أن يعين اصحاب كل طريق ، إذ يقول : « فصل » وللعرب فى عسى ثلاثة مذاهب أحدها أن يقولوا عسيت أن تفعل كذا ؛ وعسيتما الى عسيتن وعسى زيد أن يفعل كذا وعسيا إلى عسين وعسيت وعسينا - والثانى الا يتجاوزوا عسى ان يفعل وعسى ان يفعلا وعسى ان يفعلوا والثالث أن يقولوا عساك أن تفعل كذا الى عساكن وعساه ان يفعل

[1] - المفصل للزمخشري - ومعه كتاب الفيصل بشرح المفصل للأستاذ محمد محي الدين عبد الحميد . جـ ٢ صـ ١٦٣ ، ١٦٤ .

إلى عساهن وعسانى أن أفعل وعسانا أن نفعل .

وأمام هذا نجد أن القرآن قد التزم فى تعبيره أسلوب الحجازيين على طول الطريق لم يشذ عنه حتى فى الآيات التى يسبق الجمع فيها - عسى - وذلك فى ثلاثة مواضع : الأولى آية ٩٩ فى سورة النساء ، والثانى ، آية ١١ فى سورة الحجرات ، والثالث ، نفس الآية أيضاً من سورة الحجرات ، ثم أن القرآن ، مع التزامه لإفراد - عسى - ، لم يلجأ إلى الاستعمال الثالث ، وهو إسنادها إلى ضمير الفعل الواقع بعدها ، إلا فى آيتين اثنتين وهما آية البقرة ٢٤٦ ، وآية - محمد - ٢٢ ، وذلك بسبب لفظى واضح ، وهو أن - عسى - قدفصل بينها وبين خبرها بجملة طويلة فأسندت - عسى - إلى الضمير حتى لا يؤثر هذا الفصل فى السماع ، وكثيراً ما يلاحظ القرآن فى تعبيراته الناحية اللفظية ، وموسيقى الآيات . وقد لاحظ الفراء هذه المسألة فى كتابه - معانى القرآن - الذى لا يزال مخطوطاً ، وشرحها شرحاً بيناً ، وذكر لها عشرات الأمثلة فى القرآن من ذلك قوله تعالى « والليل إذا يسر » بدل يسرى ، وقوله والذى خلقنى فهو يهدين ، « والذى يطعمنى ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين » .

ولعل هذا يدعونا إلى التفكير ملياً فيما ذكره النحاة وقررناه سابقاً من أن للعرب مذاهب ثلاثة فى استعمال - عسى - إذ أننا لم نجد فيما اطلعنا عليه من كتب النحو ، والأدب والتاريخ ، والقراءات ، ما يشير إلى أن هذا

الاستعمال الثالث كان خاصاً بقوم بعينهم من العرب ، ونحن لا نستطيع أن نتصور ذلك لهجة من لهجات العرب ، أو لغة من لغات إحدى القبائل العربية ، وهذا فى نظرنا لا يعدو أن يكون وليداً لظروف الكلام ، والمتكلم ومراعاة لحالة السامع أيضاً ، وليس فيه شيء من طبيعة لغة خاصة ، أو قبيلة بعينها ، كما نلاحظ ذلك فى لغة الحجازيين ؛ أو فى لغة التميميين ؛ حيث تنهض كل لغة على فروق جوهرية . وإذن فليس هناك سوى لغتين .

لغة الإفراد فى عبى ، ولغة المطابقة ، وقد التزم القرآن الأولى منها .

وما ذكرناه حتى الآن يدل فى وضوح على مدى اختلاف الأساليب فى اللغة العربية ، وعلى مبلغ الجهد الذى ينبغى أن نوجهه لدراستها ، ثم على مقدار مايمكن أن نجنيه من وراء تلك الدراسة ، وذلك ، دون ريب ، على ضوء ماقدمناه من تمهيد ، ودرس ، وما ذكرناه من ملاحظات ؛ وسجلناه من نتائج أثناء بحثنا فى النحو بمعناه الفنى .

علينا إذن أن نجرد أنفسنا من تلك الأفكار القديمة وأن ننظر إلى اللغة العربية ونحوها نظرة جديدة أساسها الإحساس الفطرى ، والواقع الملموس . وعلينا إذن أن ندرس اللغة والنحو دراسة واقعية فلا نحاول أن نرجع بها إلى العصور الجاهلية الأولى كما يصنع بعض اللغويين الآن ، فإن هذه اللغة نفسها قد استطاعت أن تساير الحياة ، وما جد فيها من تقدم فى كل نواحى المعرفة الإنسانية ، فيما يقرب من أربعة عشر قرناً من الزمان ، ولسنا نشك فى أن كل عصر من

هذه العصور قد طبع اللغة بطابع جديد ، وترك فيها آثاراً عديدة . وقبل أن نختم كلمتنا هذه عن نتيجة بحثنا المتقدم نحب أن نذكر القارىء بأن كل ما ذكرناه خاصا بالنحو إنما نقصد منه النحو بمعناه الفنى ؛ أى طرق الأداء والتعبير نفسها ، وأما النحو بمعناه العلمى فسيكون لنا منه موقف آخر إن شاء الله .

النحو بمعناه العلمى (١)

النوع الثانى من النحو ، وهو النحو بمعناه العلمى ، يقصد منه استنباط قواعد النطق الصحيح بناء على دراسة اللغة وفهم أساليبها وإدراك أسرار طرق الأداء فيها ، ثم تسجيل هذه القواعد لدراستها .

ونشأة هذا العلم بالنسبة للغات العديدة ، مختلفة من حيث الظروف التى وجد فيها ومن حيث طبيعة العلم نفسه ومادته .

والأسباب التى دعت إلى نشأة النحو عند الشرقيين عامة تكاد تكون واحدة ، ولكنها فى نفس الوقت تخالف الأسباب التى دعت إلى نشأة النحو عند الغربيين . فبينما نجد الشرق يحدوه فى وضع هذا العلم عامل روحى دينى ، إذا بنا نجد الغرب يحدوه فى ذلك عامل لغوى بلاغى اجتماعى : فالهنود حينما بدأوا يضعون نحوهم ويفكرون فى مسائله كان هدفهم من ذلك المحافظة على لغة كتابهم المقدس - *Vedas* - وشرح أساليبه .

وكذلك الأمر بالنسبة للنحو السريانى ؛ فعندما وجد السريان ، سواء منهم النسطوريون أم اليعقوبيون ، أن الفتح العربى قد امتد إلى

(١) انظر ص ٧٨ وما بعدها من هذا الكتاب

بيئاتهم وإن اللغة العربية بدأت تنافس لغتهم ، فزعوا من ذلك وخافوا على كتابهم المقدس - الإنجيل - من أن تمتد إليه يد التحريف فأخذوا فى وضع قواعد لضبط اللغة كى تحدد الطريقة التى تقرأ بها نصوص الإنجيل .

وكان الخوف على نصوص القرآن أولاً هو الذى دفع العرب إلى التفكير فى وضع النحو وقواعده ، ونحن نورد هذا الرأى معتمدين فى ذلك على الاتجاه العام عند الشرقيين فى وضع أسس هذا العلم ، ومستندين إلى الروايات العديدة التى تؤيد هذا بالرغم من الروايات الأخرى التى تتلمس لوضع النحو العربى أسباباً غير تلك الأسباب ، لا نجد محلاً لذكرها الآن ، وسنعرض لها بالتفصيل بعد قليل .

أما اليونانيون فلم يكن الحافز لهم على وضع هذا العلم خوفهم من أن يتسرب اللحن إلى لغتهم ، ولا حرصهم على نصوص مقدسة لديهم ؛ فقد كانت اللغة اليونانية يوم فكروا فى وضع هذا العلم - القرن الخامس قبل الميلاد - فى منتهى القوة والكمال وإن لم يكن لها ما ينافسها من اللغات الأخرى ، ولكنهم كانوا مدفوعين إلى ذلك أولاً بسبب رغبتهم فى شرح شعر هوميروس وتفهم أساليبه ، وثانياً لتنشئة جيل يونانى قادر على تصريف أوجه الكلام وإقناع الجماهير فى خطبهم السياسية والقضائية .

ولأسباب تكاد تكون مشابهة لذلك نشأ النحو اللاتينى ، فالروم ، فوق رغبتهم فى تقليد اليونانيين بالنسبة لهذا العلم ، أرادوا تثبيت لغتهم

وشرح أساليبها وأوجه الجمال فيها . وأول محاولة لهم في ذلك كانت في القرن الثاني قبل الميلاد .

وهذه الظاهرة الخاصة بنشأة علم النحو ليست فى الواقع سوى جزئية من ظاهرة عامة تسود الشرق بجملته ، وظاهرة عامة أخرى تسود الغرب بجملته ، فمنذ القدم والشرق يحدوه فى تفكيره وفى أنظمته الاجتماعية وفى فلسفته وفى علومه معنى روحى يتطلع دائماً إلى السماء ، إلى الله ، إلى حياة أخرى لا خطر للمادية فيها ، وكل ما شاهدناه من آثار لحضارات الشرق ومن إنتاج عقلى عند الشرقيين إنما هو ناتج عن هذا المعنى الروحى ، سواء أكان ذلك عن طريق مباشر أم عن طريق غير مباشر . فكان الملوك عندهم يمثلون الآلهة على الأرض وأنظمة الدول وقوانين المجتمع مستمدة من الآلهة أو من ممثليهم . وهكذا فى سائر النواحى مما يدل على تغلغل هذا المعنى فى البيئات الشرقية وتمكنه فى نفوس الشرقيين ، حتى لقد أصبح فى كثير من الأحيان مظهر التقدم فى الشرق والطابع الغالب فى الثقافات الشرقية ، ولهذا فليس عن طريق الصدفة أن كان الشرق مهد الأديان (سواء فى ذلك الأديان الوثنية أم الأديان السماوية) . والمجال هنا واسع لدرس هذه النظرية وتحليلها ثم إثباتها مسايرة للعصور التاريخية مدعمة بالأدلة ، ولكن ليس هنا مكان ذلك الفصل الكبير والبحث التحليلى العميق ، غير أننا نكتفى بالإشارة فقط إلى أن الشرق بوجه عام قد مر بمرحلتين واضحتين وهو فى كلتيهما كان متأثراً

إلى حد بعيد بذلك المعنى الروحى ولا نكاد نحس بأثر السلطان المادى فى هاتين المرحلتين الطويلتين :

المرحلة الاولى

هى مرحلة الديانات الوثنيـــة على اختلافها من عبادة الكواكب ، والنار ، والملوك ، والحيوانات ، والنباتات وغير ذلك من القوى الطبيعية ممثلة فى أوثان . وكانت الزعامة لهذه الديانات تكاد تكون محصورة فى بيئتين اثنتين ، إحداهما وادى النيـــل ، والثانية وادى دجـــلة والفرات . وحضارات هاتين البيئتين قديماً تفيض بذلك المعنى الروحى الذى أشرنا إليه ولا تترك مجالاً للشك فى تغليب السلطان الروحى ، وفى استلهام الروح لوضع أنظمة المجتمع .

المرحلة الثانية

هى مرحلة الأديان السماوية على اختلافها أيضاً من يهودية ومسيحيـــة وإسلامية . وكانت الزعامة لهذه الأديان محصورة بدورها أيضاً فى بيئتين اثنتين ، إحداهما بيئة الشام ، والثانيـــة أرض الحجاز فى شبه الجزيرة العربية ، والطابع الغالب فى هذه الأديان أيضاً هو طابع روحى ، إذ أنها تتجه بنظر الإنسان وتفكيره أولاً إلى القوة الخالقة والمهيمنة على هذا الكون ، ثم أنها تهدف أول ما تهدف إلى إصلاح الروح عند الإنسان ،

مقتنعة بأن إصلاح المجتمع لا يمكن أن يتحقق إلا على أساس الإصلاح الروحي . وعلى العكس من ذلك كله نجد المعنى المادى الواقعي سائداً عند الغربيين وأساساً لحضاراتهم ولإنتاجهم العقلي حتى فيما من شأنه أن يكون خاصاً بالمعنى الروحي كالأديان ، فإنهم صوروها فى كثير من الأحيان تصويراً ماديًا وجعلوا منها أداة لرقى المجتمع المادى قبل أن تكون أداة للإصلاح الروحي .

* * * * *

نعود الآن الى موضوعنا الأصلي وهو نشأة النحو العربي ، ومن هذا العرض الذى بسطناه آنفاً عن الظاهرة الروحية العامة عند الشرقيين يتضح لنا أن الحافز الأول الذى دفع العرب الى التفكير فى وضع علم النحو هو الخوف على نصوص القرآن من أن تمتد اليها يد التحريف . وهذا هو الرأى الذى نطمئن اليه وتؤيده الوقائع ، وسنحاول إثباته بما توفر لنا من اطلاع وبما استطعنا أن نهتدى اليه من استنتاج ، وفى توضيح هذه المسألة والاهتداء الى رأى فيها توضيح لمسألة أخرى شائكة ، قد كثر فيها الكلام ، وطال الجدل ، ولم يلتفت العلماء فيها إلى رأى قاطع . تلك هى مسألة تاريخ نشأة النحو العربي .

وهنا قبل أن نبدأ الكلام على سبب نشأة النحو العربي ، وتاريخ تلك النشأة نحب أن نقضى على روح التشاؤم التى تسيطر على أفكار بعض

العلماء المحدثين . تلك الروح التي لا يقرها العـــلم فى مختلف صوره ، ولا تعترف بها مناهج البحث الحديث ؛ وأن نبعد من حسابنا تلك الفكرة القائلة باستحالة الاهتـــداء إلى تاريخ وضع النحو العربى ، وتعذر معرفة واضعه . فها هـــو ذا الاستاذ مصطفى صادق الرافعى يذكر فى جرأة وصراحة هذا النص : « أما تاريخ وضع النحو فلا سبيل إلى تحقيقـــه ألبتـــة »[1]

ثم يذكر الأستاذ ابراهيم مصطفى نصاً آخر فى هذا المعنى مستنداً فيه على نفس المؤلف المتقدم « إن معرفة واضع النحو فى العربية يكاد يكون معضـــلة »[2]

هذه الأفكار وأمثالها ، عندنا معشر الشرقيين ، مثبطة للهمم مدعاة إلى التواكل والاستسلام . وليس أخطر على الشرق من أن تنتشر فيه هذه الروح ، وأن تعرف عنه تلك العقيدة ، لانها تجعل الشرقيين يفقدون الثقة فى أنفسهم ، وحينئذ لا مناص لهم من الاعتماد على الغير يأخذ بيدهم ، ويمـــدهم بأبحاثه ، ثم لا يكون لهم من الجرأة الفكرية ما يستطيعون

---

(١) انظر الجزء الأول من تاريخ آداب العرب ص٢٦٦

(٢) انظر بحث الاستاذ ابراهيم مصطفى عن ـ أول من وضع النحو ـ فى مجلة كلية الآداب جامعة فؤاد فى المجـــلد العاشر ، الجزء الثانى ديسمبر سنة ١٩٤٨

بواسطتها تحليل هذه الأبحاث ولا نقدها كما صنع ، ويصنع الغرب حتى الآن ؛ وليس أدل على ذلك من تلهف الشرقيين على أبحاث المستشرقين وعلى آرائهم يأخذونها فى كثير من الأحيان حجة مسلمة دون مناقشة ؛ بل ربما تمدحوا بذكرها والاطلاع عليها .

بعد هذه الملاحظة الخاصة بالروح العامة عند الشرقيين ، وبعد الدراسات الطويلة لتاريخ العلوم عند العرب ، وإدراكنا مبلغ حرصهم على الآثار الدينية ، نستطيع أن نؤكد بأن السبب المباشر فى وضع النحو هو فزع العرب وخوفهم من أن يتسرب الخطأ واللحن إلى نصوص القرآن .

وإذا كان هناك ما يفهم منه حرصهم على اللغة نفسها ، فليس ذلك إلا لأن اللغة أداة لقراءة النصوص القرآنية

ولو نظرنا نظرة إجمالية إلى العلوم العربية فى العصور الإسلامية الأولى ، لوجدنا أنها نشأت لخدمة القرآن أو تفرعت عن نصوصه ، إذ أن القرآن كان بمثابة المركز الرئيسى : كل المعارف العربية مجندة له ، وكل العلوم العربية الخالصة محيطة به . ولم يكن النحو فى الواقع سوى حلقة هامة من سلسلة تلك العلوم التى تخدم القرآن ، وتحافظ على نصوصه .

والذين يقولون غير ذلك تعوزهم الفكرة العامة ؛ والنظرة الشاملة بالنسبة للعلوم الإسلامية كلها . ثم إنهم — فى اعتقادنا — لا يستندون فيما يقولون على رأى ناضج ، ولا على منطق سليم . ولعل أهم وأكثر

الأخطاء التى نقع فيها إنما مصدره النظرة الجزئية التى تنصب على ناحية خاصة دون اعتبار للكليات .

ولو كان مجرد اللحن فى اللغة مدعاة لوضع النحو لوجدنا على الأقل محاولات فيه أيام الرسول صلى الله عليه وسلم أو أيام الخلفاء الراشدين من بعده ؛ إذ أن اللحن موجود فى البيئة العربية منذ ذلك التاريخ بل نعتقد أنه أقدم من ذلك عهداً ، فالبيئة العربية منذ مئات السنين قبل الإسلام كانت تعتبر مأوى للمهاجرين وطلاب الكسب من الأمم الأخرى مثل اليهود والفرس والأحباش والروم .

ولانريد أن نذهب بعيداً فنذكر هجرة الآشوريين والبابليين منذ ألفى سنة تقريباً قبل ميلاد المسيح . ولم يكن هؤلاء ولا أولئك يتكلمون العربية حتى يتنزه لسانهم عن اللكنة الأجنبية ويسلم منطقهم من اللحن والأخطاء . ومن يدرس الحالة الاجتماعية للقبائل العربية قبل الإسلام ، ويبحث على الخصوص فى الحالة التجارية التى تسيطر على كل نشاط آخر فى شبه الجزيرة العربية ، أو يلاحظ حركة الأسواق السنوية [1] التى تقام

---

(1) اختلف العلماء فى عدد أسواق العرب ، فيعدها القلقشندى فى صبح الأعشى ٨ ، ويعدها اليعقوبى فى تاريخه والبغدادى فى خزانته ١٠ ، ويعدها المرزوقى فى الأزمنة والأمكنة ١٧ ، ويعدها الألوسى فى بلوغ الأرب ١٤ ، =

فى أكثر من عشرين مدينـــة تحيط بشبه الجزيرة من كل نواحيها — من شواطىء البحر الأحمر الى شواطىء المحيط الهندى ، الى شواطىء الخليج الفارسى الى البادية الشمالية الواسعة الممتدة من ريف العراق الى بلاد الشام —

ويعرف مبلغ ما كان يحدث فى هذه الأسواق من اختلاط العرب بغيرهم من اليهود والفرس والروم ، وما يتبع ذلك من استيطان بعض هـؤلاء

=ويعدها الهمدانى فى صفة جزيرة العرب ٥٠ ، ويعدها الأستاذ الأفغانى فى أسواق العرب ٢٠ .

وسنذكر بعضاً من هذه الاسواق تاركين الخلافات الكثيرة بين المؤلفين القـــدماء :

١ دومة الجندل : وهى فى منتصف الطريق بين البصرة والعقبة ، وكانت تقام فى أول ربيع الأول حتى منتصفه وأحياناً حتى آخره .

٢ المشقر : بالبحرين قريباً من هجر على شواطىء الخليج الفارسى ، وتبدأ السوق من أول جمادى الآخرة وتستمر حتى نهايته

٣ هجر : وهى بالبحرين أيضاً على شاطىء الخليج الفارسى ، وتبدأ حيث تنتهى سوق دومة الجندل ، فكانوا ينتقلون إليها مباشرة فى أول ربيع الثانى

٤ عمان : فى جنوب الخليج الفارسى وتمتد على ساحل بحر اليمن ، وتبدأ حيث تنتهى سوق هجر ، وتستمر حتى آخر جمادى الأولى وروادها فرس وهنود وأحباش ويمنيون وحجازيون وشآميون .

الأجانب في المدن التي تقام فيها الأسواق قياماً بالتجارة أو طلباً للكسب عن أي طريق آخر ، نقول أن من يدرس هذه الحياة الاجتماعية ويلاحظ ما كان فيها من ذلك لا يخامره أدنى شك في أن المجتمع العربي القديم كان يجري فيه اللحن على ألسنة هؤلاء الأجانب ، وربما على ألسنة بعض العرب أنفسهم الذين يكثرون من مخالطة هؤلاء الاجانب ، والذين لم يكونوا من السادة ، ولا من المتطرفين في المحافظة على اللسان العربي ، وفي استقامة

---

٥ حباشه : في تهامة فيما بين الحجاز واليمن وكانت تقام في رجب

٦ صحار : في أرض عمان وهي واقعة على شاطىء خليج عمان ، وتقوم السوق من ١٠ رجب الى ١٥ منه أي بعد انفضاض سوق حباشه .

٧ دبا أودبي : في أرض عمان أيضاً وتقوم سوقها بعد انفضاض سوق صحار وتستمر حتى منتصف شعبان ، وهي تقع أيضاً على الساحل شمال صحار .

٨ الشحر : على الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية بين عدن وعمان وتقوم سوقها في منتصف شعبان .

٩ عدن أبين : تقع على بحر الهند جنوبي مضيق باب المندب نحو الشرق وتقوم سوقها بعد الشحر في مدة العشر الاول من رمضان .

١٠ صنعاء : في بلاد اليمن ، وهي العاصمة وسوقها تقام من رمضان حتى آخره .

التركيب الصحيح . وينبغي أن نطمئن تماماً إلى أن ما وصل الينا من النصوص الأدبية القديمة لا يمثل اللغة العربية تمثيلا صحيحاً كاملا ، فإن لغة الشعر غير لغة الخطاب ، والعبارات التي تروى وتؤثر غير العبارات التي يتم بها التفاهم وأحاديث السادة غير أحاديث السوقة ، وينبغي أن نطمئن أيضاً الى أن بعض العرب كان يستنكف وجود اللحن في اللغة ويتبرم من سماعه ، فلم تكن غيرة الرسول ﷺ ، والخلفاء الراشدين من بعده على سلامة النطق وليدة أيامهم

---

١١ حضر موت : وهي منطقة واسعة في جنوب شبه الجزيرة بين عدن وعمان ، وسوقها تقام على رابية بها ، فتعرف أيضاً بسوق الرابية من ١٥ ذي القعدة حتى آخره . ورمالها الواسعة تعرف بالاحقاف .

١٢ عكاظ : بين مكة والطائف وهي السوق العامة للعرب في الجاهلية وهي تقوم في ذي القعدة ، ويرى أكثر الرواة أنها تبدأ أول العقدة الى ٢٠ منه

١٣ مجنة : شمال عكاظ قرب مكة وتقوم السوق في العشر الأخير من ذي القعدة بعد انتهاء سوق عكاظ .

١٤ ذي المجاز : شمال غرب مجنه وتقوم سوقها في أول ذي الحجة بعد انتهاء سوق مجنه مباشرة .

١٥ نطاة خيبر : وخيبر قرية شمال المدينة ؛ بينها وبين تبوك . ونطاة اسم حصن بها ، واسم عين أيضاً . وفي القرية حصون كثيرة لليهود ، وأهلها يهود جاءوا إلى الحجاز قديماً واشتغلوا بالزراعة والتجارة .

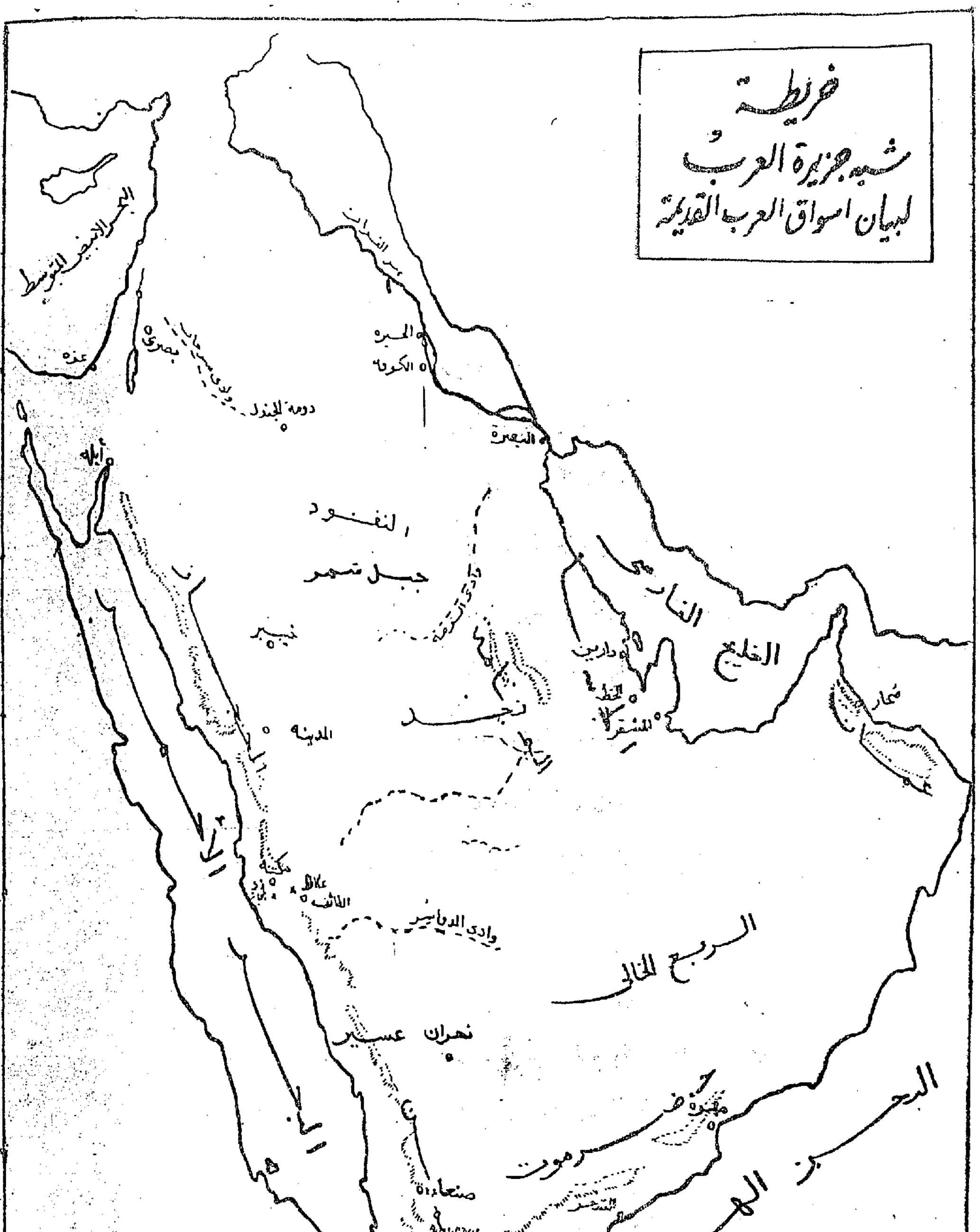
كما لم يكن التحريف فى عهدهم بادرة جديدة لم يسبق لها مثيل ، وينبغى أيضاً ألا نساير القائلين بعصمة العربى من اللحن ؛ وبعد اللغة فى العصر الجاهلى عن أى تحريف ، فهناك من أسرار اللغة ودقائق التعبير ما لا يمكن أن يدرك بتأمل ، وعناية ، ومران . وأمامنا من ذلك صور حية فى اللغات الحديثة التى يعرف أهلها بلا استثناء القراءة والكتابة ومع ذلك لا يسلم لسانهم من الخطأ ، ولا يتفقون جميعاً على النطق الصحيح ، فما بال العرب إذن وهم قوم أغلبهم أميون ؛ وكانوا يعيشون قبائل متفرقة ؟

ولكى نرى إلى أى حد كانت بلاد العرب معرضة لمجىء الأجانب يكفى أن نعرف ما كان يوجد فى مكة نفسها من بيوت تجارية للروم الذين كانوا يستخدمونها فى أغراض أخرى كالتجسس على العرب ، وكذلك ما كان فيها من أحباش أيضاً يقومون مقام السفراء فى الشئون التجارية بين العرب وأهل

وكانت من أغنى بلاد العرب ، بل هى مصرف الجزيرة المالى . وسوقها تقام بعد ذى المجاز أى بعد أشهر الحج .

١٦ حجر : فى بلاد اليمامة وهى غربى البحرين وجنوب العراق ، وكانت تقوم بين عاشوراء وآخر المحرم ،

١٧ بصرى : فى مشارف الشام ، وهى عاصمة صوران .


خريطة
شبه جزيرة العرب
لبيان أسواق العرب القديمة
البحر الأبيض المتوسط
غزه
بصرى
دومة الجندل
أيلة
الحيرة
الكوفة
البصرة
النفود
جبل شمر
خيبر
المدينة
نجد
الخليج الفارسي
دارين
الخط
المشقر
مكة
عكاظ
الطائف
وادي الدواسر
الربع الخالي
نجران
عسير
حضرموت
صنعاء
عدن
البحر الهندي

الحبشة [1] .

إن من يلاحظ كل هذه الاعتبـــارات ، ويدرك مداهـا ، يستطيع فى سهولة أن يتصور مبلغ ما كان فاشياً من اللحن فى البيئة العربية قبل الإسلام. فهو بلا شك أكثر مما تحدث عنه الرواة ، ووصل الينا صداه .

وهناك ظاهرة اجتماعية أخرى عند العرب جديرة بالاعتبار فيما نحن بصدد الحديث عنه ، إذ أنهـا ترينا بصورة واضحة مقدار تعرض المدن العربية إلى استيطان الأجانب ، ومبلغ ما يكون لهؤلاء الأجانب من أثر على اللغة ، تلك هى ظاهرة الفتيات الأجنبيات ، من روميات إلى فارسيات إلى حبشيات ، اللاتى كن يقمن فى البيئات العربية ، إما فى صورة إماء ، وإما لاحتراف مهنة البغاء . وكان ذلك فاشياً عند العرب فى الجاهلية أكثر مما نستطيع أن نتصوره . ونعتقد أن سادة العرب ، ورؤساء القبائل كانت تقر لأولئك الفتيات هذه المهنة ، إذ أننا نجد البغيات يقمن فى أسواق العرب ، وعلى الخصوص فى سوق دومة الجندل ، أخبية خاصة لمباشرة هذا العمل .

---

[1] انظر فجر الإسلام للأستاذ أحمد أمين ص ١٥

وقد عرف كذلك أن أول غزوة لبـلاد العرب قام بهـا الروم فى عهـد الامـبراطور أغسطس كانت قائمـة على صلاتهم ببـلاد العرب وأعوانهم فيهـا وقد تحدثت كتب التاريخ اللاتينية عن هذه الحملة الحربية ، وعزت سبب فشلها إلى عدم أخلاص أعوانهم وجواسيسهم فى بلاد العرب .

ونعرف أن بعض العرب كان يتخذ من هذه الإماء مورداً للكسب ، ولم يكن ذلك قليلاً أو نادراً ، بدليل اهتمام الرسول صلى الله عليه وسلم بهذه المسألة ونهى القرآن عنها «ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ؛ ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم»[1]

وحسبنا فى هذا أن نعلم أن أم عنترة بن شداد كانت حبشية اسمها زبيبة ، وأن أباه لم يلحقه بنسبه إلا بعد أن ظهرت مواهبه فى ميدان الرجولة ؛ وفى ميدان الأدب ، وقد توفى عنترة هذا فى سنة ٦١٥ م . ثم فى أيام ظهور الاسلام نجد صهيبًا الرومى ، وبلالًا الحبشى ، وسلمان الفارسى ، وغير هؤلاء وأولئك كثير ممن أبلوا فى المحنة الإسلامية الأولى بلاء حسناً ، وكان السادة من قريش يسمونهم أراذل الناس . وينبغى ألا يغيب عنا كذلك ما كان فى شمال بلاد الحجاز من جالية يهودية كبيرة ، وما كان لها من صلات تجارية وثقافية متبادلة مع من جاورها من العرب .

لكل هذه الاعتبارات لا نستطيع أن ننفى وجود اللحن فى البيئات العربية قبل الإسلام ، ولا فى عهد الرسول ؛ وعهد الخلفاء الراشدين من بعده . ولا نستطيع كذلك أن نقلل من كمية ما كان موجوداً فى تلك العهود من لحن فى اللغة العربية . وإذا كان الرواة قد حدثونا عن حوادث فردية وقع

---

(1) أنظر أسواق العرب للأفغانى ص ٤٥ ؛ ص ١٩٩ — ٢٠٠

فيها لحن أمام الرسول وأمام الخلفاء الراشدين من بعده ؛ فثاروا له ونبهوا إلى إصلاحه فلنثق بأن أمثال هذا اللحن كان كثيراً . غير أن هذا اللحن مع كثرته لم يكن ذا خطر ، ولم يكن هناك ما يخشى عليه من هذا اللحن . فالقرآن كان محفوظاً فى ذاكرة الصحابة من العرب الخلص . ولم ينتشر حفظه بين الكثير من الطبقات إلا بعد أن اتسعت الفتوح الإسلامية ، وامتد نفوذ الإسلام . وحينئذ يأتى دور اللحن الخطير ، ويخشى منه على النصوص القرآنية فيفزع العرب كما فزع الهنود والسريان من قبلهم ؛ ويهبون يلتمسون الوسائل لوضع ضوابط تحفظ القرآن من هذه الأخطار .

والنتيجة التى نريد أن ننتهى اليها من وراء هذا العرض هو أن السبب المباشر فى وضع النحو العربى ليس اللحن نفسه ، وإنما هو الخوف على الآيات القرآنية من أن تمتد إليها يد التحريف ، أن ذلك لم يكن بطبيعة الحال يوم كان العرب مستقرين فى بيئاتهم الأولى ، ودولتهم تكاد تكون محصورة فى بيئة الحجاز ؛ بل كان ذلك حينما انتقل سلطان الدولة الإسلامية إلى بيئات غير عربية ، وخضع لهذه الدولة أفواج عديدة من الأجانب من فرس ، وسريان ، وعبرانيين .

تأريخ اللحن فى العربية :

ليس من السهل أن نؤرخ لظاهرة اللحن متى وجدت ، كما أنه ليس من السهل أن نؤرخ لأفراده ، أى ، أية لحنة وجدت أولا ، ولكن من اليسير

أن نؤرخ لأنواعه ، بمعنى أى نوع من أنوع اللحن يمكن أن يكون قد وجد أولاً - وقبل أن نعرف اللحن ونؤرخ لمعرفتنا به نحب أن نمهد لذلك بالكلام عن أنواع اللحن ، وهذه الأنواع يمكن أن توضع فى أربع طوائف :

الطائفة الأولى : لحن يخص علامات الإعراب مثل : متعلمين [1] ، ومنتنين [2]

الطائفة الثانية : لحن يخص طريقة النطق كأن ينطق بالحاء هاء ، أو بالقاف كافاً كنطق صهيب وبلال .

الطائفة الثالثة : لحن يخص بنية الكلمة مثل توضيت بدل توضأت [3] . ومعايش بدل معائش .

---

(١) إشارة إلى ما روى من أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه مر بقوم يرمون ، فاستقبح رميهم ، فقال : ما أسوأ رميكم !! فقالوا : نحن قوم متعلمين (بدل متعلمون) فقال عمر : لحنكم أشد على من فساد رميكم .

(٢) إشاره إلى لحن وقع من أبى حنيفة فى هـذه الكلمة ، حيث يذكر أبو هلال العسكرى فى كتابه - المعجم فى بقية الأشياء - ص ٢٨ ، ٢٩ ، خبراً مسنداً ينتهى فيه السند إلى أبى عثمان المازنى وسنعرض لهذا الخبر بالتفصيل بعد قليل .

(٣) هذه لحنة منسوبة إلى الحسن البصرى ؛ وسيأتى الكلام عليها بعد قليل .

الطائفة الرابعة : لحن يخص وزن الكلمة مثل : رعد وبرق بدل أرعد وأبرق . . وما شاكل ذلك .

وسيتبين لنا بعد قليل أن هذه الأنواع الأربعة من اللحن يمكن أن تؤول إلى نوعين اثنين ؛ إذ أن نوع اللحن الخاص بنطق الأجانب ، والذى هو وليد التكوين الطبيعى للقنوات الصوتية ولمخارج الحروف فيها يمكن أن يصرف عنه النظر ، ولا يعد لحناً مستقلا بذاته ، ولهذا فقد أهمله رجال اللغة ، ولم يلقوا إليه بالاً ؛ وكذلك لم يكن له من الخطر على اللغة ما يخشى منه ، فلم يقابل من العرب الخلص قبل الإسلام وبعده بمثل ما كان يقابل به أى نوع آخر من أنواع اللحن .

وأما الطائفة الثالثة والرابعة فيمكن اعتبارهما نوعاً واحداً من اللحن إذ أن اللحن فى بنية الكلمة لا يكاد يفترق عن اللحن فى وزنها ، وسيظهر بعد قليل أن خطرهما واحد ، وأنه فى درجة أقل من اللحن فى الإعراب . وإذن فنحن أمام نوعين من اللحن هما : اللحن فى علامات الإعراب ، واللحن فى بنية الكلمة أو فى صياغتها ؛ ومع ذلك فأننا نستطيع أن نقول ، على ضوء ما تقدم ، إن لكنة النطق هى التى يمكن أن تكون قد سبقت كل الأنواع الأخرى ، ولم تكن فيما نظن عظيمة الخطر ، بل كان لا بد للعرب الخلص أن يتجاوزوا عن سماعها ما داموا قد أجازوا للأجانب أن يقيموا فيما بينهم .

ثم يأتى اللحن فى علامات الإعراب بنوعيها : حروف وحركات وكان هذا النوع أشد الأنواع على أُذن العربى الخالص وأخطرها على اللغة الفصحى . وأخيراً يجىء النوعان الآخران ، ويعتبر خطرهما فى المرتبة الثانية .

والذى أفزع العرب وجعلهم يفكرون فى وضع ضوابط هو النوع الثانى من الأنواع الأربعة . وذلك لأن نصوص القرآن كانت مدونة ، ولا سبيل للخوف عليها من ناحية بنية الكلمات . وإنما الخوف كان من ناحية الشكل الذى لم يكن قد ثبت بعد . وبعد ضوابط الشكل فكروا فى ضوابط البنية . وليس من شك فى أن طبيعة صنيع العرب فى الضبط تدل على أخطر الأنواع ، فالاهتمام الأول كان منصباً على الشكل أى على علامات الإعراب . ثم يجىء الاهتمام ببنية الكلمة فيوضع نقط الإعجام . وليس من شك كذلك فى أن الخلط فى علامات الإعراب أسرع على اللسان . وأسهل فى الارتكاب من الخلط فى بنية الكلمة . فليس من السهل على العربى المقلد أن يخلط بين ما أحسن وما أحسب مثلا ؛ ولكن من السهل عليه أن يخلط بين ما أحسن بفتح النون وما أحسن بضمها .

ويدخل تحت النوع الرابع من صور اللحن ما تستعمل فيه الكلمة أو التركيب فى غير ما وضع له . مثال ذلك استعمال كلمة (محنبطىء) التى معناها المنتفخ البطن ، فى معنى من تورمت أنفه غضباً . والذى ارتكب

هذا اللحن وعيب عليه هو شبيب بن شبة المتوفى سنة ١٦٤ هـ [١]

وقد نسب اليه اللحن أيضاً حينما استعمل هذا التركيب (ما بين لابتيها) مريداً بذلك البصرة . بينما هذا التركيب كان يستعمل خاصة فى المدينة [٢]

ولعل هذه الصورة وأمثالها أبسط أنواع اللحن ، ويمكن أن يلتمس لصحتها سبيل التجوز ، ولا ضير فى هذا ، ولكن ذلك لم يمنع نسبة اللحن إلى قائلها ، مما يدل على مبلغ تشدد القدماء فى الاستعمال المأثور ، وهو يشبه ما يسمى عند الفرنسيين بالمعنى الخاطىء *fanse sens*.

والآن بعد الكلام عن أنواع اللحن ، وذكر بعض الأمثلة لكل نوع نتناول ببحثنا موضوع اللحن نفسه : ما هو ؟ ما مظاهره ؟ ما تاريخ وجوده فى اللغة العربية ، وأخيراً ما هو خطره ؟

يعرف اللغويون اللحن بجملة معان ويذهبون فى فهمه إلى مذاهب شتى فيذكرون من معانيه التجويد فى القول والغناء فيه كما يذكرون أيضاً بأن معناه الخطأ فى القراءة ، ثم ينتقلون إلى واد آخر فيقولون إن معناه اللغة نفسها ، كما يقولون كذلك إن معناه الفطنة والفهم ، وحول هذه المعانى تدور أكثر آراء اللغويين فى القاموس ولسان العرب عند شرح هذه المادة .

---

[١] انظر ياقوت : إرشاد حـ ٢ ص ٣٧٢ ، ومعجم البلدان له أيضاً حـ ٤ : ٣٣٥

[٢] انظر البخارى : فضائل المدينة ، وانظر كنز العمال حـ ٧ ص ١٥٣

ويظهر أن الأصل فيها هو الميل بمعناه العام وعن هذا الأصل تفرعت المعانى الأخرى فحين يلحن المغنى يكون قد مال عن الطريقة المتبعة فى الكلام إلى طريقة أخرى يطرب بها السامعين ، وحين يخطىء المتحدث فى حديثه يكون قد مال عن طريق الصواب فى قوله ، وحين يتحدث المرء بلغة قوم آخرين أو بلهجة قبيلة أخرى يكون قد مال عن لغته هو إلى لغة هؤلاء أو أولئك ليشرح بها أفكاره ومعانيه ، وحين يحاول المتكلم أن يشرح معنى عنده ويفهمه الآخرين يكون قد مال إلى هذا النحو من القول . وكذلك حين يريد أن يعرض بمعنى فى نفسه بحيث لا يفهمه كل السامعين وإنما يدركه بعضهم فقط يكون كذلك قد مال عن طريقة القول الواضح للجميع إلى طريقة أخرى فيها تعمية وغموض مقصودان .

وينقل صاحب اللسان عن ابن برى كما ينقل عن غيره أن اللحن يشتمل على المعانى الستة الآتية وهى : أولا — الخطأ فى الإعراب ، ثانياً : اللغة ، ثالثاً : الغناء ، رابعاً : الفطنة ، خامساً : التعريض ، سادساً : المعنى .

ثم يذكر لكل واحد من هذه المعانى مثالاً أو أكثر كشاهد على ما يقول . فمن المعنى الأول وهو الخطأ فى الإعراب قول مالك بن أسماء بن خارجة الفزارى :

منطق صائب وتلحن أحيا ٭ ناً وخير الحديث ما كان لحنا

ومن المعنى الثانى ، وهو اللغة ، قول عمر : (تعلموا الفرائض والسنة واللحن .) بالتحريك أى اللغة .

ومن المعنى الثالث ، وهو الغناء والتجويد وترجيع الصوت ، قول يزيد ابن النعمان :

لقد تركت فؤادك مستجنا ٭ مطوقة على فنن تغنى
يميل بها وتركبه بلحن ٭ إذا ما عن للمحزون أنا
فلا يحزنك أيام تولى ٭ تذكرها ولا طير أرنا

ومن المعنى الرابع وهو اللحن بمعنى الفطنة قول الرسول صلى الله عليه وسلم « إنكم تختصمون إلى ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض - أي أفطن لها وأجدل - فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فإنما أقطع له قطعة من النار . »

ومن المعنى الخامس وهو اللحن بمعنى التعريض والإيماء ، قول القتال الكلابى :

ولقد لحنتُ لكم لكيما تفهموا ٭ وَوَحَيْتُ وحياً ليس بالمرتاب

ومن المعنى السادس وهو المعنى ، قوله تعالى « ولتعرفنهم فى لحن القول . » أى فحواه ومعناه .

والذى يهمنا من كل هذه التفاصيل هو اللحن بمعنى الخطأ ؛ واللغويون بالرغم من هذا البيان وذلك الشرح لا يقدمون لنا مثالا نستطيع أن نفهم منه معنى الخطأ المقصود ؛ وكل ما نعثر عليه من توضيح فى هذا عندهم هو قولهم « الخطأ فى الإعراب » غير أن ذلك أيضاً لا يزال فى شيء من

الغموض ، وفى حاجة إلى البيان ، لأننا سنرى بعد قليل أن الرواة فى الأدب ورجال النحو كانوا يعممون معنى اللحن فلا يخصونه فقط بلحن الإعراب .

وها هى ذى أمثلة من رواياتهم توضح لنا وجهة نظرهم ومبلغ فهمهم لمعنى اللحن : يروى ابن الأنبارى فى كتابه « الأضداد » : أن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه مر بقوم يمارسون الرماية فساءه منهم سوء رميهم فقال : ما أسوأ رميكم . فقالوا : نحن قوم متعلمين . فقال عمر : لحنكم أشد علىّ من فساد رميكم .

وروى أيضاً أن كاتباً لأبى موسى الأشعرى كتب إلى عمر بن الخطاب عن لسان أبى موسى يقول : « من أبو موسى .... » وحينما وقف عمر على هذا الخطاب ساءه ما رآه فيه من لحن ، فكتب إلى أبى موسى يطلب منه أن يضرب كاتبه سوطاً على هذا اللحن .

ويروى لنا أبو هلال العسكرى فى مقدمة كتابه « المعجم فى بقية الأشياء » [1] ما يأتى : سمعت سعيداً ابن أوس يقول : لقيت أبا حنيفة فحدثنى بحديث فيه : « يدخل الجنة قوم حفاة عراة منتنين قد محشتهم النار » فقلت له : قوم منتنون قد محشتهم النار ؛ فقال لى : ممن أنت ؟ قلت : من أهل البصرة ؛ قال : كل أصحابك مثلك ؟ قلت : فإنى من أدونهم ؛ فقال :

---

(1) انظر ص ٢٩

طوبى لقوم أنت أدونهم ! [1]

ويروى أيضاً أن أبا عمرو بن العلاء المقرىء النحوى كان يتتبع لحن أبي حنيفة ، صاحب المذهب الفقهى المشهور ، ويستقبحه ثم لا يتحرج من إبداء نصحه إلى هذا الإمام بأن يتعلم العربية ويجيد النحو [2]

من ذلك ما يروى أنه سأل أبا حنيفة مرة عن القتل بالمثقل وهو القتل بغير آلة حادة - هل يوجب القود أم لا ؟ فقال أبو حنيفة : لا ؛ فقال له أبو عمرو : ولو قتله بحجر المنجنيق ؟ فقال : ولو قتله بأبا قبيس - اى الجبل المطل على مكة .

ويروى أبو هلال العسكرى أيضاً [2] : وحدثنا عن الصولى عن أبي حنيفة محمد بن الحباب قال : دخل أبو عمرو بن العلاء دار الزبير ، وهى دار الدقيق بالبصرة ، فقرأ على أعدال الدقيق - أى غراراته : « كتاباً

---

(1) يلاحظ أن أبا هلال قد تحامل على أبي حنيفة بسبب ضعفه فى العربية ، ولكن العجيب أنه نفسه فى نفس الكتاب يستشهد برأى أبي حنيفة فى اللغة حيث يقول ص ٣٧ : « (الخصاصه) ما يبقى فى الكرم بعد قطافه : العنيقيد الصغير ها هنا وآخر ها هنا ، والجمع الخصاص بضم الخاء . وقال أبو حنيفة : هى الخصاصة ، والجمع خصاص ، وكلاهما بالفتح »

(2) أنظر : المعجم فى بقية الأشياء لأبي هلال العسكرى ص ٣٩ - ٤٠

« البيان والتبيين للجاحظ حـ ٢ صـ ٢ س ١٧

لأبو فلان . » فقال : العجب ، يلحنون فيربحون .

ومما نحن بسبيله ايضاً ما روى عن الوليد بن عبد الملك بن مروان , وكان معروفا بكثرة اللحن ، من أنه خطب الناس فى يوم عيد فقرأ فى خطبته هذه الآية القرآنية « يا ليتها كانت القاضية » بضم التاء فى ليتها بدل فتحها ؛ وكان عمر بن عبد العزيز حاضراً فقال : عليك وأراحنا منك . [٢]

ويروى كذلك ان الفرزدق كان ينأى بلغته ويجانب طريقها المعروف فيلحن ؛ وكان عبد الله بن يزيد الحضرمى البصرى مهتماً باعتراضه ونسبته إلى اللحن ؛ ولما عرف ذلك الفرزدق عنه هجاه بهذا البيت :

فلو كان عبد الله مولى هجوته ☆ ولكن عبد الله مولى مواليا

فقال له الحضرمى : لحنت ... ينبغى أن تقول : مولى موال .

وقد نسب ايضاً هذا البيت إلى الفرزدق :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع ☆ من المال إلا مسحتاً أو مجلف

الشاهد فى رفع مجلف

وبهذه المناسبة يقول ابن قتيبة : وأتعب أهل الإعراب فى طلب العلة , فقالوا وأكثروا ولم يأتوا بشىء يرتضى ، ومن ذا يخفى عليه من أهل النظر أن كل ما أتوا به احتيال وتمويه ، وقد سأل بعضهم الفرزدق عن رفعه

---

[٢] انظر : تاريخ آداب العرب حـ ١ صـ ٢٤٦ للأستاذ مصطفى صادق الرافعى .

هذا البيت فشتمه وقال : على أن أقول وعليكم أن تحتجوا . . . ! [1]

وها هو ذا نص كتاب ينقله لنا ابن رشيق عن بعض كتاب القيروان وقد بعث به إلى صاحبه . ومن هذا الكتاب يتبين لنا نوع اللحن ، وهو الذي يهمنا بصفة أساسيه فيه : « يا أخي ومن ذا عدمت فقده . . . أعلمني أبو سعيد كلاماً أنك كنت ذكرت أنك تكون مع الذين تأتي . . . وعاقنا اليوم فلم يتهيأ لنا الخروج . وأما أهل المنزل الكلاب من أمر الشين فقد كذبوا هذا باطلاً ليس من هذا حرفاً واحداً وكتابي إليك وأنا مشتاق إليك إن شاء الله . »

ويعنينا ملاحظة الفعل « تأتي » بعد « الذين » ، « حرفا واحداً » بعد « ليس من هذا » [2]

---

[1] إن هذه الصورة التي ينقلها إلينا ابن قتيبة عن موقف النحاة من بيت الفرزدق ومحاولتهم إيجاد علة لهذا الرفع في كلمة « مجلف » والتماس حيلة لتسويته يذكرنا تماماً بالصورة التي نأخذها عنهم حينما يجدون نصاً عربياً قديماً يخالف قواعدهم النحويه فيتلمسون له التعليل غير مقدرين أن يكون ذلك لحناً أو أنه من آثار اللغة قديماً أو متمشياً مع لهجة قبيلة من قبائل العرب التي لم تتفق مع قريش في لهجتها . وقد رأينا موقف المبرد منهم فيما مضى ، ص ٩٠ من هذا الكتاب

[2] تاريخ آداب العرب للرافعي ج١ ص ٢٧٠

ويذكر الوزير جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي في كتابه « إنباه الرواة على أنباء النحاة » أمثلة عدة من اللحن نقتبس هنا بعضها.

يقول القفطي [1] : ثم إن زياداً - وكان والياً على العراق - سمع بشيء مما عند أبي الأسود - يريد بذلك ما وضعه من النحو - ورأى اللحن قد فشا ، فقال لأبي الأسود : أظهر ما عندك ليكون للناس إماماً. فامتنع من ذلك ، وسأله الإعفاء ، حتى سمع أبو الأسود قارئاً يقرأ :

« إن الله بريء من المشركين ورسوله . » بكسر اللام ، فقال : ما ظننت أمر الناس آل إلى هذا .

ثم يقول القفطي بعد ذلك [2] : وقد قيل : « إن الذى رآه أبو الأسود ونكره ، أنه مر به سعد - وكان رجلاً فارسياً من أهل نوبندجان - كان قدم البصرة مع جماعة من أهله فادعوا لقدامة بن مظعون أنهم أسلموا على يديه ، فأنهم بذلك من مواليه .

ولما مر سعد بأبي الأسود - وكان يقود فرساً له - قال له أبو الأسود : مالك لا تركبه يا سعد ؟ قال : « إن فرسي ظالعاً » وأراد أن يقول « ظالع »

---

(1) إنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطى ج ١ ص ٦

(2) انباه الرواة على انباه النحاة للقفطى ج ١ ص ١٥

ويروى القفطى كذلك أن قوماً جاءوا إلى زياد ، فقـــالوا : أصلح الله الأمير ، توفى أبانا وترك بنون . فقال زياد : توفى أبانا وترك بنون ! ادع لى أبا الأسود . فقال : ضع للناس العربية .[1] ونضيف إلى ماتقدم هذه الأمثلة الاخرى من اللحن ، وسيتبين لنا منها أنها من نوع آخر منه .

من ذلك ما وجد فى بعض رقاع مكتوبة قد وجدت فى عدد من قرى مصر منها ما يرجع تاريخ كتابتها إلى سنة ١٢٧هـ . ومنها ما يرجع تاريخها إلى سنة ١٨٢هـ ، سنة ٢٥٠هـ ، سنة ٢٧٩هـ ، سنة ٢٩٥هـ وقد تكلم الأستاذ مصطفى صادق الرافعى عن هذه الرسائل ، وحاول أن يبين ما تشتمل عليه من لحن ، ثم نقل نص رسالة منها .[2] ويعنينا من كل ما كتبه الأستاذ خاصاً بهذه الرقاع هو نوع اللحن الذى استخرجه من بعضها ، وأشار اليه ، وهو استعمال كلمة (دننير) بدل (دنانير) . ومن هذا النوع أيضاً ما ذكره الجاحظ من أن أول لحن سمع بالبادية هو « هذه عصاتى » بدل « هذه عصـــاى » .

ومن ذلك أيضاً ما يروى من أن الحسن البصرى قال لبعض جلسائه يوماً توضيت ، فقيل له أتلحن يا أبا سعيد فقال إنها لغة هذيل . ويراد من هذا أنه قال (توضيت) بدل (توضأت) . ويهمنا من ذلك اعتبارهم

---

(١) ـ أنباه الرواة على أنباه النحاه للقفطى ج ١ ص ١٥

(٢) ـ تاريخ آداب العرب للرافعى ج ١ ص ٢٤٣ - ٢٤٤

(توضيت) لحناً على فرض أن هذيلاً لا تنطق بها كذلك .

وربما يلاحظ القارىء أننا أطلنا فى هذا الموضوع واستطردنا فيه ثم أكثرنا من ذكر الأمثلة ، والواقع أننا قصدنا إلى هذا الاستطراد قصداً وأردنا من الإكثار فى هذه الأمثلة أن نقدم صورة واضحة عن اللحن فى أزمنة مختلفة وعن وجهة نظر الرواة ورجال النحو بالنسبة لهذا اللحن وكيف كانوا يفهمونه فى الكلام .

واستعراضنا لهذه الأمثلة يهدينا إلى ملاحظة نوعين مهمين من اللحن [1]

النوع الأول : هو ما كان خاصاً بعلامات الاعراب ، وهو ما يشمل القسم الأكبر من هذه الامثلة «كمتعلمين» بدل «متعلمون» «منتنين» بدل «منتنون» و «أبو موسى» بدل «أبى موسى» ... الخ .

النوع الثانى : هو ما كان خاصاً ببنية الكلمة ولا يمس علامة الاعراب فى شىء : وهو القسم الأخير من هذه الامثلة ، وذلك مثل «دننير» بدل «دنانير» و «توضيت» بدل «توضأت» و «عصاتى بدل «عصاى» .

أما اللكنة الطبيعية فى النطق فلا نرى وجهاً لاعتبارها لحناً يخشى منه على اللغة حتى تكون نتيجتها التفكير فى وضع ضوابط تحفظ اللغة ، وتقى الناطقين بها من الوقوع فى أمثالها ؛ وأما اللحن الخاص ببنيـــة الكلمة ،

---

(1) ـ انظر صفحة ١٦٥ من هذا الكتاب

وكذلك اللحن الخاص بوزنها فقد رأينا جمعها فى نوع واحد ، وذلك من حيث الخطورة فى كل منها .

أخطر أنواع اللحن :ـ إن فى اطلاعنا على كتب الرواة المختلفة وفى بحثنا عن هذه الأمثلة لم نجد واحداً من أصحاب هذه الكتب ولا واحداً من أصحاب هذه الروايات قد حاول إن يتلمس فرقاً بين هذين النوعين من اللحن أو يبين خطورة أحدهما على الآخر ، وكأن اللحن كله فى نظرهم جميعاً سواء .

فالمبرد حين يورد أمثلة من اللحن لا يحاول التفرقة فيما بينها سواء أكان اللحن خاصاً بعلامات الإعراب ، أم ببنية الكلمة وإنما يكتفى بتسمية الكل لحناً فى اللغة ، وكذلك أبو هلال العسكرى ، الذى ذكرنا له بعض الأمثلة من اللحن ، لا يفرق بين نوع ونوع آخر منه ، ولكننا حين ننتقل إلى ميدان آخر من ميادين العلماء ، ونعنى به ميدان القراء الذين يحرصون على قراءة القرآن ووضع ضوابط لها ، ودراسة هذه القواعد ثم إقراء القرآن للآخرين ، نقول إننا لو انتقلنا إلى ميدان هذه الطائفة من العلماء لوجدنا معنى اللحن يتضح قليلاً ؛ إذ أنه يتجه أولاً إلى التغيير الذى يصيب علامات الإعراب ، كما أن كلمة خطأ أوغلطة تأخذ لها وجهة أخرى فتطلق على تغيير كلمة بكلمة أخرى أو تقديم كلمة من الجملة كان محلها التأخير أو تأخير كلمة كان محلها التقديم ، فمثلاً لو قرئت الآية « إن الله برىء من

من المشركين ورسوله » بالجر فى الرسول بدل الرفع ، لاعتبر ذلك لحناً ، وكذلك لو قرىء « أحب » فى قوله تعالى « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله . » بالرفع بدل النصب لكان ذلك لحناً . وكذلك لو قرئت الآية « إنما يخشى الله من عباده العلماء » برفع الله ونصب العلماء لكان ذلك لحناً عند من لا يجيز هذه القراءة ، وكذلك التغيير الذى يحدث فى حركات الإعراب فى قوله تعالى « وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم » .

أما الخطأ أو الغلط فهو ما يمكن أن نلاحظ إذا قرأ قارىء (يلبسون الباطل بالحق « بدل يلبسون الحق بالباطل » أو « فخر عليهم السقف من تحتهم » بدل « فخر عليهم السقف من فوقهم » ، وهكذا كل تغيير فى الكلمة أو فى الجملة لا يترتب عليه تغيير أو فساد فى علامات الإعراب .

وقد ترتب على هذا الاختلاف فى النوع عند هؤلاء العلماء اختلاف فى تقدير المسئولية فكان اللحن عندهم أشد من الغلط ، ولازلنا حتى اليوم نلمس هذا الفرق عند من يحفظون القرآن فى « الكتاتيب » أو يشرفون على تجويده فى المعاهد الدينية والمساجد ، ويبدو أن هذا النوع من الفهم ومن تقدير الخطورة فى بعض اللحن دون بعضه الآخر هو ما يتمشى مع طبيعة اللغة المعربة ويتفق وعقلية أصحاب هذه اللغة حينما يعتريها شىء من التحريف ،

فإن اللحن الذى فزع له عمر بن الخطاب واستشار منه كان لحناً فى علامات الإعراب ، واللحن الذى لفت نظر الولاة من العرب والمشرفين على اللغة العربية وأيقظ أبا الأسود لكى يبدأ فى وضع ضوابط تحفظ بها نصوص القرآن كان كذلك لحناً فى علامات الإعراب كما تجمع على ذلك غالبية الروايات . وبالرغم من أن الرواة لم يبينوا لنا نوع اللحن الذى حدث فى حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم فغضب له وأمر أصحابه بإرشاد صاحبه ، نقول بالرغم من أننا لم نقف على نوع هذا اللحن فإننا نظن بل نرجح أنه كان لحناً فى علامات الإعراب لا فى شىء آخر .

ويشبه هذا تماما ما لمسناه أثناء دراساتنا للغات القديمة المعربة من لاتينية ويونانية ، فالمشرفون على تدريس هاتين اللغتين قد فرقوا بين أنواع الأخطاء ووضعوا لكل نوع اصطلاحاً خاصاً وقدروا مكانته من الخطورة ، وأشد هذه الأنواع عندهم ما كان متناولاً لعلامات الإعراب ، ولذا فقد سموه *contre sens* ، ونستطيع أن نقابله فى العربية بكلمة اللحن ، وفق ما بيناه منذ قليل ، ثم يأتى عندهم فى الدرجة التالية من الخطر ما اصطلحوا على تسميته *faux sens* ومعناه المعنى الخاطىء ، ويشمل هذا النوع وضع كلمة مكان كلمة أخرى أو حذف حرف من بنية الكلمة أو زيادة حرف عليها أو ما شاكل ذلك ، مما لا يترتب عليه تغيير فى علامات الإعراب .

ولقد بالغ المشرفون على هاتين اللغتين فأدخلوا المسألة فى تقديرات حسابية فقدروا اللحنة بثلاثة أخطاء . وما لمسناه فى دراسة هاتين اللغتين من حيث الأخطاء وتقديرها أعاد إلى ذاكرتنا صورة ما رأيناه يوم كنا

تحفظ القرآن عند الفقيه أو « العريف » إذا كان يحاسبنا على الغلطة بعصى وعلى اللحنة بثلاث .

مما تقدم يتضح أن الرواة وعلماء اللغة ورجال النحو لم يكونوا يفرقون بين لفظ لحن ، وغلط ، وخطأ . وقد تبين لنا من استعمالاتهم ومن أمثلتهم أنهم كانو يستعملون الواحد من هذه الأسماء مكان الآخرين ، ولم تكن لديهم الدقة التى لاحظناها عند القراء فى دائرتهم الضيقة ، وحتى النحاة حينما كانوا يتحدون القراء ويناقشونهم فى قراءاتهم وآرائهم كانو يطلقون عليهم هذه الألفاظ الثلاثة ، وكأنها مترادفة ، دون تمييز فى المعنى ، ولا ملاحظة فى التفرقة بين أنواع الأخطاء .

وما علينا إلا أن نطلع على كتاب سيبويه أو على مخطوط الفراء ـ معانى القرآن ـ لنرى تبرير ما ذهبنا إليه ، وفوق ذلك فقد جمع لنا الأستاذ عبد الوهاب حموده فى كتابه ـ القراءات واللهجات ـ أمثلة عدة من هذه الأخطاء التى نسبها النحاة إلى القراء ومع ذلك لم يتحروا فيها الدقة من ناحية التسمية أو التفرقة بين الخطأ والغلط واللحن . ومع ذلك فقد حاولنا أثناء هذا العرض أن نفرق بين هذه الأنواع ، ونحدد على وجه التقريب ميدان استعمال هذه الألفاظ ، ثم خطورة بعضها على البعض الآخر ، معتمدين فى ذلك أولاً على الاستقراء والفهم ، ثم على الاستنتاج .

ونعود بعد هذا إلى الكلام عن تاريخ اللحن ، وقد وضح فيه رأينا مما ذكرناه قبلا ، وهو أنه لاسبيل إلى تأريخ هذه الظاهرة فى اللغة تأريخاً علمياً وإذن فليس من السهل أن نقبل ما قاله بعض القدماء فى هذا وتبعهم

فيه بعض المحدثين من أن أول لحن ظهر فى البادية هو « عصاتى » بدل « عصاى » ، وأول لحن سمع بالعراق هو « حى على الفلاح » بالكسر بدل « حىّ » بالفتح .

إذ أن هذا الرأى يحمل فساده فى طياته ، ونظن أن أبسط العقول لا يستطيع أن يتصور صحته .

وربما يلاحظ القارىء تناقضاً بين موقفنا هنا وموقفنا عند ما أشرنا إلى نشأة النحو العلمى فى اللغة العربية ، والواقع أن الموقفين متغايران تماماً ، فتأريخ النحو غير تأريخ اللحن ، إذ النحو ظاهرة اجتماعية لا تنشأ إلا إذا توفرت لها أسباب وبذل فى سبيلها مجهود كبير وتعاون عليها فى أغلب الأحيان عدد من المفكرين ، وهذا هو ما نلاحظه فى نشأة العلوم أياً كان نوعها وفى أى زمان أو مكان كان نشوؤها .

أما اللحن فهو ظاهرة فردية تحدث طوعاً دون يقظة من صاحبها ولا رقابة من المجتمع ؛ وإذن فلا سبيل إلى تأريخ نشأتها ولا إلى معرفة أوليتها فى المجتمع بله عند الشخص نفسه . وهنا نوضح ما أشرنا إليه أكثر من مرة فيما مضى وهو أنه فى غير ما يمس عقائدنا ينبغى أن نتردد بعض الشىء فى هذه الآراء الحاسمة التى نطالعها فى كتب القدماء ؛ كما ينبغى أن لاننسى أمامها أنفسنا أو نهمل عقولنا ؛ فلم تكن العصمة من مستلزماتهم كما لم تكتب علينا التبعية لهم دائماً فى كل ما رأوه ، وإلا لما تقدمت الإنسانية ولا رقى العقل

البشرى .

اللحن كما ذكرنا ظاهرة فردية فى نشأته غير أنه حين يتفشى نسبياً ويجرى على بعض الألسنه فى الطبقه المثقفة من الأمة أو أمام هذه الطبقة يمكن أن يستلفت النظر ، وحينئذ يلحظه المجتمع ويستطيع أن يبدى رأيه فيه ، وصدى ذلك فى هذه المرحلة فقط هو الذى يمكن أن يصل إلى الأجيال اللاحقة عن طريق الكتابة أو عن طريق الرواية ، وعلى هذا الاعتبار يمكننا أن نتصور حالة اللحن فى اللغة العربية وتاريخ معرفتنا به لا تاريخ نشأته فى البيئة العربية . وإذن فنستطيع أن نفترض ونحن مطمئنون إلى هذا الافتراض أن اللحن وجد فى اللغة العربية قبل الإسلام ، ليس فقط فى مدن الثغور أو فى القبائل التى كانت تعيش فى أطراف شبه الجزيرة وفى جوار الأخلاط من الأمم الأخرى ، ولكن فى بيئة الحجاز أيضاً وهى أنقى البيئات وأصفاها لغة وأسلوباً ، وهناك أسباب عدة تحملنا على صحة هذا الافتراض قد أشرنا إلى بعضها فيما مضى حينما كنا نتكلم على أثر التجارة المتبادلة بين الأجانب والعرب وما استلزمة ذلك من إقامة الأسواق لهذا التبادل ، ثم من بقاء بعض الأجانب فى جوار العرب إما للكسب وإما لخدمة السادة من العرب الذين اشتروهم بالمال واتخذوهم عبيداً وإماء ، وفى الحق أن هؤلاء الأجانب من الفرس ومن الروم ومن الزنوج بوجه خاص ؛ كانوا يكونون ما يشبه الطبقة الدنيا فى المجتمع العربى ، وهم وإن كانوا

من القلة بحيث لا يؤثرون فى طابع اللغة بوجه عام إلا أننا لا نستطيع أن نتصور وجودهم فى هذه البيئة العربية دون أن يصدر عنهم لحن . وإذا كنا فيما مضى قد ضربنا لذلك بعض الأمثلة كأم عنترة بن شداد ، وسلمان الفارسى وصهيب الرومى ، وبلال الحبشى فإن لهؤلاء أمثالا ومثيلات ، فصاحب النقائض [1] بين جرير والفرزدق يحدثنا عن أفراد فى الجاهلية آباؤهم من العرب وأمهاتهم من زنوج إفريقية ويطلق عليهم أغربة العرب .

ومن تلك الأساليب أيضاً التى تقوى لدينا صحة هذا الافتراض ما نجده لحسن الحظ من شواهد مبعثرة هنا وهناك فى كتب القدماء تصور لنا طريقة النطق عند هؤلاء الأجانب الدخلاء على العرب .

من ذلك ما يرويه الجاحظ فى البيان والتبيين [2] من أن صهيباً الرومى كان يستعمل لكنة واضحة فى لسانه ، فكان يقول : « إنك لهائن » وهو يريد « إنك لخائن » ، وهذا ما يلاحظ فى النطق الرومى من تعذر النطق بالخاء . ومن ذلك أيضاً ما يرويه الجاحظ عن شخصية أخرى عاصرت الرسول صلى الله عليه وسلم ، ونعنى بتلك الشخصية سُحَيْم المعروف بعبد بنى الحسحاس ، يروى الجاحظ أن سحيماً هذا كان يقول : (سعرت)

---

(1) نقائض جرير والفرزدق ص ٣٧٢

(2) البيان التبيان للجاحظ ج ١ ص ٣٢

بدلا من (شعرت) [1]

ويروى صاحب الأغانى [2] أنه كان يستبدل فى نطقه الحاء بالهاء ، فيقول مثلا : (أهسنت) بدل (أحسنت) . ويقول ابن قتيبة عن سحيم أيضاً أنه كان ينطق بالكاف بدل تاء المخاطب فيقول مثلا : (أ حسنك) بدل (أحسنت) . وهذه هى طريقة النطق فى اللغة الحبشية بالنسبة للضمير المتصل المفرد كما حققها الأستاذ « يوهان فك » [3]

وإذا كان هذا هو بعض ما عرف عن لكنة صهيب وسحيم وشهرتها فى المجتمع العربى أيام الإسلام الأولى لم تكن بسيطة ، فما بال أمثالها الذين عاشوا مغموطين لا يكاد يحس بهم ولا يعرف عنهم شىء ؟ إنه من العسير أن نتصور ، كما تصور بعض المؤلفين ، سلامة لسان هؤلاء الأجانب طول حياتهم فى البيئات العربية ، وبالتالى أن نتصور خلو اللغة من اللحن قبل الإسلام .

ثم إن القرآن نفسه ينقل الينا فى أسلوبه البليغ صورة لما كان بين الرسول صلى الله عليه وسلم وأهل مكة من جدل بشأن الرسالة والوحى ومن

---

(1) البيان والتبيان للجاحظ جـ١ صـ٣٢

(2) الأغانى جـ٢٠ صـ٢

(3) العربية — دراسات فى اللغة واللهجات والأساليب — ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار صـ١٣

هذه الصورة يتبين لنا ضمناً أن مكة كان بها أعاجم لا يتكلمون العربية بإفصاح أو على الأقل كما يتكلم بها أهل مكة من العرب الخلص ، وأن هؤلاء الأعاجم المثقفين كانوا يتحدثون بها مع الرسول فكان أهل الشرك من المكيين يدعون أن الرسول يأخذ عنهم من الأخبار ما يأتيه به الوحى من عند الله ، من ذلك آية النحل [1] وقد نزلت فى الطور المكى الثالث «... لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين» ولكى تفهم هذه الآية حقيقة ، ويفهم منها الرد المفحم على هؤلاء المشركين ينبغى أن يقابل اللسان العربى المبين بالضرورة لساناً أعجمياً أو لساناً عربياً غير واضح وماذا بقى إذن بعد هذا لإثبات اللحن فى مكة قبل أن تستقر دعائم الإسلام ؟

اللحن إذن وجد فى اللغة العربية قبل الإسلام وإن لم يكن من طبيعة العرب الخلص أن يرتكبوه فإنه بقى محصوراً فيما بين هذه الطبقة الضعيفة من المجتمع ، ولكن حينما تأخذ الدعوة الإسلامية فى الامتداد ، ويصل صداها إلى غير العرب من الشعوب الأخرى فيدخل فى الأسرة العربية أفراد آخرون ويقبل على التحدث بالعربية أصحاب ألسنة أخرى يدخل اللحن فى مرحلة جديدة فيسمع فى مجالس الرسول ويقال أمام الخلفاء الراشدين من بعده ، ولكن يصاحبه فى هذه المرحلة اهتمام بالغ من الناحية الأخرى بشأن اللغة الفصحى والحرص على صفائها ونقائها . فنجد الرسول يغضب

(1) آية ١٠٣ سورة النحل

وعمر بن الخطاب يثور حينما يسمعان هذا اللحن ، غير أن هذا الغضب وتلك الثورة لا يمنعان ظاهرة اللحن من الفشو والانتشار ، فتتسع رقعة الدولة الإسلامية وينتظم في سلك الجندية شباب القبائل العربية على اختلاف لهجاتها وتنوع بيئاتها ، وتقام لهم المعسكرات في مواطن فارسية ورومية ، ويتخذ هؤلاء وأولئك لأنفسهم عبيداً وإماء لا يحصى لهم عدد ولا يستقيم لهم في العربية لسان . ولم يقف أمر اللحن على هؤلاء الأجانب الذين اضطرتهم ظروف الحياة وضرورات الفتح أن يندمجوا في الدولة العربية ، ولكنه تعداهم بحكم العدوى إلى العرب أنفسهم بل وإلى من ينبغي لهم أن يشرفوا على أمر اللغة العربية ، فنجد عبيد الله بن زياد ابن أبيه الذي تولى الأمور في العراق يعرف باللحن ويصل الخبر في ذلك إلى معاوية فيرسل إلى إلى زياد يأمره بأن يصلح لسان ابنه ، ولحن عبيد الله [1] هذا وإن لم

---

(1) يعزى لحن عبيد الله بن زياد إلى أنه نشأ في حجر أمه الفارسية ولهذا فقد كان لحنه في العربية من جنس اللحن الذي عرف عن الأجانب أمثال صهيب ، وبلال ؛ فكان ينطق بالهاء بدل الحاء وبالهمز بدل العين كما يقرر ذلك الجاحظ في كتابه — البيان والتبيين جـ١ ص٣٢ — ؛ ونجد لديه أيضاً نوعا من الاستعمال اللغوي لا يوجد إلا عند من يلم بلغة أجنبية ومنشأ ذلك هو الترجمة لمعنى في نفس المتكلم لا تسعفه اللغة التي ينطق بها على التعبير به ؛ وذلك مثل ما روى عنه أنه أمر الجنود في يوم من الأيام=

يكن عظيم الخطر إلا أنه يدلنا على مبلغ تسرب هذه الأخطاء اللغوية إلى الأوساط العربية العليا .

ونجد الوليد بن عبد الملك [1] يرتكب من اللحن أنواعا عدة وتروى

= فقال لهم : (افتحوا سيوفكم) وهو يريد من ذلك قول العرب (سلوا سيوفكم) وقد لمسنا هذه المسألة بأنفسنا حينما كنا مبتدئين فى تعليم اللغات الأجنبية كالفرنسية والإنجليزية ، واللاتينية أيضاً ؛ فكثيراً ما كنا نلجأ إلى ترجمة ما يدور فى خواطرنا من المعانى بألفاظ أجنبية لا تستعمل فى ذلك المعنى وكثيراً ما كان هذا يثير الضحك ممن يسمعوننا . ولعل هذا هو السبب الذى من أجله كان معاوية بن أبى سفيان يستظرف لحن عبيد الله ويجد فيه تورية لطيفة كما يحدثنا بذلك القالى فى كتابه الأمالى جـ١ صـ٥

(١) ويعزى لحن الوليد بن عبد الملك إلى إهمال والده تربيته تربية عربية ؛ فقد روى عن عبد الملك بن مروان أنه قال : « أضر بالوليد حبنا له فلم نوجهه إلى البادية » ؛ وينقل لنا الأستاذ مصطفى صادق الرافعى فى كتابه ــ تاريخ آداب العرب جـ١ صـ٢٤٦ ــ أنه قيل للوليد يوماً : « إن العرب لا تحب أن يتولى عليها إلا من يحسن كلامها ، فجمع أهل النحو ودخل بيتاً ليتعلم فيه فأقام ستة أشهر ثم خرج أجهل من يوم دخل » وقد أكثر الرواة من ذكر أخطائه فى العربية : من ذلك قدامه فى كتابه ــ نقد النثر صـ١٢٣ والمبرد فى كتابه ــ الكامل صـ١٩٠ ــ .

عنه في ذلك الروايات اللاذعة وحتى بعد توليه الخلافة يترك للسانه الحرية فينزلق إلى الأخطاء في القرآن على مسمع من جمهور المسلمين .

ثم إذا انتقلنا إلى ميدان الطبقة المثقفة التي أخذت على نفسها التبحر في الأبحاث العلمية والتدوين في النواحي الثقافية الإسلامية وجدنا نفس هذه الأخطاء أو قريباً منها ، وقد رأينا صورة من ذلك عند أبي حنيفة ، ثم هاهو ذا الفقيه العالم الإمام مالك بن أنس لا يتحرج من ارتكاب بعض الأخطاء العربية حتى إن الأصمعي ليدهش من صدور هذه الأخطاء عنه ومكانته في العلم لا تكاد تجارى ، فقد روى عنه أنه قال : « أي مطراً » بدل « أي مطر » ، وحينما عيب عليه ذلك أخذ يتلمس لنفسه الأعذار فطوراً يهون من شأن اللحن مقتدياً في ذلك بأستاذه ربيعه بن عبد الرحمن ، فقيه أهل المدينة ، المشهور بربيعة الرأى الذى كان يلحن في الإعراب أيضاً ، إذ كان يقول : « بخيراً » بدل « بخير » وطوراً يظهر بمظهر العالم الزاهد الذى يرغب عن هذه العلوم الدنيوية ويولى وجهه شطر الحقيقة التي يبحث عنها المتصوف .

* * * * *

وهناك ميدان علمي آخر هو أولى الميادين الثقافية بالمحافظة على الفصحى ، ورعاية سلامة الإعراب ؛ ذلك هو ميدان القراءات . ومع هذا فلم يسلم أيضاً هذا الميدان من اللحن .

وها نحن أولاء نورد بعض الأمثلة من لحن القراء جرياً على طريقتنا فى هذا الموضوع دون مناقشة . إذ أن غرضنا فى هذه النقطة فقط هو ترسم اللحن فى انتشاره وفى موضوعات البحث العلمية ، سواء أكان ذلك اللحن معتبراً من الأخطاء اللغوية فى نظر العلماء جميعاً ، أم هو خطأ فى نظر البعض دون البعض الآخر .

أما مناقشتنا لهذه الآراء وخصوصًا ما ادعاه النحاة من لحن القراء فسيكون لها مكان آخر ، وذلك عندما نتكلم عن النحاة ومنهجهم فى البحث وموقفهم من القواعد النحوية التى وضعوها عن طريق القياس أو الاستنباط . ومن لحن القراء فى نظر النحاة ما صنعه حمزة فى قراءته للآية الأولى من سورة النساء « ... واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحامِ » إذ قرأ بجر الأرحام على أنه معطوف على الضمير المجرور قبله ، لا بالنصب عطفاً على « الله » .

وإليكم ما يذكره بهذه المناسبة أبو شامة فى شرح الشاطبية [1] قرأ حمزة « والأرحام » بالجر . قال الزجاج : القراءة الجيدة نصب « الأرحام » فأما الخفض فخطأ فى العربية ؛ فإن إجماع النحويين أنه يقبح أن يعطف باسم ظاهر على اسم مضمر فى حال الخفض إلا بإظهار الخافض . وكذلك نجد الزجاج فى موقف آخر يتهم القراء باللحن فى كتاب الله ، وذلك فى الآية

---

(1) « إبراز المعانى ص ٢٨٣ (حموده ص ١٣٠) »

« ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ، ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك »[1].

وهنا نجد القراء قد اختلفوا فى النطق بالهاء من قوله تعالى : « يؤده » فالجمهور يقرؤها بالكسر مع وصلها بياء ، وقالون يقرؤها باختلاس الحركة ، وأما أبو عمرو وأبو بكر وحمزه والأعمش فإنهم يسكنون الهاء . فيقول أبو إسحق الزجاج فى هذا ما نصه[2] « وهذا الإسكان الذى روى عن هؤلاء غلط ، لأن الهاء لا ينبغى أن تجزم ؛ وإذا لم تجزم فلا يجوز أن تسكن فى الوصل » .

وكذلك نجد خلافاً بين القراء فى قراءة (معايش) فى قوله تعالى[3] « ولقد مكناكم فى الأرض ، وجعلنا لكم فيها معايش . » فالجمهور يقرؤها (معايش) بالياء ؛ والأعرج ، وزيد بن على ، والأعمش ، وخارجة عن نافع ، وابن عامر فى رواية يقرءونها بالهمزة .

والنحاة وفق مقاييسهم النحوية يقررون أن القراءة بالياء قياسية ، وبالهمزة غير قياسية . ثم يقول الزجاج[4] ما نصه : (جميع نحاة البصرة

---

(1) سورة آل عمران : ٧٥

(2) البحر المحيط جـ٢ ص٤٩٩

(3) سورة الأعراف : ١٠

(4) البحر المحيط جـ٤ ص ٢٧١

تزعم أن همزها خطأ ، ولا أعلم لها وجهاً إلا التشبيه بصحيفة وصحائف ، ولا ينبغي التعويل على هذه القراءة) . وصدى هذا النقاش فى نفس الآية يوجد فى حاشية الشهاب على البيضاوى ، ولكن الذى يتولى مهمة تخطئة القراء هو نحوى آخر ، أبو عثمان المازنى ، وإليكم ما يقوله الشهاب :

(وروى عن نافع « معائش » بالهمز ، فقال النحويون : إنه غلط ، لأنه لا يهمز عندهم بعد ألف الجمع إلا الياء الزائدة كصحيفة وصحائف ، وأما معايش : فياؤه أصلية ، هى عين الكلمة ، لأنها من العيش ؛ حتى قال أبو عثمان المازنى : إن نافعاً رحمه الله تعالى لم يكن يدرى العربية [1] .)

ويرى سيبويه أيضاً أن قراءة الهمزة فى هذه الآية غلط . [2]

ونكتفى بهذا القدر من الأمثلة لنثبت وجود اللحن فى وسط القراء سواء صحت دعوة النحاة فى هذا أم ردت .

* * * * *

بقى علينا أن ننظر فى وسط الشعراء ورجال الأدب . وهؤلاء لم يسلموا أيضاً من تعثر اللسان ، ومن تعرضهم للنقد اللاذع بسبب اللحن ، سواء من كان منهم عربياً خالصاً ، أم من دخل فى الأسرة العربية من الأجانب وجارى أصحاب اللغة فى الشعر والأدب .

---

(1) حاشية الشهاب على البيضاوى جـ٤ صـ١٥٢

(2) القراءات واللهجات للاستاذ عبد الوهاب حموده صـ١٤٣

فمن الفريق الأول نجد الفرزدق يهجو عبدالله بن أبي إسحق الحضرمي ، وهو من الموالي بهذا البيت :

فلو كان عبد الله مولى هجوته * ولكن عبد الله مولى مواليا

وكان هذا الهجاء بسبب تخطئة ابن أبي اسحاق للفرزدق نفسه في بيت آخر هو :

على عمائمنا تلقى وأرحلنا * على زواحف تزجى مخها رير

حيث يزعم عبدالله أن الفرزدق هنا قد خالف قواعد العربية . ويهمنا بيت الهجاء في ابن أبي إسحق إذ يقول الفرزدق (مواليا) وصواب اللغة أن يقول (موال) [1]

ومن الفريق الثاني نجد زياد الأعجم المتوفى سنة ١٠٠ هـ ، وكان فارسي الأصل ولكنه استطاع أن ينبغ في اللغة العربية نبوغاً يجعله يجاري فيها أهل البدو وشعراء العرب الخلص : ولذا فقد اتخذه المهلب بن أبي صفره شاعراً في سدته . وبالرغم من تمكن زياد في اللغة والشعر فقد روى له هذا البيت [2]

إذا قلت قد أقبلت أدبرت * كمن ليس غاد ولا رائح ، وكان يجب أن يقول : (كمن ليس غادياً ولا رائحاً)

---

(١) طبقات الشعر لابن سلام ص ٧ ، سيبويه حـ ٢ ص ٢٥٩

(٢) أنظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢٥٩

لو استعرضنا ما ذكرناه بصدد الكلام عن اللحن ومبلغ انتشاره لرأينا أنه تسرب إلى أغلب الأوساط العربية . فقد لمسنا آثاره فيما بين الطبقة الحاكمة ، وضربنا لذلك مثلا عبيد الله بن زياد ، والوليد بن عبد الملك وفيما بين طبقة الفقهاء وضربنا لذلك مثلا أبا حنيفة وما لكاً وأستاذه ربيعة الرأى ، وفيما بين طبقة القراء وضربنا لذلك مثلاً حمزة ، وأبا عمر ، وأبا بكر والأعمش ، والأعرج ، وزيداً ابن على ، ونافعاً ، وابن عامر ، ثم فيما بين طبقة الشعراء ، وضربنا لذلك مثلاً الفرزدق ، وزياد الاعجم . وكنا نستطيع أن نمضى أبعد من ذلك ، ولكننا حرصنا على أن نأخذ نموذجاً فى أبسط صورة لهذا اللحن فى مختلف البيئات العربية مع البعد عن الاستطراد . وقد تبين لنا أن ظاهرة اللحن خاضعة فى انتشاره إلى عوامل اجتماعية أشرنا إليها فيما مضى مع شىء من التفصيل .

وعلى حسب هذه العوامل قد افترضنا وجود اللحن فى زمن الجاهلية قبل الإسلام ، وإن لم نعثر على أدلة مادية تثبت وجوده فى صوره المختلفة فيما عدا هذه اللكنة البسيطة التى أثرت عن صهيب وسحيم ، وهى ليست فى الواقع سوى نتيجة لضعف طبيعى عند هذين الأجنبيين بالنسبة لمخارج الحروف ، وعجزهما عن النطق العربى الصحيح .

وإذا ما جئنا إلى صدر الإسلام وجدنا آثاره المادية ولمسنا صوراً منه . ولكن كل الظروف تدل على أن هذا اللحن كان فى دائرة محدودة ؛ ولم

يصل بعد إلى درجة يخشى منها على الآثار العربيـــة . أما فى عصر الدولة الأموية فيدخل اللحن فى مرحلة جديدة ؛ وتظهر آثاره فى أهم الأوساط بل ويتسرب كما رأينا إلى الطبقة العليا من العرب .

وليس من السهل أن نتتبع اللحن فى عصر الدولة العباسية ؛ فصوره عديدة ؛ وأمثلته لا تحصى . بل إن أمر اللحن فى أيام هذه الدولة يطغى مع مرور الزمن حتى يصل إلى تهديد العربية الفصحى ؛ ثم يتمكن فى النهاية من خلق اللغة الدارجة التى لا تهتم بقواعد النحو ولا تقيم لعـــلامات الإعراب وزناً .

ومن هذا يتبين كيف نشأ اللحن فى العربية ، وكيف تعددت صوره والأســباب التى دعت إلى ذلك ؛ والمراحل التى مر بها ؛ والذى يهمنا ملاحظته هو أن ظاهرة اللحن فى العربيـة استتبعت ظاهرة أخرى يمكن أن نعتبرها رد فعل للظاهرة الأولى ، ويمكن أن نسمى هذه الظاهرة بحركة تنقية اللغة والمحافظة على سلامتها . وأصحاب هذه الظاهرة العكسية موجودون كذلك منذ وجود اللحن ؛ إذ أن ذلك يكاد يكون طبيعياً عند أصحاب كل لغة يعتزون بها ويحرصون على سلامتها ؛ غير أننا بالنسبة للعصر الجاهلى نلجأ إلى طريق الافتراض الذى تؤيده ملابسات كثيرة وأسباب عدة ، وما ذلك إلا لأن الدليل المادى يعوزنا هنا أيضاً كما أعوزنا بالنسبة لإثبات اللحن . ولكن إذا جئنا إلى صدر الإسلام رأينا الرسول صلى الله عليه

وسلم على رأس أصحاب هذه الحركة ، ثم يأتى من بعده عمر صاحب الذوق الرفيع والملكة العظيمة فى فهم اللغة وإدراك دقائقها وأسرارها البلاغية . وقد رأينا له فى ذلك موقفين : موقفه مع كاتب أبى موسى الأشعرى ، ثم موقفه مع أولئك الذين كانوا يتعلمون الرماية . ولقد ورث ابن عمر عن أبيه هذه النزعة فكان شديد الحرص على سلامة اللغة عند أبنائه وكان يأخذهم بالعنف والشدة حينما يبدو له خطأ منهم .

ثم إننا رأينا فيما بعد كيف كان حرص الخلفاء والولاة على أولادهم وكيف كان ذلك الحرص يدفعهم إلى إرسال أولادهم إلى البادية يعيشون مع العرب الخلص حتى تهرت أشداقهم ، ويستقيم منطقهم فلا يرتكبوا ما يرتكبه سكان المدن من الأخطاء .

وإذا ما وصلنا إلى عصر الدولة الأموية وجدنا حركة التنقية فى اللغة تمتد بقدر امتداد أمر اللحن فيها ، ولم يكن ذلك سوى جزء من سياستها العامة التى نهجتها أيام حكمها ، وتتمثل هذه السياسة بوجه عام فى التمسك بكل ما هو عربى والنفور من كل ما هو غريب عن العرب ، وكانت اللغة بطبيعة الحال أهم مظهر يتناوله ذلك الحرص ، ولهذا فإننا نرى أصحاب حركة التنقية فى عدد غير يسير ، ويتناول هذا العدد بعض الخلفاء والولاة والعلماء ، فمن الخلفاء نجد عبد الملك بن مروان ، وعمر بن عبد العزيز ، ومن الولاة نجد الحجاج بن يوسف ، وزياد بن أبيه ، ومن رجال العلم نجد أبا الأسود الدؤلى الذى خطا فى النحو العربى أول خطوة عملية .

وفى خلال هذا العصر أيضاً ينشأ جيل أغلبه من غير العرب فيأخذ

نفسه بدراسة اللغة العربية ، ثم يتحمل عبء حركة التنقية فيسير بها إلى غاية بعيدة ؛ وربما دفعه ذلك إلى ارتكاب الشطط من الأمر فى بعض الأحيان ونعنى بهذا الجيل رجال النحو الذين أسسوا هذا العلم ونهضوا به ، وكان لهم فى العناية باللغة العربية والحرص على سلامتها شأن كبير .

وليس لنا أن نفيض الآن فى مجهود هؤلاء النحاة ، ولا فى مدى تمسكهم بقواعدهم النحوية ، فإننا سنفصل ذلك بعد قليل حينما نتكلم عن النحو بمعناه العلمى . وحسبنا أن نعرف فقط أن هؤلاء النحاة قد بدأوا دورهم فى حركة التنقية أيام الدولة الأموية . بجانب الخلفاء والولاة ، ثم استمروا كذلك حتى عهد الدولة العباسية حيث ألقى عليهم وحدهم تقريباً عبء تلك الحركة فكانوا بمثابة الرقباء الحريصين عليها بالرغم مما كانو يتسمون به من تزمت وتعسف .

ولقد كان اهتمام هؤلاء النحاة بتلك المهمة التى أخذوا أنفسهم بها يتسع بقدر اتساع دائرة اللحن وتفشيه فى الأوساط الإدارية والثقافية ولكنه بالرغم من ذلك ظل سلبياً ، فلم يوقف اللحن عند حد ولم يمنع الفصحى من أن تتضاءل وتنطوى على نفسها فى أوساط ضيقة وتترك بذلك الميدان للغة دارجة ؛ لا تحترم ضوابط النحو ولا تقيم لعلامات الاعراب وزناً ، بل تنشأ وتنمو على حسابها .

وبعد فيستطيع القارىء أن يلاحظ مما قدمناه من الكلام عن اللحن

ونشأته وخطره أن هذا الداء الذى أصاب اللغة العربية لم يكن خاصاً بها وإنما هو داء تتعرض له كل اللغات على الاطلاق وخصوصاً ما كان منها معرباً ، ويستطيع أن يلاحظ كذلك أن أصحاب هذه اللغات المعربة لم يقفوا مكتوفى الأيدى أمام هذا الداء ، بل اتخذوا من العدة ما يكفل سلامة اللغة ويبعد عنها ذلك الخطر الذى يتهددها ما بين حين وآخر . وإذن فلم تكن اللغة العربية من هذه الناحية أيضاً إلا خاضعة لنفس القوانين العامة التى تخضع لها كل اللغات المعربة .

وقد كان هذا البحث بمثابة تمهيد ضرورى للكلام عن النحو العربى ونشأته ، وقد استلزم هذا منا أن نتعرض لكثير من مسائل اللحن ، وأن نلجأ إلى المقارنة بين الأخطاء اللغوية فى العربية وفى غيرها من اللغات الأخرى ، وأن نحدد وجهة نظرنا بالضبط فيما يختص باللحن الخطير غير ملقين بالاً لآراء القدماء وترددهم فى مسميات هذه الأخطاء اللغوية المختلفة ، ونظن أننا قد استطعنا الوصول فى كل ذلك الى نتائج ملموسه ، سيتبين القارىء بعد قليل أثرها ومداها .

نشأة النحو العربي

والأسباب التي دعت إليه

لا يزال الباحث في حيرة من أمر النحو العربي ، ومن الظروف التي لابست نشأته ، فلا القدماء أماطوا اللثام بطريقة معقولة عن هذا الغموض الذي لا نزال نحس به ونتعثر في دياجيه ، ولا المحدثون استطاعوا أن يتناولوا هذه المسألة بطريقة جدية فيتعمقوا فيها بعد أن يمهدوا لها بالدراسة الواسعة والتفكير الحر والمنطق السليم . وها نحن أولاء نتساءل لماذا لم يصاحب هذا الغموض غير النحو من سائر العلوم الإسلامية الأخرى كعلم القراءة والفقه والتفسير ؟

وربما أجيب عن هذا السؤال بأن هذه العلوم لا سبيل إلى تطرق الشك في أوليتها ونشأتها بعد الإسلام ، إذ أنها تستمد أسسها من القرآن والسنة ، وهما أهم أصلين من الأصول الإسلامية . أما النحو فصلته باللغة وثيقة ، فاللغة قد وجدت وكملت قبل أن يوجد الإسلام . ولكن ينبغي أن نضيف إلى هذا اعتباراً آخر ، ذلك أنه فيما يختص بالنحو قد تدخلت عوامل جديدة أهمها : صفة القداسة التي تمنح للغة العربية حرصاً من القدماء على الرفع من

شأنها مادامت قد أصبحت لغة التنزيل والإسلام . هذه القداسة قد جعلتهم يفترضون أنها توقيفية ، وأنها أشرف اللغات على الإطلاق ؛ وأنها كانت صحيحة الإعراب لا يأتيها اللحن ولا الخطأ من بين يديها ولا خلفها بل إن هذه الرغبة نفسها قد دفعتهم إلى تقرير ما هو أشد من ذلك كله ، فقد قالوا إن اللغة العربية كانت لغة آدم عليه السلام فى الجنة ، واستمر يتحدث بها ويتفاهم بواسطتها حتى كانت منه الخطيئة التى ارتكبها بعصيان أمر ربه وعلى أثر ذلك قد انتزعت منه اللغة العربية انتزاعاً ، وهكذا بين لحظة وأخرى نسى اللغة التى كان يعبر بها عن رغباته ويشرح بها ضرورياته ؛ وبقى كذلك حتى تاب إلى ربه وحينئذ عادت إليه اللغة العربية وتقمصته من جديد فأخذ يتحدث بها كأن لم يكن منه نسيان فيما مضى ، أمر عجيب ، وتصوير أعجب !!!.

وعلى هذا فقد تسرب إلى بعض العلماء قديماً أن نحو هذه اللغة لابد وأن يكون كذلك توقيفياً . فيزعم ابن فارس أن علم النحو فى اللغة العربية قديم بقدمها ومنزل كتنزيلها ، وأنه كان معروفاً ومدروساً من أيام جرهم ، ثم تنوسيت قواعده مع استمرار العمل به حتى جاء أبو الأسود الدؤلى وشعر بالحاجة إليه فأحيا ما اندثر منه وعمل على تعليمه الناس من جديد [1].

---

(1) ـ انظر تاريخ آداب العرب للرافعى ج ١ ص ٢٤١

وأظننا فى غير حاجة إلى أن نقف أمام هذه الرواية وأمثالها لنقدها، أو لتفنيدها، وخصوصاً وأن بعض القدماء أنفسهم قد عز عليهم تصورها، ورفضوا قبولها. وقد كان هذا الرفض فى أغلب الأحيان سلبياً، إذ أنهم لم يرجعوا فى أولية الوضع فى النحو إلى ما قبل الإمام على بن أبى طالب.

ويضاف إلى هذا عامل آخر وهو إن كان يعتبر فى الدرجة الثانية بالنسبة لمعنى القداسة إلا أنه جدير بالملاحظة، ذلك هو الرغبة البينة فى إسناد هذا العلم إلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب رأس الشيعة. ولا يبعد أن يكون هذا نوعاً من الدعاية السياسية والدينية فى وقت واحد.

هذه الأمور مجتمعة قد كست المسألة غموضاً؛ وزادت الأمر اضطراباً وجعلتنا نقف من نشأة النحو العربى موقف المتردد فى قبول هذه الروايات العديدة فى نشأة النحو، ومن أسس قواعده، ورسم ضوابطه الأولى، بالرغم مما نلاحظه من شبه إجماع للرواة فى إسناد هذا العلم إلى على ابن أبى طالب، وعنه أخذه أبو الأسود الدؤلى. فإن الإجماع أو شبهه فى هذه المسألة ينبغى أن لا يكون له من الأهمية مثل الإجماع فى بعض المسائل الدينية، إذ يجوز أن يكون مصدر هذا الإجماع رواية فردية، ثم تناقلها الخلف عن السلف حتى وصلت الينا فى شبه إجماع.

كل هذه الاعتبارات ينبغى أن تدخل فى حسابنا، وأن تكون موضع ملاحظتنا حينما نبحث نشأة النحو العربى. وما دام رائدنا الأول فى الدرس

هو العقل ، به نتفهم الروايات ، وبه نحكم عليها ولا ندعها تفرض نفسها علينا ، وعليه نعتمد فى التحليل والاستنتاج . نقول ما دام رائدنا الأول هو العقل فقد تكون رواية فردية فى زاوية مهجورة من زوايا الكتب أولى بالعناية ؛ وأجدر بالاهتمام من شبه الإجماع الذى يطالعنا فى أغلب الكتب ، وفى المكان البارز منها .

إن الأسباب التى يمكن أن تكون قد دعت إلى وضع النحو العربى هى فى جملتها نفس الأسباب التى دعت إلى نشأة العلوم الإسلامية الأخرى فى عصر الدوله الأموية ؛ حافز دينى أولاً ؛ ثم ظروف اجتماعية ثانياً ، وسنفصل الكلام عن هذين السببين بعد قليل .

وهكذا لو نظرنا فى نشأة علم القراءات أو الفقه أو الرواية أو التفسير لما رأينا واحداً منها يخرج عن هذه الاعتبارات فليس معقولاً إذن أن يشذ وضع النحو اللهم إلا فى جزئيات لا تتناول جوهر المسألة وإنما تمس العرض كالاستعانة فى ذلك ببعض ما عرف عند الأجانب ، وكاتخاذ خطوة عملية فيها قبل أن يخطو العلماء المسلمون الآخرون فى ميادين علمهم .

وقبل أن نأتى على ذلك بالتفصيل نحب أن نستعرض فى صورة عاجلة نشأة العلوم الاسلامية الأولى ليكون ذلك بمثابة التمهيد لكلامنا عن النحو الذى لا ينبغى أن ينظر إليه كحلقة مفردة ، الشىء الذى يفسد علينا فهم كثير من مسائله ؛ نتيجة الأفق الضيق الذى نحصر فيه أنفسنا ؛ ولا

نستطيع أن نخرج عنه إما جهلاً ؛ وللجهل عذره ، وإما تهيباً ؛ وفى ذلك الخطر الكبير .

علم القراءات :

بعد أن جمع الخليفة عثمان أمر المسلمين على نص واحد من المصحف مدفوعاً فى ذلك بما بلغه من اختلاف الصحابة فى قراءة القرآن نسخ منه أربع نسخ فبعث بواحدة إلى العراق وبأخرى إلى الشام وبثالثة إلى مصر وأبقى الرابعة فى المدينة ، ولم يمض زمن طويل على هذا الصنيع حتى أصبح لأهل كل مصر من هذه الأمصار قراءة خاصة يتبعون فيها واحداً من القراء توفرت فيه الثقة ، وهكذا تعددت القراءات بتعدد القراء وأصبحت لكل قارىء طريقة فى الأداء ، والمتواتر من هذه القراءات سبع ، تنسب إلى من اشتهر بروايتها[1] والذى يهمنا من ذلك أن هذه القراءات تنوقلت بالرواية

---

[1] ـ هذا هو الرأى المجمع عليه وقد يعدها بعضهم عشراً ، وهاهم القراء السبعة كما يعدهم صاحب الفهرست ص ٤٢ طبعة مصطفى محمد .

والذى نستطيع الآن أن نلاحظه بوجه عام على هؤلاء القراء هو أن أغلبيتهم من الموالى الذين وضعوا أنفسهم وما يملكون من معارف ، وما يتصفون به من علم وذكاء فى خدمة الدين الإسلامى فكان لهم من أجل ذلك أثر عظيم .

أولا :ـ أبو عمرو بن العلاء وهو عربى من تميم وقد توفى بالكوفة

ولم تأخذ شكلها العلمي المنظم إلا في القرن الرابع الهجري حيث نجد أول كتاب دون في هذا العلم ، وهو كتاب الإيضاح في الوقف والابتداء لمحمد بن قاسم الأنباري المتوفى سنة ٣٢٨ هـ ، ومن هذا الكتاب توجد نسخة

سنة ١٥٥ هـ ، ولم تكن شهرته في اللغة العربية بأقل من شهرته في القراءة للقرآن ، وقد أخذ عنه يونس بن حبيب كما أخذ عنه كثير من مشايخ البصريين في الطبقة الرابعة منهم .

ثانياً :- نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم المدني المتوفى سنة ١٦٩ هـ بالمدينة ، ويروى الأصمعي عن نافع هذا أنه قال : « أصلي من أصفهان » وكان مولى جعونة بن شعوب الشجعي ، وقد عرف عنه أنه كان شديد السواد ، وأشهر من روى عن نافع محمد بن إسحق المسيبي .

ثالثاً :- عبد الله بن كثير ويكنى أبا سعيد ويقال أبا بكر ؛ وهو من قراء مكة في الطبقة الثانية ، وهو مولى عمرو بن علقمة الكناني ، وكان من أبناء الفرس الذين بعث بهم كسرى بالسفن إلى اليمن لطرد الأحباش منها . وقد توفي عبد الله بن كثير سنة ١٢٠ هـ بمكة ودفن فيها بعد أن صارت له شهرة عظيمة بأرض الحجاز . ويذكر ابن خلكان جـ ١ صـ ٢٥٠ ، أن ابن كثير كان أسمر اللون طويل القامة جسيماً أشهل العينين ، أبيض الرأس واللحية ، وكان يغير شيبته بالحناء . وأشهر من روى عنه إسماعيل بن عبد الله ابن قسطنطين مولى ميسرة مولى العاص بن هشام .

رابعاً :- عاصم بن بهدله ويكنى أبا بكر بن أبي النجود . توفي بالكوفة سنة ١٢٨ هـ ، وهو مولى بني جذيمة ، وقد أخذ القراءة عن أبي عبد الرحمن

خطية فى دار الكتب المصرية وثانية فى المتحف البريطانى وثالثة فى مكتبة كوبريللى فى الآستانة ، ومعنى هذا أن علم القراءة بدأ فى خلافة عثمان واستمر يمارس مشافهة دون تدوين حتى القرن الرابع الهجرى .

السلمى : وزرّ بن حبيش . وقد روى عن عاصم بن بهدله أبو بكر بن عياش مولى واصل بن حيان الأحدب .

خامساً :- عبد الله بن عامر اليحصبي وكنيته أبو عمران ؛ ويقال إنه أخذ القرآن عن عثمان بن عفان وقرأ عليه ، ويعتبر فى الدرجة الأولى من التابعين ؛ وهو من أهل دمشق وقد توفى بها سنة ١١٨ﻫ . وقد روى عن ابن عامر كثير ، منهم يحي بن الحارث الذمارى ، وإسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر وسعيد بن عبد العزيز .

سادساً :- حمزه بن حبيب الزيات ، وهو مولى آل عكرمة بن ربعى التيمى ، وكان يشتغل بالتجارة ما بين الكوفة وحلوان العراق ، فكان يجلب الزيت من الكوفة إلى حلوان ، ويحمل من حلوان الجبن والجوز إلى الكوفة وهو فى الطبقة الرابعة من الكوفيين . وتوفى بحلوان العراق سنة ١٥٦ .

سابعاً :- الكسائى النحوى ، على بن عبد الله بن بهمن بن فيروز وهو من أصل أعجمى ، قد نشأ بالكوفة وكان كثير الانتقال فى البلدان . قرأ على عبد الرحمن بن أبي ليلى وحمزة بن حبيب . وكان يقرىء الناس أولاً بقراءة حمزة ؛ وأخيراً فى خلافة هارون الرشيد اختار لنفسه قراءة أقرأ بها الناس وقد توفى بقرية من قرى الرى سنة ١٧٩ .

علم التفسير :ـ

اما التفسير فقد نشأ كذلك بسيطاً يقتصر على بعض الآيات التى غمض معناها أو تحتمل أوجهاً من التأويل ؛ وأول من تجمع الروايات على تفسيره القرآن هو ابن عباس المتوفى سنة ٦٨ ﻫ ؛ ولكن هذا العلم أيضاً قد استمر مشافهة حتى أواخر القرن الأول الهجرى ؛ ولم يعرف كتاب دون فى التفسير قبل الذى دونه مجاهد المتوفى سنة ١٠٤ ﻫ

وحتى ما دونه هذا العالم لم يوقف له على أثر حتى الآن ؛ ولكن يظن أن تدوينه فى التفسير ليس إلا تفسير ابن عباس قد وصل إليه بطريق الرواية ، ويؤيد هذا ما وجد فى دار الكتب المصرية من نسخ فى التفسير منسوبة إلى ابن عباس بينما مقدمة هذه النسخ تشير إلى أن هذا التفسير لم يدون فى أيام صاحبه وإنما نقل بالرواية ودون فى عهد متأخر ، وقد اطلع على هذه النسخ وناقش هذه المسألة الأستاذ جورجى زيدان [1] وقد انتهى فيها إلى هذا الرأى الذى ذكرناه .

---

[1] تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ٢٠٥ . ولمن يريد التوسع فى هذه المسألة ، والتأكد منها يرجع كذلك إلى ما كتبه صاحب الفهرست ص ٥٠ طبعة المطبعة الرحمانية بمصر ، تحت عنوان (تسمية الكتب المصنفة فى تفسير القرآن) .

ولقد خطا مجهود العلماء فى خدمة القرآن ودراساته خطوات واسعة ، حتى أصبحنا فى عصر ابن النديم نجد أن عدد الكتب التى ألفت فى تفسير القرآن فقط قد بلغت خمسة وأربعين كتاباً ؛ وهذا عدا ما ألف فى معانى القرآن ومؤلفه ومجازه ، ثم فى غريبه ، وقراءاته ، ونقطه وشكله ونزوله ، وناسخه ومنسوخه وأحكامه ، و تنزيله .... الخ [1]

علم الحديث :

وأما الحديث فكان أول أمره مقصوراً فى روايته على الصحابة الذين سمعوا نصه من الرسول ولم يكن هناك مجال لتحريفه أو للإضافة إليه ، ولكن بعد الفتنة الكبرى التى أصابت المسلمين بمقتل عثمان نشط الحديث نشاطاً غير معهود إذ استغلته أحزاب الأمة العربية لأغراض سياسية ، فبدأ دعاة كل حزب يضعون من الأحاديث ما يبرر مذهبهم ، وتكاثر ذلك مع الزمن حتى أصبح من غير اليسير تمييز الصحيح من الباطل وهنا اضطر علماء الإسلام إلى التفكير الجدى فى وضع أسس هذا العلم وضوابط الرواية لكى يمكن التمييز بين الأحاديث الصحيحة والضعيفة والمختلقة ، ومع هذا فقد ظل هذا المجهود العلمى فى هذا الميدان يتناقل مشافهة طول عصر الدولة الأموية ، ولم يعرف من دون فيه قبل الإمام

---

(1) الفهرست لابن النديم ص ٥٠ إلى ٥٨ ، حيث يوجد ثبت لكل الكتب المؤلفة فى هذه الموضوعات .

مالك بن أنس التيمى القرشى المتوفى سنة ١٧٩ هـ ، وكتاب هذا المحدث الفقيه هو الموطأ الذى جمعه ورتب أبوابه على حسب ترتيب أبواب الفقه ، ويعتبر الموطأ الثمرة الأولى لجمع هذا العلم وتطبيق ضوابط الرواية ، ومن بعده نضج هذا العلم نضوجاً سريعاً وجمعت فيه الكتب على أيدى الأئمة من المحدثين .

علم الفقه :

وأما الفقه فكانت أول مسائله تدور حول تعرف بعض الأحكام الدينية وتفهمها ، وكان الرسول بطبيعة مركزه أول من يستفتى فى ذلك . وحينما انتقل إلى جوار ربه قام الخلفاء الراشدون وغيرهم من الصحابة بهذه المهمة ، وتلك هى النواة الأولى للفقه فى الإسلام ، غير أن طبيعة المجتمع الإسلامى فى أول الأمر لم تكن فى حاجة كبيرة إلى غير ما تصرح به نصوص الكتاب والسنه . ولكن حينما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية وتشعبت أمور المجتمع وتعقدت المسائل الدينية اشتدت الحاجة إلى الفقه والفقهاء ليرجع إليهم فى شئون التولية ، والعزل ؛ والقتل ، والعفو ، وغير ذلك مما يمس الدين ويهم المسلمين ؛ ومع هذا فقد استمر الفقه كغيره من العلوم الإسلامية يدرس ويتفهم عن طريق المشافهة والرواية طول العصر الأموى ؛ ولم يعرف فيه نظام التدوين والتأليف إلا بعد أن تخصص له العلماء ونبغ فيه الأئمة الأربعة فى عهد الخلفاء العباسيين : الإمام مالك ٩٥ ـ ١٧٩ هـ ، والإمام أبو حنيفة ٨٠ ـ ١٥٠ هـ ، والإمام الشافعى

١٥٠ — ٢٠٤ هـ ؛ والإمام أحمد بن حنبل ١٦٤ — ٢٤١ هـ .

وإن من يدرس مبادىء الفقه الإسلامى ، ويلاحظ ما طرأ عليه من تطور فى الاحكام بالنسبة لتطور الدولة والمجتمع لا يخامره شك فى أن مجهود الفقهاء فى الدولة الإسلامية لا يقل عن مجهود المشرعين ورجال القانون فى الدول الأخرى .

من هذا العرض السريع تتبين لنا ظروف نشأة العلوم الإسلامية الأولى وطريقة نموها وتطورها ولم يكن الحافز لتأسيسها وتدوينها رغبة مجردة للعلم من حيث هو ، وإنما هى ضرورة اجتماعية يحدوها حافز دينى . وعلى هذا الأساس نستطيع أن نتصور علم النحو ، غير أنه من المرجح أن تكون الضرورة فى التفكير فى وضع أسسه كانت أشد إلحاحاً من الضرورة فى وضع العلوم الأخرى ، إذ أن موضوع هذه العلوم كان إما تفهم نصوص الدين على حقيقتها وإما استنباط أحكامه كى يتمشى مع اتساع الدولة ورقى المجتمع ، ولم يكن هناك نوع من الفساد قد تسرب إلى طبيعة الإسلام وحالة المسلمين فى الزمن المبكر .

أما موضوع علم النحو فكان اللغة التى هى بمثابة الأداة للتعبير عن تلك الأحكام ، وقد رأينا كيف تعرضت هذه اللغة إلى الفساد منذ أيام الرسول صلى الله عليه وسلم .

وإذن يمكننا على ضوء ما تقدم من الكلام على اللحن ونشأته أن نقول

إن السبب المباشر فى وضع النحو هو تسرب الفساد إلى لسان العرب سواء أكان ذلك على يد الأجانب الذين دخلوا فى الإسلام أم على يد العرب الذين امتزجوا بهؤلاء الأجانب وخالطوهم ثم سلكوا فى الحياة الاجتماعية سبيلاً لم يكن معهوداً لهم من قبل ، وهناك سبب آخر يمكن إضافته إلى ذلك وهو الرغبة فى تعليم اللغة العربية وتيسير طرق الأداء بها بعد تفهمها وإدراك دقائقها وأسرارها بالنسبة للأجانب الذين انضووا تحت راية الدولة الإسلامية وعقولهم ناضجة وثقافتهم واسعة وتفكيرهم منطق سليم إلى حد بعيد ، وما كان ينقص هؤلاء سوى الإجادة فى أداة التعبير التى أصبحت ضرورية فى المجتمع الإسلامى بأسره لكى يستغلوا مواهبهم فى تأسيس الحضارة الإسلامية ؛ وينالوا حظهم من الحياة فى ذلك المجتمع العربى الجديد .

ولهذه الحالة أمثالها عند اليونانيين حينما اتسعت رقعـة الدولة وبدت لديهم الرغبة فى تعليم الشعوب المفتوحة لغتهم وفنهم وأدبهم ؛ فقد رأينا رجال السياسة فيهم يعتمدون إلى حد كبير على رجال اللغة اليونانية ؛ ورأينا هؤلاء اللغويين بدورهم ينهجون فى النحو نهجاً جديداً لا يقوم فقط على إدراك ما فى اللغة اليونانية من أسرار بلاغية ودقائق فنية ، ولكنهم يضعون بجانب هذا الضوابط والأسس التى تمهد السبيل لتعليم اللغة اليونانية بالنسبة للأجانب الذين كانوا يجدون من الحوافز العديدة ما يدفعهم إلى معرفة تلك اللغة .

وكذلك الشأن أيضاً عند الروم ؛ بل إننا لا نزال نجد نفس الطريقة ونفس الهدف ملاحظين عند أصحاب اللغات الحديثة الذين يطمعون فى نشر ثقافاتهم وإعلاء شأن معارفهم ؛ وليس ذلك فى الواقع سوى امتداد للقديم .

هذان ، فيما نعتقد ، هما السببان الرئيسيان فى نشأة النحو ، وإن كنا نعترف بأن هناك أسباباً أخرى ثانوية قد نشطت هذا البحث وحفزت المهتمين بشأنه إلى أن يخطوا فيه خطوات واسعة سريعة ، من ذلك ما كان يوجد بين الدارسين للعربية من تنافس على تلك المكانه الأدبية التى يتمتع بها كل من يبرز فى معرفته للعربية الصحيحة وخصوصاً فى زمن كان المشرفون فيه على أمور الدولة من أشد الناس حرصاً على اللغة السليمة وتمسكاً بكل ما هو عربى ، ومن ذلك أيضاً ما كان من منافسة بين مدرستى البصرة والكوفة على جمع اللغة والدراية بها ووضع الضوابط لتفهمها والإجادة فيها ، ونحن نعرف مبلغ تشجيع الخلفاء الأمويين لهاتين المدينتين رغبة منهم فى أن يحلا محل مكة والمدينة فى بيئة الحجاز وما كان لذلك من أثر فى شحذ الهمم ، والنهوض بالعلم والبحث وخصوصاً ما تناول النحو . والذى ينبغى أن نلاحظه هنا قبل أن ننتقل إلى الكلام عن نقطة أخرى هو أن السببين الرئيسيين لنشأة النحو كانا يتمشيان ضرورة مع طبيعة تطور النحو نفسه ، ومبلغ حاجة المجتمع إليه مثل ما حدث بالنسبة للعلوم الإسلامية .

الأخرى التى تقدمت الإشارة إليها ، بمعنى أن الخطوة الأولى فى وضع النحو ينبغى أن تكون بمثابة رد الفعل المباشر لتسرب اللحن إلى اللغة والقرآن على الخصوص ، فلا بد إذن أن يكون الغرض منها هو إبعاد هذا الخطر عن نصوص القرآن وهو جماع أمر الدين ، ولن يتأتى ذلك إلا بوضع ضوابط عملية تحفظ عليه نصوصه ، وتسهل على من لم يكن متمكناً من العربية قراءته . ثم تتعدد الأسباب الأخرى ويفتح أمام الباحثين ميدان جديد ، فيتوسعون فى الدرس بقدر ما تسمح لهم ظروف البحث نفسه ، وأخيراً ينتهون إلى الفكرة المجردة عن العلم من حيث هو لا من حيث كونه مقيداً باعتبارات أخرى .

وهنا نلمس عنصراً أجنبياً يدخل على العقلية العربية ، والتفكير عند علماء الإسلام ، فيكيف تلك العقلية تكييفاً جديداً وينظم هذا التفكير تنظيماً يخضع لمبادىء علمية ، لم تكن معروفة عند المسلمين من قبل ؛ ونعنى بذلك العنصر هو أثر الفلسفة اليونانية بصفة خاصة ؛ وليس لنا أن نفيض الآن فى هذا الأثر ، وفيما كان من نتائجه المباشرة على التفكير والعلم ؛ إذ أننا سنتحدث عنه فى شىء من التفصيل عندما نتعرض للكلام على الأثر الأجنبى فى النحو العربى .

وبعد فإننا نظن أن لهذا التمهيد أثره فيما سنتحدث عنه بعد قليل بالنسبة إلى تأريخ وضع النحو وتتبع المراحل التى مر بها حتى أصبح مهيئاً لأن يكون علماً ناضجاً .

من هو الواضع الأول

للنحو العربي ؟

إن الكلام على الواضع الأول للنحو العربي يستلزم منا كلمة يسيرة عن لفظ « النحو » وكيف أطلق هذا اللفظ على مجموعة القواعد التي تضبط اللغة وتنظم النطق بها . وهذا بطبيعة الحال يحتاج منا بدوره أن نرجع بعقولنا إلى الماضي لنعيش بها فترة في حياة العرب بعد أن توطدت دعائم الإسلام وثبتت قواعده في البيئات المفتوحه ، ونعني بتلك الفترة المدة المحصورة بين سنة ٤٠ هـ وأواخر القرن الأول الهجري . في هذه الفترة نلاحظ اتجاهاً جديداً من جانب العرب في تنظيم دولتهم تنظيماً داخلياً ، ولعل أهم مظهر لهذا الاتجاه هو العناية باللغة العربية ، وسواء أفهم ذلك عنهم تعصباً للغتهم أم لا ، فإن طبيعة موقفهم كمؤسسين لدولة إسلامية كانت تحتم عليهم ذلك الاتجاه وتلك العناية .

ولهذا يجب ألا نلقي بالاً إلى قول أولئك الذين ينسبون التعصب إلى العرب حينما أخذوا يفرضون لغتهم بطريق غير مباشر على الشعوب المفتوحة مقارنين صنيع العرب في هذا بما صنعه الرومان حينما غزوا بلاد اليونان

والشعوب الخاضعة لهم دون أن يتعرضوا إلى لغة هذه الشعوب ، بل تركوهم يمارسون التعليم ، ويديرون دفة الأمور الموكولة إليهم فى الدولة بلغتهم هم لا باللغة اللاتينية ، تقول يجب ألا نلق بالاً إلى رأى القائلين بهذا كما يجب أن نلاحظ الفارق البعيد بين الدولة الرومانية ، والدولة العربيـة ، فتلك لم تكن لها رسالة دينية تريد أداءها ، ولم يكن غرضها من الفتح سوى المطامع السياسية والاقتصادية بأوسع معانيها ، أما الدولة العربية فكان غرضها الأول هو نشر الدعوة الإسلامية وتنفيذ رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأهم أصل فى الإسلام هو القرآن ؛ مصدر الأحكام والقوانين ، وهو باللغة العربية وإذن فلم يكن عجيباً من العرب أن يوجهوا همهم إلى اللغة العربية يستعملونها فى إداراتهم ، ويمهدون السبل لتعلمها ، ويشجعون على النبوغ فيها ، وأهم عمل لهم فى هذا هو ترجمة الدواوين إلى اللغة العربيـة ، وكان ذلك أيام خـلافة عبد الملك بن مروان ، وأول ديوان نقل اليها هو ديوان الشام بلغة الروم وكان ذلك فى سنة ٨١ هـ ، ثم تلاه بعد ذلك ديوان أهل فارس بالفـارسية وديوان أهل مصر بالقبطية .

فى هذه الفترة التى تحدثنا عنها منذ قليل لم يكن العرب قد استقروا من الناحية الفكرية والعلمية كما استقروا من الناحية الإدارية والسياسية ، ولهذا فليس معقولاً أن نتصـور لدى العرب فى خـلال القـرن الأول من الهجرة علوماً منظمة ؛ لها قواعدها ، ومناهجها ، ومصطلحاتها .

وإذن فإنه لما ينبغي أن نلاحظه قبل كل شيء أن كلمة « النحو » التى تستعملها هنا لا نريد منها النحو بمعناه العلمى المتعارف ؛ فإن ذلك لم يكن إلا فى عصور متأخرة بعد أن سار هذا العلم خطوات فى سبيل التكوين والنمو . وأما فى مرحلته الأولى ، أو فى الفترة التى نتحدث عنه فيها ؛ أى فى زمن حياة على بن أبى طالب ، ومعاوية بن أبى سفيان ، وبعض من جاء بعدهما فكان يطلق عليه (العربية) . ولكننا نستعمل كلمة (النحو) استعمالاً مجازياً باعتبار ما يؤول إليه ، وذلك مثل صنيع سائر الرواة الذين استعملوا هذا الاصطلاح على ما عرف من هذا العلم أيام على أو أيام أبى الأسود الدؤلى . وستأتى بعد قليل فرصة نتحدث فيها عن أولئك الرواة ونذكر نص عباراتهم التى استعملوها فى نسبة هذا العلم إلى واضعيه .

وفى الحق أنه بعد أن هدانا البحث الطويل فى كتب اللغة ، والأدب ، والرواة ، والتاريخ إلى أن كلمة « نحو » لا يمكن أن يقصد منها فى عهد الدولة الأموية ؛ وصدر الدولة العباسية ذلك المعنى الاصطلاحى الذى نفهمه الآن ، نقول إنه بعد أن هدانا البحث إلى ذلك واطمأنت إليه نفسنا ، وقر به ضميرنا وجدنا فى ثنايا اطلاعنا ما زعزع هذه الطمأنينة ، وأزعج ثقتنا فيما وصلنا إليه من استنتاج ، ذلك أننا رأينا فى ترجمة يوحنا الإسكندرانى أنه كان قد اصطلح على تلقيبه بيحيى النحوى ، وكان يوحنا هذا من النصارى اليعقوبيين ، وكان يعيش أيام الرسول صلى الله عليه وسلم ثم أيام الخلفاء

الراشدين من بعده ، وقد أدرك فتح عمرو بن العاص لمصر وكانت له فى البلاد المصرية شهرة كبيرة حتى أن عمراً ذهب إليه ولقيه فأكرمه واعترف بمكانته . [1] وجود هذا الإصطلاح المبكر على تلك الشخصية النصرانية أيام أوائل رجال اللغة العربية أمثال أبى الأسود الدؤلى وعنبسة الفيل ، ونصر بن عاصم ، وعبد الرحمن بن هرمز وغيرهم جعلنا نتردد كثيراً فيما قررناه سابقاً بالرغم من أننا لم نعثر فيما اطلعنا عليه على مثل هذا الاصطلاح بالنسبة لهؤلاء العلماء اللغويين من العرب . وبينما نحن فى هذه الحيرة من الأمر ، وفى ذلك التردد المزعج إذ بنا نهتدى إلى تفسير لهذا الاصطلاح من قدامى رجال اللغة العربية أنفسهم يزيل عنا تلك الشبهة وينتشلنا من هذه الحيرة ، بل ويعيد إلى النفس حالة الطمأنينة الأولى ، ذلك أننا رأينا فى لسان العرب تحت كلمة ـ نحا ـ نصاً ينقله صاحب اللسان عن الأزهرى وهذا النص يفيد أن إطلاق كلمة ـ نحوى ـ كان مساوياً بالضبط لكلمة ـ لغوى ـ ؛ وإذن فلم يكن المقصود بالنحوى حينئذ الرجل الذى يدرس النحو ويؤلف فيه بالمعنى الذى نفهمه الآن من كلمة النحو . وإليكم نص عبارة الأزهرى ، كما ينقلها صاحب اللسان : [2] (نحا) الأزهرى ثبت عن أهل يونان فيما يذكر المترجمون العارفون بلسانهم ولغتهم إنهم يسمون علم الألفاظ

---

[1] ـ الفهرست لابن النديم ص ٣٥٦ — ٣٥٧

[2] ـ لسان العرب ج ٢٠ . ص ١٨١

والعنـاية بالبحث عنه نحواً ؛ ويقـولون كان فلان من النحويين ولذلك سمى يوحنا الإسكندرانى يحي النحوى للذى كان حصل له من المعرفة بلغة اليونانيين . . .)

وإذا وضح لنا الآن أن كلمة ـ نحو ـ بمعناها الاصطلاحى الذى نفهمه فى هذا العصر لم يكن موجوداً فى أيام الدولة الأموية وصدر الدولة العباسية يدلنا على ذلك زيادة على ما تقدم أننـا لا نجد كتاباً فى العربيـة حتى بعد سيبويه يسمى صراحة كتاب النحو ، فالكتابان المنسوبان إلى عيسى بن عمر البصرى المتوفى سنة ١٤٩هـ واللذان لم يصلنا منها أى أثر كانا يسميان المكمل والجامع [1] وحتى ما ألفه سيبويه نفسه فى هذا الميدان لم يكن يسمى بغير ـ الكتاب ـ

نقول إذا وضح لنا موقف لفظ ـ النحو ـ بمعناه الاصطلاحى فإنه لمما يوضح ما نحن فيه ويزيل جانباً من الغموض بالنسبة لنقطة حساسة سنتحدث عنها فيما بعد ـ الأثر الأجنبى فى النحو العربى ـ أن نذكر شيئاً عن معنى النحو فى اللغة مبينين أصل الاستعمال اللغوى ومصدر الكلمة ومشتقاتها .

---

[1] يذكر هذين الكتابين كثير من الرواة ، ومنهم ابن النديم ، وإليك نصه فى ص٦٣ من الفهرست : « أنشدنا القاضى أبو سعيد رحمه الله للخليل يذكر عيسى بن عمر والكتابين :

بطل النحـو جميعـاً كله ⋆ غير ما أحدث عيسى بن عمر
ذاك إكمال وهـــذا جامع ⋆ فهما للنـــاس شمس وقمر

وما نحن أولاء نلخص هنا ما ذكرته كتب المعاجم ورآه رجال اللغة متتبعين ، كدأبنا فى دراسة فقه اللغة ، المنهج الذى وضعناه وأشرنا إليه فيما مضى لمعرفة أصل الكلمة الحسى ثم تطور معناها . نرجح أن الأصل فى هذه المادة هو — الناحية — أى الجانب من الشىء ؛ ثم جاءت المشتقات من هذا الأصل فورد المنحاة لمسيل الماء إذا كان ملتوياً كما يقول ابن الأعرابى ويستشهد بهذا البيت :

وفى أيمانهم بيض رقاق ☆ كباقى السيل أصبح فى المناحى [1]

وأطلقوا أيضاً على بطن من الأزد لفظ — بنو نحو — ولعل ذلك كان منهم لانتحاء جانب خاص يقيمون فيه أو يلتزمونه ، ومن هذا الوادى أيضاً ما نجده من إطلاق العرب لفظ — أهل الأنحاء — على القوم البعداء الذين لم يكونوا بأقارب . ومن مشتقات هذه المادة نحا ينحو بمعنى اتجه يتجه أو قصد يقصد ، والصلة واضحة بين الناحية ، وهذا الفعل ؛ وقالوا أيضاً نحا الشىء ينحاه ، وينحوه إذا حرفه ، ويقول ابن السكيت من هذا سمى النحوى لأنه يحرف الكلام إلى وجوه الإعراب وقالوا أيضاً نحوت الشىء أنحُوه بمعنى أملته ؛ ومن المشتقات أيضاً رجل ناحٍ من قوم نحاةٍ بمعنى رجل نحوى من قوم نحويين ، والنسبة فى هذا كالنسبة فى لابن ، وتامر ، ولسنا نريد أن نمضى فى ذكر جميع المشتقات من هذه المادة

---

(1) انظر مادة — نحا — فى لسان العرب ج ٢٠ ص ١٨١ — ١٨٥

فكلها تدور حول هذا الأساس الذى رجحنا أصالته ، ولكن لا بد من بيان كيف انتقل هذا المعنى اللغوى إلى المعنى الاصطلاحى ، ومن ذلك يظهر جلياً أن هذا الاصطلاح فى إطلاق النحو على العلم المعروف والنحوى على العالم بقواعد النحو وضوابطه ، نقول من ذلك يظهر جلياً أن هذا الاصطلاح عربى خالص وليس فيه أى أثر أجنبى ؛ ونكتفى فى ذلك بعبارة صاحب اللسان فهى مختصرة واضحة ؛ يقول لسان العرب فى نفس المادة التى نحن بصددها : « والنحو إعراب الكلام العربى والنحو القصد والطريق يكون ظرفاً ويكون اسماً ، نحاه ينحوه ، وينحاه نحواً ، وانتحاه ، ونحو العربية منه إنما هو انتحاء سمت كلام العرب فى تصرفه من إعراب وغيره كالتثنية والجمع والتحقير والتكبير والإضافة والنسب وغير ذلك ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها فى الفصاحة فينطق بها وإن لم يكن منهم أو ان شذ بعضهم عنها رد به إليها وهو فى الأصل مصدر شائع أى نحوْت نحواً كقولك قصدت قصداً ثم خص به انتحاء هذا القبيل من العلم ، كما أن الفقه فى الأصل مصدر فقهت الشىء أى عرفته ثم خص به علم الشريعة من التحليل والتحريم ، وكما أن بيت الله عز وجل خص به الكعبه وإن كانت البيوت كلها لله عز وجل ، قال ابن سيده وله نظائر فى قصر ما كان شائعاً فى جنسه على أحد أنواعه وقد استعملته العرب ظرفاً وأصله المصدر »

ولنعد الآن الى الكلام عن الواضع للنحو ، وفى سبيل معرفة الواضع

الأول لهذا العلم عند العرب تعترضنا آراء عدة فيها كثير من التضارب والاختلاف ، ولذا فقد كانت فيما مضى ولا تزال حتى الآن مصدر كثير من التردد والشك عند من يريد درس هذه المسألة وتحقيقها . وسنحاول أن نسلك فى ذلك منهجاً أساسه تحكيم العقل ، والتمحيص العلمى ؛ ولهذا فإننا لن نرفض هذه الروايات المتضاربة التى تطالعنا فى ثنايا كتب الأدب واللغة ، ولكننا سنعتمد عليها إلى حد بعيد ، إذ أنها لا تزال المصدر الوحيد الذى نستطيع أن نعثر عليه حتى الآن غير أننا سندرسها ، ونتفهمها ، ثم نحاول أن نقلبها على المقاييس العقلية الناقدة رغبة فى أن نصل الى الحقيقة التى ننشدها . هذا ومن يطلع على ماكتبه رجال الأدب واللغة ، وما ذكره أهل الرواية فى هذا الصدد ينتهى إلى ما انتهينا إليه وهو أن من نسب إليهم وضع النحو العربى هم أربعة : على بن أبى طالب ؛ أبو الاسود الدؤلى ، نصر بن عاصم ، عبد الرحمن بن هرمز .

والذى يهمنا أن نلاحظه هو أن هؤلاء الأربعة قد وجدوا على وجه التقريب فى عصر واحد . فعلى قتل فى سنة ٤٠ هـ ، وأبو الاسود الدؤلى توفى فى سنة ٦٩ هـ . ، ونصر بن عاصم توفى فى سنة ٨٩ هـ . ، وعبد الرحمن بن هرمز توفى فى سنة ١١٧ هـ . ، وإذن فنستطيع أن نقول إن الرواة متفقون على أن اللبنة الأولى فى تأسيس النحو العربى كانت فى تلك الفترة المحصورة بين على بن أبى طالب وعبد الرحمن بن هرمز ، وهى

فترة لا تكاد تتجاوز سبعين سنة . والخلاف إنما هو فيمن وضع هذه اللبنة وقبل أن نناقش هذا الخلاف نحب أن نذكر أهم الرواة الذين أثر عنهم القول فى هذه المسألة :

نجد أولاً محمد بن سلام الجمحى فقد توفى سنة ٢٣٢ هـ . ، إذ يقول ما نصه : [1]

« وكان أول من أسس العربية ، وفتح بابها ، وأنهج سبيلها ، ووضع قياسها — أبو الأسود الدؤلى — » ثم قال « ووضع باب الفاعل والمفعول والمضاف وحروف الجر ، والرفع والنصب والجزم . . . » ثم قال « ثم كان بعدهم عبد الله بن أبى اسحق الحضرمى ، فكان أول من بعج النحو ومد القياس والعلل »

ثم يأتى من بعد ابن سلام أبو محمد مسلم بن قتيبة [2] وقد توفى سنة ٢٧٦ هـ . إذ يقول : « هو (أى أبو الأسود الدؤلى) يعد فى الشعراء ، والتابعين ، والمحدثين ، والنجلاء ، والمفاليج ، لأنه أول من عمل فى النحو كتاباً . »

وبعد ابن قتيبه نجد المبرد ، أبو العباس محمد بن يزيد المتوفى سنة ٢٨٥ هـ

---

(١) مقدمة كتابه طبقات الشعراء

(٢) الشعر والشعراء — ترجمة أبى الاسود جـ٢ صـ٧٠٧ (طبعة عيسى البابى الحلبى بالقاهرة — تحقيق وشرح احمد محمد شاكر)

إذ يقول [1] : « أول من وضع العربية ونقط المصاحف أبو الأسود وسئل عمن أرشده إلى الوضع فى النحو فقال : تلقيته عن على . »

وبعد أبى العباس المبرد نجد صاحب الفهرست ، محمد بن إسحق النديم المتوفى نحو سنة ٣٨٥ هـ ، فيتوسع فى الرواية وينقل عن آخرين إذ يقول : [2] (زعم أكثر العلماء أن النحو أخذ عن أبى الأسود الدؤلى ، وأن أبا الأسود أخذ ذلك عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه .

« وقال آخرون : رسم النحو نصر بن عاصم [3] الدؤلى ويقال الليثى . قرأت بخط أبى عبد الله بن مقلة عن ثعلب أنه قال : « روى ابن لهيعة عن أبى النضر قال : كان — عبد الرحمن بن هرمز — أول من وضع العربية .)

---

(1) ينقل هذه العبارة أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدى المتوفى سنة ٣٥٠ هـ ، ويصدرها بقوله (روى الثمالى عن الزجاج أن أبا العباس قال : . . .)

(2) ابن النديم — الفهرست صـ ٥٩

(3) يعرف نصر بن عاصم الليثى النحوى بأنه كان من أصحاب أبى الأسود الدؤلى ، ويروى الأستاذ الرافعى (تاريخ آداب العرب جـ١ صـ٢٩١ هامش) أن أول كتاب وضع فى النحو على التحقيق هو كتاب نصر بن عاصم (انظر ياقوت ترجمة بن عاصم) .

ثم ينقل لنا بعد هذا صاحب الفهرست كلاماً طويلاً عما رآه وشاهده بنفسه فى هذا الموضوع ، ونحن نؤثر أن نرويه بنصه ؛ إذ أن ذلك يلقى بعض الضوء على ما نحن بصدده . إذ أنه يحدثنا عما رآه بنفسه ، وكل من قرأ الفهرست لابن النديم ، أو قرأ عنه ، يدرك فى سهولة مكانته فى دقة الرواية ، وحرصه على تحرى الحقيقة ، ونزوعه إلى المقاييس العقلية وتحكيمها فى كل ما يقرأه أو يسمعه . هذه الحيطة من جانبه تستحق شيئاً من الثقة والاطمئنان من جانبنا بالنسبة لما يرويه . يقول ابن النديم[1] « كان بمدينة الحديثة رجل يقال له محمد بن الحسين ، يعرف بابن أبى بعره ، جماعة للكتب ، له خزانة لم أرَ لأحد مثلها كثرة تحتوى على قطعة من الكتب العربية فى النحو واللغة والأدب والكتب القديمة ، فلقيت هذا الرجل دفعات فأنس بى - وكان نفوراً ضنيناً بما عنده ، خائفاً عليها من بنى حمدان - فأخرج لى قمطراً كبيراً ، فيه نحو ثلاثمائة رطل ، جلود وصكاك وقرطاس مصرى ، وورق صينى ، وورق تهامى ، وجلود أدم وورق خراسانى ، فيها تعليقات عن العرب ، وقصائد مفردات من أشعارهم وشىء من النحو والحكايات والأخبار والأنساب والأمهات ، وغير ذلك من علوم العرب وغيرهم .

وذكر أن رجلاً من أهل الكوفة - ذهب عنى اسمه - كان مستهتراً بجمع الخطوط القديمة ، وأنه لما حضرته الوفاة خصه بذلك لصداقة كانت

---

(1) الفهرست ص ٦٠

بينها ، وأفضال من محمد بن الحسين عليه السلام ، ومجانسته بالمذهب فإنه كان شيئاً . فرأيتها وقلبتها فرأيت عجباً ! إلا أن الزمان قد أخلقها وعمل فيها عملاً ، أدرسها وأحرفها . وكان على كل جزء أو ورقة أو مدرجة توقيع بخطوط العلماء ، واحداً بعد واحد ، يذكر فيه خط من هو ، وتحت كل توقيع توقيع آخر ، خمسة وستة من شهادات العلماء على خطوط بعض لبعض . ورأيت فى جملتها مصحفاً بخط خالد بن أبى الهياج ، صاحب على رضى الله عنه ، ثم وصل هذا المصحف إلى عبد الله بن حانى رحمه الله ، ورأيت فيها بخط الإمامين ، الحسن والحسين ، ورأيت عنده أمانات وعهوداً بخط أمير المؤمنين على عليه السلام وبخط غيره من كتاب النبى صلى الله عليه وسلم ، ومن خطوط العلماء فى النحو واللغة مثل أبى عمرو بن العلاء ، وأبى عمرو الشيبانى ، والأصمعى ، وابن الأعرابى ، وسيبويه ، والفراء ، والكسائى ، ومن خطوط أصحاب مثل سفيان بن عيينة ، وسفيان الثورى ، والأوزاعى ، وغيرهم ورأيت ما يدل على أن النحو عن أبى الأسود ما هذه حكايته وهى أربعة أوراق أحسبها من ورق الصين ترجمتها هذه فيها كلام فى الفاعل والمفعول من أبى الأسود رحمة الله عليه بخط يحيى بن يعمر .

وتحت هذا الخط بخط عتيق هذا خط علان النحوى وتحته هذا خط النضر بن شميل ثم لما مات هذا الرجل فقدنا القمطر وما كان فيه فما سمعنا

له خبراً ولا رأيت منه غير المصحف هذا على كثرة بحثى عنه . »

ثم إننا نجد بعد ابن النديم أبا الطيب عبد الواحد بن على المتوفى سنة ٣٥١ هـ. يقول فى ذلك : « كان أول من رسم للناس النحو أبا الأسود . أخذ ذلك عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وكان أعلم الناس بكلام العرب . وأبو الأسود اول من نقط المصحف . واختلف الناس إلى أبى الأسود يتعلمون العربية وفرع لهم ما كان أصله »

ويعاصر أبا الطيب هذا إمام لغوى آخر هو أبو سعيد السيرافى المتوفى ٣٦٨ هـ. ، فنجده يروى فى هذه المسألة أيضاً رأياً لا يخرج عن آراء السابقين إذ يقول « أول من رسم النحو ابو الأسود الدؤلى »

ويعاصر السيرافى عالم لغوى آخر ؛ هو أبو منصور محمد بن أحمد ابن الأزهر طلحة بن نوح بن أزهر الأزهرى الهروى المتوفى سنة ٣٧٠ هـ ؛ فيرى رأياً لا يخالف فيه معاصره ؛ اذ يقول : « وبلغنا أن ابا الأسود الدؤلى وضع وجوه العربية، وقال للناس انحوا نحوه فسمى نحواً . » [1]

وأصحاب هذه الروايات المتقدمة قد عاشوا كما رأينا فى القرن الثانى والثالث والرابع الهجرى . وبعد هذا القرن نجد رواة آخرين يرددون نفس الروايات المتقدمة دون أن تكون لهم أصالة أو رأى جديد . ولعل

---

[1] ينقل هذه العبارة عن التهذيب للأزهرى صاحب لسان العرب فى مادة — نحا — جـ ٢٠ صـ ١٨٢

أولاهم بالذكر الحافظ بن حجر المتوفى سنة ٨٥٢ هـ ، والسيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ ، والقفطى المتوفى سنة ٦٤٦ هـ.

أما الحافظ فإنه ينقل عبارة المبرد التى ذكرناها فيما مضى إذ يقول : « أول من وضع العربية ، ونقط المصاحف أبو الأسود ، وسئل عمن نهج له الطريق فقال تلقيته عن علي »[1]

وأما السيوطى فإنه يذكر أغلب هذه الآراء المتقدمة ، وهو كدأبه لا يحاول تمحيصها ، ولا إبداء رأي فيها[2]

وأما القفطى فإنه يسلك مسلك السيوطى فى جمع الآراء والاكتفاء بنسبتها إلى أصحابها[3] ولعل أهم شيء لديه هو ما ينقله عن وجهة نظر المصريين فى زمنه بالنسبة لمن وضع النحو ، ويقول : « وأهل مصر قاطبة يرون بعد النقل والتصحيح أن أول من وضع النحو على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وأخذ عنه أبو الأسود ، وأخذ عن أبى الأسود نصر ابن عاصم البصرى »

ثم يمضى فى ذكر السلسلة التى ألفنا قراءتها عند غيره من الرواة بالنسبة لطبقات النحاة .

---

(1) الإصابة — ترجمة أبى الأسود جـ ٢ صـ ٢٤١ - ٢٤٢

(2) السيوطى ـ السبب فى وضع العربية

(3) القفطى ـ انباه الرواة ، الصفحات الأولى من الكتاب .

ونحن لو تجاوزنا عن الخلاف فى التعبير بين هؤلاء الرواة الذى لا يترتب عليه كبير خطر ، والذى مصدره فى كثير من الأحيان التساهل وعدم الدقة فى اختيار الألفاظ الاصطلاحية فى الفترات الأولى من تدوين العلوم العربية ، حيث نجد ابن سلام يقول : « أسس العربية وفتح بابها » وابن قتيبه يقول : (وضع العربية) والمبرد يقول : (وضع العربية) وأبو الطيب والسيرافي يقولان : (رسم النحو) .

نقول لو تجاوزنا عن هذا الخلاف بين لفظ رسم ووضع ، وأسس المتقاربة المعنى فإننا نستطيع أن نخرج من أقوال هؤلاء الرواة بما يشبه الإجماع على أن الواضع لتلك اللبنة الأولى فى النحو إنما هو أبو الأسود الدؤلى . وسنحاول الآن أن نتناول كل شخصية من هذه الشخصيات التى نسبت إليها أولية الوضع فى النحو العربى فنتفهمها ، ونلم بظروفها ، ونحلل الرواية التى تنسب أولية الوضع إليها ؛ وعلى ضوء ذلك تتكشف لنا الحقيقة التى أجملناها ، ونستطيع أن نصدر عليها حكمنا فى شىء من الثقة العلمية ، والطمأنينة النفسية .

أما فيما يختص بنسبة ذلك إلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب فظاهر فيه فكرة التشيع ، ويدل على ذلك أن هذه النسبة لا توجد وتنتشر إلا فى البيئات الشيعية ، كما رأينا ذلك فى مصر أيام القفطى .

ولقد استطعنا أن نلمس ذلك عند القدماء أنفسهم ، وأن نجد أثرها حتى

فى بعض هذه الروايات التى نقلناها عن أصحابها .

ويضاف إلى هذا دليل آخر وهو أن ابن سلام وهو أقدم من أثرت عنهم الرواية فى هذا الموضوع ، لم يشر بذلك إلى مجهود على فى تأسيس النحو . وليس بمستبعد أن يكون أبو الأسود نفسه ، وهو من أشد التابعين لعلى ، ومن أخلص الناس إليه ، قد عزا شيئاً من مجهوده فى النحو إلى أمير المؤمنين تواضعاً منه أو تبركاً به أو تفانياً فى شخصيته أو رغبة فى خدمة المذهب الشيعى واستئثاره بكل فضل . وليس بمستبعد أيضاً أن يكون قد جرت مناقشات ومشاورات بين على وأبى الأسود فيما كان أبو الأسود يعتزم القيام به من تأسيس النحو ووضعه . كل هذا جائز ، وليس ببعيد أن يحصل وخصوصاً فى بيئة تتغلب فيها المعانى الروحية ، ولكن المستبعد هو أن يكون أمير المؤمنين على بن أبى طالب قد قام بمجهود عملى وساهم مساهمة فعلية فى تلك اللبنة الأولى من عالم النحو ، فإن ظروفه الخاصة ، ومشغولياته الدينية والسياسية واهتمامه بما هو أجل من ذلك وأخطر يجعلنا نطمئن الى أن أبا الاسود هو الذى نهض بعبء تأسيس النحو ، وتزعم تلك الطائفة التى اتجهت الى دراسة العربية والاهتمام بشأنها .
ومما يزيدنا اطمئناناً إلى هذا الرأى هو أننا لم نعثر فيما قرأناه من روايات أو فيما اطلعنا عليه من آثار أدبية وعلمية على أى أثر ينهض كدليل مادى على مشاركة على فى تأسيس النحو ، بل إن هناك من هذه الروايات التى

تنسب وضع النحو إلى علي ، ما يؤكد نفي ذلك عنه ؛ من ذلك ما يرويه القفطي من أن أبا الأسود قد تلقى الأمر من علي بن أبي طالب بوضع حروف النصب ؛ ولما رجع إليه بعد أيام قدم إليه صحيفة كتبت فيها حروف النصب على هذا النحو ؛ « إن ، أن ، كأن ، ليت ، لعل » وحينما قرأها علي سأله : وأين لكن ؟ فقال أبو الأسود ما كنت أدري أنها منها ؛ فقال له علي : اثبتها فإنها منها !

ونظرة فاحصة في هذه الرواية وفي مدى ما تحمله من معاني تجعلنا نرفضها ، ونحن مطمئنون . فهي لو صحت لأعطتنا صورة عن أن النحو العربي قد نضج وكمل لا في نظرياته العامة فحسب ، ولا في رءوس مسائله فقط ، وإنما في تفاصيله ودقائقه قبل سنة ٤٠ ﻫ ؛ ذلك الأمر الذي لا يتلاءم مطلقاً مع نشأة علم من العلوم وعلى يد مؤسسه الأول ، ثم كيف يعقل هذا وقد استمر النحو في نموه السريع حتى أيام سيبويه وهو لا يقدم هذا التقسيم الواضح ولا التفصيل العقلي الدقيق لتفصيل هذا الباب من أبواب النحو ؟

على أننا نجد ما يؤكد ذلك بالنسبة لأبي الأسود ، وسنذكره بعد قليل وإذا كان من علي بن أبي طالب بعض الآراء في هذا فذلك لا يعدو أو هو قريب الشبه بما عرف من إرشاد الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه بتصحيح خطأ من يلحن أمامه . فقد روى أن الرسول سمع لحناً في

بمجلسه فقال لمن كان معه من الصحابة : « أرشدوا أخاكم فقد ضل . » أو هو شبيه كذلك بما عرف عن عمر بن الخطاب من حرصه على العربية الصحيحة ، وكراهيته للحن ونفوره من سماعه ثم دعوته بطريق غير مباشر إلى تعلم العربية وتجنب الأخطاء فيها . وإذن فنستطيع أن نقول إن ما كان من أمر الرسول صلى الله عليه وسلم وأمر الخلفاء الراشدين من بعده ومنهم على بن أبي طالب بشأن اللغة وتصحيحها كان طبيعياً ، تستلزمه الظروف ، وتدعو إليه طبيعة الحرص على اللغة من أصحابها وخصوصاً بعد أن أصبحت لغة الدين الجديد وأداة معرفة أحكامه ، وكان هذا لا يزال بعيداً عن النحو بمعناه العلمى ووضع قواعده على أساس منظم .

وأما ما رواه ابن النديم من أنه قرأ بخط أبي عبد الله بن مقلة عن ثعلب من أن الواضع للعربية هو عبد الرحمن بن هرمز فلا ينبغى أن يعول عليه ، ذلك لأنها رواية من مصدر واحد ولم يوجد ما يدعمها ولا ما يقويها من أدلة أخرى حتى تستطيع أن تقف أمام الإجماع الذى رأيناه فى جانب أبي الأسود الدؤلى . وعلى فرض قبولها وصحتها فإننا نستطيع أن نفهمها على الوجه الآتى :

كان عبد الرحمن بن هرمز من أصحاب أبي الأسود الذين يهتمون بالعربية وبالمحافظة عليها ، ولم يكن المجهود الذى يبذل فى هذه الناحية ممثلاً فى دراسة مدرسية منظمة كما نتصوره الآن ، بل كان بمثابة مشاورات تتبادل ، وآراء تعطى ، ونصائح تقدم لمناسبة خطأ أو لحن لوحظ على

لسان متكلم بالعربية أو قارىء لبعض آيات قرآنية ، ثم إن هذا المجهود لا يمكن أن يتصور دائما صادراً عن أولئك المهتمين بأمر العربية مجتمعين ، بل كان كل منهم فى حل من أن يصدر رأيه على انفراد أو يصحح لحناً دون الرجوع فى ذلك إلى رأى أستاذ أو الاعتماد على كتاب مدون ، فكانوا جميعاً أساتذة فى العربية حريصين عليها متعاونين على سلامتها وعلى إنقاذها من ذلك المرض الاجتماعى الذى بدأ يتسرب إليها . وأمر أولئك الذين نستطيع أن نسميهم أوائل النحاة فى العربية يشبه تماماً ما كان معروفاً عند أوائل النحاة فى اليونانية واللاتينية والسريانية ؛ إذ أن كل واحد منهم كان يساهم بنصيب من ناحيته فى تلك الملاحظات اللغوية التى أصبحت فيما بعد أساساً لوضع النحو ؛ ثم إن هذا التعاون لم يمنع واحداً منهم أو أكثر من أن يخطو خطوة عملية فى وضع اللبنة الأولى من هذا البناء ، ومع ذلك فقد كان هذا المجهود الأول يعزى إليهم جميعاً .

وعلى ضوء هذا يمكن أن يقال إن عبد الرحمن بن هرمز قام بنصيب من الملاحظات النحوية الأولى فى اللغة العربية ، وكانت هذه الملاحظات تلقى مشافهة لا تدوينا ؛ ولعله فى هذا الميدان قد ساهم بنصيب كبير حتى إن ثعلب روى أنه الواضع للعربية .

وهذا الذى ذكرناه بالنسبة للملاحظات النحوية الأولى عند اليونانيين واللاتينيين والسريان وكذلك بالنسبة للنحاة الأوائل لهذه اللغات المختلفة

يفسر لنا أيضاً ما ذكره الرواة من أولية الوضع فى النحو العربى لغير عبد الرحمن بن هرمز ، إذ المسألة فى نظرنا لا تعدو أن تكون نشاطاً ملحوظاً واهتماما أوسع فى دائرة الأخطاء العربية وتصحيح اللحن فيها ومراعاة الدقة فى التعبير . ولعل نشاط عبد الرحمن بن هرمز قد ازداد بعد أبى الأسود الدؤلى حتى كاد يطغى عليه مما جعل ثعلب ينسب إليه أولية الوضع لهذا العلم ، ويخيل إلينا أن كلمة الوضع عند هؤلاء الرواة كانت تطلق على من يبذل نشاطاً واسعاً فى العربية كما كانت تطلق كذلك على الواضع الحقيق لأوليات النحو .

ومن هنا نجد نسبة الواضع الأول للنحو العربى تعزى إلى كثيرين ، ومن يفهم الجو العام للإنتاج النحوى الأول فى البيئات العديدة لا يجد حرجاً فى تفسير ذلك كما أنه لا يجد صعوبة كبيرة فى استخلاص رأى يلمس فيه وجه الحقيقة معتمداً على أدلة جزئية أخرى تعززه وتقويه . واذا كان الرواة ، كما لاحظنا ، قد توسعوا فى إطلاق كلمة « الواضع الأول للعربية » فاستباحوا لأنفسهم إطلاقها على من بذل جهداً فى تخليص العربية مما شابها من لحن وضعف فإنهم قد احتاطوا من ناحية أخرى فلم يطلقوها على من أشرف على هذه المهمة من ولاة الأمر فلم نرَ ولم نسمع بأن زياد ابن أبيه أو الحجاج بن يوسف الثقفى قد اشتركا فى وضع النحو بالرغم مما أبدياه من حرص على اللغة وقدماه من معاونة فى سبيل تخليصها والمحافظة عليها ؛ أما الأول فقد مد يد المساعدة إلى أبى الأسود الدؤلى ، وفى

بعض الروايات هو الذى أمره بوضع النحو وألح عليه فى ذلك ؛ وأما الثانى فهو الذى باشر الخطوة الثانيـة فى المحافظة على اللغـة وضبطها وذلك بنقط الإعجام الذى وضعه نصر بن عاصم الليثى .

هذا وأمر نصر بن عاصم بالنسبة لوضع النحو يكاد يكون أدق وأشكل من أمر عبـد الرحمن بن هرمز ، ذلك أن نصر بن عاصـم قد قام بخطـوة إيجابية فى ضبط اللغة العربية وحل كثير من إشكالاتها بواسطة نقط الإعجام الذى أصبح ضرورياً بعد أن دخلت اللغة فى مرحلة الكتابة واتسعت فيها دائرة التسجيل فكانت حاجتها إلى ضابط يميز الحروف المتشابهة كالباء والتاء والثاء والنون ، وكالسين والشين ، وكالدال والذال وكالراء والزاى ، وكالصاد والضاد وكالطاء والظاء .. الخ .

نقول كانت حاجتها الى ضابط يميز هذه الحروف بعضها عن بعض لا تكاد تقل عن حاجتها إلى نقط الشكل الذى يميز أواخر الكلمات . ومما يزيد الموقف دقة بالنسبة لنصر بن عاصم هو أن بعض الرواة ينسب إليـــه أنه وضع كتاباً فى النحو . بل إن الاستاذ مصطفى صادق الرافعى يذهب إلى أبعد من ذلك فيروى أن كتاب نصر بن عاصم يعتـــبر أول كتاب فى النحو على التحقيق [1]

(1) تاريخ آداب العرب جـ ١ صـ ٢٩١

ومع هذا فإننا نستطيع فى غير كبير عناء أن نفهم موقفه فهما يطمئن إليه البحث ، ونستلخص حقيقة موقفه دون تعارض مع ما نسب إلى أبى الأسود الدؤلى من وضع اللبنة الأولى فى بناء النحو العربى . ذلك أن الخطوة الإيجابية التى قام بها نصر بن عاصم ولم ينسبها واحد من الرواة - فيما اطلعنا - إلى غيره ينبغى أن نخرجها عن دائرة النحو بالرغم من مساهمتها الفعالة فى خدمة اللغة وتخليصها من كثير من الأخطاء التى كانت معرضة لها . وبالرغم كذلك من مشاركتها إلى حد كبير فى حركة تنقية اللغة التى امتاز بها عصر الدولة الأموية فى بيئة العراق .

وأما ما نسب إليه من وضع كتاب فى النحو فهناك من الملابسات ما يجعلنا - على فرض صحته - نستسيغه ونقبله دون أن يكون ذلك مصدراً للطعن فى نسبة أولية الوضع فى النحو لأبى الأسود الدؤلى ، ذلك أن المدة التى عاشها نصر بن عاصم بعد وفاة أبى الأسود كفيلة بصهر بعض الملاحظات النحوية والتوسع فيها ، ثم الإقدام على خطوة جديدة فى ذلك الميدان - خطوة التأليف والتدوين - بعد أن ظلت الملاحظات النحوية مدة من الزمن تصدر عن أساتذة العربية مشافهة وتنقل عن طريق الرواية والسماع . فلقد عاش نصر بن عاصم عشرين سنة بعد وفاة أبى الأسود أى من ٦٩ هـ إلى ٨٩ هـ ، وهذه الفترة ليست بالبسيطة ولا بالقصيرة بالنسبة لتطور علم من أهم العلوم العربية ؛ من حيث الضرورة إليه وخصوصاً فى وقت بدأت

العقلية العربية تتصل بالعقليات الأجنبية وتستمد منها عناصر المعرفة الإنسانية وأوليات العلوم .

محتمل إذن أن يكون نصر بن عاصم قد ألف فى النحو العربى كتاباً ، ومحتمل أيضاً أن يكون قد برز فى العربية واحتل مكان الصدارة فيها بعد وفاة أبى الأسود ؛ ومما يؤيد هذا الاحتمال ويزيدنا ثقة فيه واطمئناناً إليه هو أن الحجاج بن يوسف قد وكل إلى نصر بن عاصم دون سواه مهمة وضع نقط الاعجام وإزالة اللبس الخطير الذى كانت اللغة عرضة له بعد أن انتشرت الكتابة وأصبحت أداة لتسجيل المعارف ونقل الأفكار .

وإذا لاحظنا هذه الظروف التى أحاطت بنصر بن عاصم وبمكانته فى العربية ، ثم أدخلنا فى حسابنا تقدير القدماء وفهمهم لمعنى العربية وتوسعهم فيها لدرجة إطلاقها على كل مجهود يبذل من أجلها فى سبيل المحافظة عليها وتخليصها من الشوائب التى لحقت بها أو كانت عرضة لها ، نقول إذا لاحظنا كل ذلك أمكننا أن نفهم فى يسر نسبة بعض الرواة أولية الوضع فى العربية إلى نصر بن عاصم دون أن يكون فى هذا تعارض مع ما تنسبه جمهرتهم إلى أبى الأسود الدؤلى ، وذلك إما لتفرده بخطوة جديدة فى ضبط اللغة وإما لتوسعه فى المجهود الذى بذله معاصروه وعلى الخصوص مجهود أبى الأسود ، وإما لوضعه أول كتاب فى النحو كما سوغنا احتمال ذلك ، وإن كان من العسير أن نطمئن إليه ؛ إذ أننا قد استعرضنا تراجم العلماء

وقوائم الكتب المؤلفة فى فروع المعرفة العربية على اختلافها ، وذلك كله فى كتاب الفهرست وهو أهم مرجع فى ذلك وأوفاه على الإطلاق ، ومع ذلك لم نقف على أثر لذكر كتاب ألفه نصر بن عاصم فى النحو ؛ وعجيب أن يسقط هذا الكتاب - إن كان قد وجد - من قوائم ابن النديم وهو العالم المحقق المدقق الجماعة .

والآن بعد مناقشة هذه الروايات المتضاربة فى نسبة أولية الوضع للنحو العربي واستبعاد ما يمكن استبعاده منها وتعليل ما يمكن احتمال صحته نستطيع أن نقول ونحن مطمئنون إن واضع اللبنة الأولى فى بناء النحو العربى إنما هو أبو الأسود الدؤلى دون سواه ، ودليلنا على ذلك بعد اتفاق جمهور الرواة من القدماء على أنه الواضع الأول للعربية ما يأتى : —

أولا — إن واحداً من هؤلاء الرواه ، حتى من بين من نسب الوضع الاول إلى غير أبي الأسود ، لم يتعرض لنفى هذه النسبة إليه ليتخذ من ذلك وسيلة لإثباتها إلى غيره على انفراد ، بل اكتفى بنسبة الوضع الأول إلى من يراه وترك لمن يأتى بعده مهمة الفهم والتفسير لمعنى الوضع فى العربية والتأسيس لها . وإن من يدرس الظروف الاجتماعية إذ ذاك ، ومن ينظر نظرة شاملة وفاحصة معًا فى ملابسات هذا العلم وفى عدم الدقة وقلة التحري التى اتصف بها القدماء فى تعبيرهم والتى كانت مثار الكثير من الشك

والخلاف بالنسبة لمن جاء بعدهم [1] ، نقول إن من يفصل ذلك لا يجد صعوبة فى تعليل هذا التضارب واستخلاص حقيقة يطمئن إليها ويعتمد عليها وعلى هذا يسلم لنا تصحيح نسبة الوضع الأول لأبى الأسود ولا يطعن فى ذلك ما يرويه الآخرون من نسبة الوضع فى العربية إلى غيره .

ثانياً ـ ما عثر عليه من آثار مادية قديمة تصور لنا ما ذكره الرواة خاصاً بمجهود أبى الأسود فى العربية ، ومن هذه الآثار مصحف مخطوط قد عثر عليه فى مسجد عمرو بن العاص فى مدينة الفسطاط ، ويعتبر هذا الأثر حتى اليوم أقدم مصحف مخطوط فى العالم ، ولا يزال بحالته التى وجد عليها فى المكتبة الخديوية فى القاهرة ، وهذا المصحف قد جمع فى نسخه العملين اللذين قام بهما أبو الأسود الدؤلى ونصر بن عاصم الليثى ، فالشكل الذى وضعه أبو الاسود قد رسم بمداد أحمر وبنفس الطريقة التى نسبها الرواة إلى أبى الاسود وأما نقط الاعجام فقد رسم بمداد أسود وبنفس الطريقة التى عرفت كذلك عن نصر بن عاصم . وهناك أثر مادى آخر ينبغى أن يضاف إلى هذا المصحف ذلك هو عدد الصفحات التى كانت فى مكتبة ابن أبى بعرة محمد بن الحسين ورآها صاحب الفهرست بنفسه ورويناً نصه فى هذا منذ قليل وهذا الأثر وإن لم يصل إلينا إلا أنه ليس من السهل أن نطعن فيه

(1) قد لاحظ هذه الحقيقة الأستاذ مصطفى صادق الرافعى فى الجزء الأول من كتابه ــ تاريخ آداب العرب ــ ص ٣٣٧ هامش رقم ٢

لأن ابن النديم قد عرف بدقته في النقل والرواية ، فهو حين يرى بنفسه يقول رأيت وحين يسمع من شخص يقول حدثني فلان أو سمعت من فلان ، وحينما لا يطمئن إلى شيء أو لا يتأكد منه لا يتحرج من أن يقول - لم أره - أو يصحب هذا القول بعبارة تدل على عدم اطمئنانه إليه ، وهكذا تفيض تعبيراته من أول الكتاب إلى آخره بما يدل على تحفظه في النقل ودقته في الرواية وصراحته في التعبير . ولو أدخلنا في حسابنا إلى جانب هذا ما هو معروف من قصر الزمن بين أبي الأسود وابن النديم ، فالمسافة بين وفاة الأول ومولد الثاني لا تكاد تتجاوز قرنين وربع قرن من الزمن ، إذ أن الأول منهما مات سنة ٦٩ هـ ، والثاني مات حوالي سنة ٣٨٠ هـ ، نقول لو أدخلنا في حسابنا أيضاً هذا الاعتبار لضاعف ثقتنا ولأكد طمأنينتنا بما يذكره لنا صاحب الفهرست .

وكل ما أمكن أن يوجه من نقد فيما اطلعنا عليه إلى هذه الصفحات الأربع في النحو المنسوبة إلى أبي الأسود الدؤلي هو ما ذكره الأستاذ مصطفى صادق الرافعي (1) من أن أبا الأسود لم يكتب بنفسه هذه الصفحات وإنما كان أصحابه هم الذين يكتبون ذلك عنه ، ثم خلص الأستاذ الرافعي إلى القول بأن كل ما كتبه أبو الأسود بنفسه إنما هو صحيفة في الأدب عرفت بتعليقة أبي الأسود وكانت مصدر خلاف ومثار جدل

---

(1) - تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٢٩١

بين النحاة ، سواء لدينا أكانت الصحائف الأربع التى نسبها ابن النديم إلى أبي الأسود من كتابة أبي الأسود نفسه أم من كتابة أصحابه عنه فإن الذي يهمنا فى هذا المقام إنما هو التأكد من أن ما تحتوى عليه هذه الصحائف من النحو أو من الكلام فى الفاعل والمفعول إنما هو من عمل أبي الأسود الدؤلي . ولا يطعن فى ذلك أن تكون الصحائف قد كتبت بيد شخص آخر ما دامت بمعرفته وتحت إشرافه ، كما لم يطعن فى شكله للقرآن بطريقة النقط إن كان ذلك بيد كاتب لقن ينفذ طريقة أبي الأسود ويسجل ما يمليه عليه أبو الأسود .

ونظن بعد هذا أن ذلك التمهيد الذي قدمناه ، وتلك الخطوات التى سلكناها فى بحث هذه النقطة ، وهذه النتائج التى وصلنا اليها ، كل ذلك كاف للتأكد من أن أبا الأسود كان الواضع الأول للنحو العربي .

ولنترك الآن مكتفين بهذا الكلام عن أبي الأسود ، ولننتقل الى الحديث عن نقطة أخرى فيها من الدقة ، ولها من الخطورة ما يجعلها فى كفة أخرى معادلة لمسألة الواضع الأول للنحو العربي ونعني بتلك النقطة اللبنة الأولى فى بناء النحو العربي .

ماهى اللبنة الأولى فى بناء النحو العربي ؟

ان أمر هذه اللبنة — بعد الذي قدمناه — سهل ميسور ، فواضعها هو أبو الأسود ، وهنا نجد من الخلاف والاضطراب عند القدماء بالنسبة

لهذه المسألة ما يعادل الخلاف والاضطراب بالنسبة للواضع الأول للنحو العربي ، وهاهي ذي كتب الرواة تعرض علينا صورة مشوهة المعالم ، غير دقيقة الملامح عن أولية الوضع في النحو ، تشبه تماماً نفس الصورة التي رأيناها عن الواضع الأول لهذا النحو ، فمرة تطالعنا هذه الكتب بأن أول ما وضع أبو الأسود في النحو العربي إنما هو باب التعجب ، وذلك على أثر لحنة بدرت من ابنته في صيغة التعجب ؛ ومرة أخرى تطالعنا هذه الكتب نفسها بأن أول ما وضع أبو الأسود إنما هو باب الفاعل والمفعول وذلك على أثر لحنة بدرت من شخص فارسي ؛ ومرة ثالثة تقرر هذه الكتب بأن أول ما وضعه أبو الأسود إنما هو حروف النواصب ، وذلك بإرشاد من علي بن أبي طالب عليه السلام ؛ وقد يضاف إلى ذلك الحروف الجوازم أيضاً ؛ ومرة رابعة تذكر هذه الكتب بأن أبا الأسود أول ما فكر في النحو فكر في الكلام ، ثم وضع أقسامه من اسم وفعل وحرف ، وهكذا من التشقيق ، والتفريع والخلاف ما يترك الباحث في نفس الحيرة التي أحسسنا بها وصورناها عندما كنا نتحدث عن الواضع للنحو العربي وفي الواقع أننا لو أهملنا عمل العقل ، واستسلمنا لكل ما ذكره الرواة دون تمحيص لانتهينا الى أن أهم أبواب النحو ، ورءوس مسائله ، بل وكثيراً من التفصيل فيها قد وضعها أبو الأسود الدؤلي ، وذلك صعب فهمه ، عسير قبوله إذ أنه كيف يتصور ذلك وما رأينا في تاريخ علم من العلوم الانسانية أنه بدأ ، ونما ، وأشرف على الكمال في حياة رجل واحد

وعلى يد رجل واحد ؟

إن حياة العلوم طويلة شاقة ، وتكوينها لكى تثبت على أقدامها يحتاج إلى مجهود جبار ، لا من شخص واحد ، ولكن من جماعات متآلفة متعاونة وأمامنا من الأمثلة على ذلك تاريخ النحو اليونانى وتاريخ النحو اللاتينى ، فالأول قد استنفد أجيالا ولم يشرف على درجة الكمال إلا بعد قرون ؛ والثانى بالرغم من استفادته بمنهج الأول ، وبمجهود رجال النحو اليونانى لم يثبت على قدميه إلا بعد مضى ما يزيد على ثلاثة قرون .(1)

---

(1) من الثابت أن النحو اليونانى بدأ يأخذ طريقه إلى الحياة فى خلال القرن الخامس قبل الميلاد على أيدى أساتذة الحركة السوفسطائية فى أثينا ، ثم أخذ ينمو ويستقل عن العلوم اللغوية الأخرى ، ولكنه لم يتم له ذلك إلا فى أواخر القرن الثانى بعد الميلاد ، وكان ذلك على يد عالم يونانى من علماء الإسكندرية اسمه *Denys de Thrace* ؛ ومعنى هذا أنه استمر نحواً من سبعة قرون من الزمن ؛ وهذا مع ما هو معروف عن اليونان من ثقافة ونشاط ، ومع ما امتازوا به من سعة المعرفة ، وطول الباع فى الأبحاث العلمية .

أما النحو اللاتينى فقد بدأ بدوره فى خلال القرن الثانى قبل الميلاد بفضل مجهود عالم لغوى لاتينى يسمى *Varro* ؛ ولكنه لم يكمل إلا فى خلال القرن الثانى بعد الميلاد على يد نفس العالم اليونانى *Denys de Thrace* ؛ أى أنه بقى أكثر من ثلاثة قرون .

ولكى نتصور المجهود العنيف فى ذلك ، والصعوبة التى يتعرض لها العلم فى تأسيسه وتكوينه نأخذ جزئية واحدة من جزئيات النحو العربى فنتمثلها فى عهدها الأول ، ونتصورها على حقيقتها ، ولتكن هذه الجزئية أقسام الكلام اسم ، وفعل ، وحرف ، أو حروف النواصب ، إن ، وأن ، وكأن ؛ ولكن ، وليت ، ولعل ؛ أو نواصب المضارع - أن ولن ؛ وإذن ، وكى ؛ وحتى ؛ ولام التعليل ؛ او ... أو ... الخ .

قد يبدو لنا الآن سهولة تصور انحصار الألفاظ العربية فى الاسم ، والفعل ، والحرف ؛ أو انحصار حروف النصب للأسماء فى إن ، وأن ، وكأن ، ولكن ، وليت ، ولعل ؛ غير أن هذه السهولة ليست فى الواقع إلا ثمرة مجهود أجيال عديدة ، وطوائف من العلماء قد أفنوا حياتهم فى الدرس ، والتحصيل ، ثم فى الشرح ، والتفصيل . ولكن جزئية من هذه الجزئيات كانت تتطلب حتماً ممن يعرض لها قبل وجودها ، ويريد وضع إحصاء لها قبل تأسيسها ؛ نقول إن بحث جزئية من هذه الجزئيات كان يتطلب حتماً استقراء شاملاً للغة ، ومفرداتها ، واستيعاباً عاماً لنصوصها ، وتراكيبها ، وأساليبها ، حتى يمكن حصر مفردات هذه الجزئية ، ومعرفة استعمال هذه المفردات ، وعقد المقارنات بين أساليبها فى الاستعمال ، ومعرفة أوجه الشبه بين هذه المفردات من ناحية اللفظ ومن ناحية المعنى ومن ناحية العمل ، ثم إدراك الفروق بين هذه المفردات فى كل ذلك حتى يمكن

الجمع بينها فى باب واحد من حيث الوظيفة ، والعمل ، والتفرقة بينها فى نفس الباب من حيث اللفظ والمعنى ، وليس ذلك كله بالشيء الهين اليسير .

إن الباحث الناقد لمثل هذه المسألة ، لو لم يكتف ، فى إدراك خطورتها ، وتصور صعوبتها ، بما أشرنا إليه من تفرع البحث ، وامتداد جوانبه ، وتعدد أطرافه ، وبما قدمناه من الكلام فى تاريخ العلوم ، وخصوصاً النحو اليونانى ، واللاتينى ؛ نقول إن الباحث الناقد ، لو لم يكتف بذلك ، ينبغى أن يطلع على النصوص الأدبية التى كانت معروفة فى صدر الإسلام ، ويقرأ التاريخ ، ويلم بسير العلماء الأوائل فى الإسلام ، ويعرف الكثير عن تاريخ نشأة العلوم الإسلامية ، ثم يعود بخياله وذاكرته إلى الوراء ليعيش فترة من الزمن ، على ضوء ذلك مع أبى الأسود الدؤلى ، ويحيى بن يعمر ، وعنبسة الفيل ، وميمون بن الأقرن ، ونصر ابن عاصم ، وعبد الرحمن بن هرمز ، وعيسى بن عمر الثقفى ، وأبى عمرو ابن العلاء وعبد الله بن أبى إسحق الحضرمى ، ويونس بن حبيب ؛ ليرى كيف كان هؤلاء الرجال يتدارسون العلم ، ويواجهون مسائله ، ثم يتبادلون الرأى فى نواحى المعرفة ، وليسمع ما كان يدور فى حلقات الدرس ، فى البيوت تارة وفى المساجد أخرى ، من الكلام فى اللغة ، وفى النحو ، وفى الصرف ، وفى الأدب ، وفى الدين ، وفى التفسير ، وفى الحديث ، بل وفى غير ذلك من الكلام فى السياسة ، وفى التاريخ ، وفيما يتعلق بشئون المجتمع ،

وليفهم كيف كان هؤلاء العلماء يستقون معارفهم وإلى أى المراجع يرجعون ، وكيف كان طلابهم يعون تلك المعارف ، وأى المناهج فى تنظيمها يسلكون ، ثم ليعد إلينا بعد ذلك يحدثنا عما رأى ، وما سمع ، وما فهم . وما نظننا مغالين حين نقول : إنه سيحدثنا عن خليط هائل من المعرفة لا يكاد المرء يميز فيه مادة علمية من مادة علمية أخرى ، واستطراد طويل فى القول قد يكون فيه من دواعى الإغراء ، ووسائل التشويق ما يمسك الانتباه ، فإذا ما تابع الطلاب الأستاذ ، وانتهوا معه إلى آخر الكلام يكون قد غاب عنهم أوله ، وطريقة أخرى فى فهم الأمور ومعالجتها ، وفى منهج التفكير وأساليب التعبير .

وإذن فكيف يمكن أن نقبل كل ما نسبه الرواة إلى أبى الأسود من وضع فى النحو ؟

يخيل إلينا أننا لو استبقينا كل ما عزوه إلى أبى الأسود ولم نحتكم فيه إلى طبيعة العلوم ونشأتها ، ولا إلى طبيعة البيئة التى كان يعيش فيها أبو الأسود لظهر لنا من خلال أقوالهم علم فى النحو يكاد يكون واضح المعالم ، مستوفى البحث ، محدد الأهداف ، بل ربما كان نحو أبى الأسود أدق نظاماً وأكثر تفصيلا من نحو سيبويه وبينهما نحو قرن من الزمان ؛ وليس أمام القارىء ، لكى يستوضح هذه المسألة ، سوى أن ينظر فى باب الفاعل وفى باب حروف النصب للأسماء من كتاب سيبويه ، سيرى فى الأول

خليطاً من المعارف ، واضطراباً فى القواعد ، فهناك كلام فى الفاعل ، وفى النائب عن الفاعل ، وفى الفعل المتعدى ، وفى الفعل اللازم ، وفى الفعل المبنى للمعلوم ، وفى الفعل المبنى المجهول ، وفى الفعل المتعدى إلى مفعولين ، وفى الفعل المتعدى إلى ثلاثة مفاعيل ، ثم يستطرد فيذكر الأفعال الناسخة مثل كان وأخواتها مقارنا المبتدأ والخبر بالفاعل والمفعول .[1]

وسيرى فى الثانى قصوراً وعدم شمول ، فهناك الحروف النواصب خمسة ؛ بينما هى فى نحو أبى الأسود ستة .[2]

وبعد الذى قدمناه من عرض سريع للبيئة العربية ، والمجتمع العربى أيام أبى الأسود ، ومن كلام موجز عن طبيعة العلوم الإسلامية ونشأتها نستطيع أن نقرر فى صراحة أن منهج البحث العلمى الحديث ليس على استعداد لقبول كل الروايات التى تذهب وضع النحو إلى أبى الأسود الدؤلى ، ولسنا كذلك على استعداد - مخافة الإطالة - لمناقشة كل هذه

---

(1) انظر كتاب سيبويه جـ١ صـ ١٠ - ٢٨ . طبعة باريس سنة ١٨٨١ م

(2) انظر كتاب سيبويه صـ ٢٤١ - ٢٥٠ من الجزء الأول طبعة باريس سنة ١٨٨١ م ؛ حيث ينص مرات على أن هذه الحروف خمسة ، وانظر كذلك - إنباه الرواه على أنباء النحاة للقفطى جـ١ صـ٤ طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٥٠ م حيث يعد هذه الحروف ستة بطريقة واو العطف التى تقتضى المغايره ؛ وهو ينسب ذلك إلى أبى الأسود وعلى بن أبى طالب .

الروايات وتفنيدها ، مكتفين - على سبيل المثال - بما أشرنا إليه من تفنيد بعضها هنا ، وبما قدمناه من مناقشة لآراء العلماء بالنسبة للواضع الأول للنحو العربى هناك .

وإذن فإن الذى نستطيع أن نطمئن إليه ، ونقرره على ضوء ما تقدم حتى الآن ، هو أن اللبنة الأولى التى أرساها أبو الأسود الدؤلى فى بناء النحو العربى كانت شكله للقرآن عن طريق النقط كما أجمع الرواة على ذلك ، ونرجح أنه بعد أن تمت له هذه الخطوة - وهى ليست باليسيرة كما نتصورها الآن - قد تلاها ، وربما يكون قد صحبها كلام وملاحظات عما هو مرفوع وعما هو منصوب ، وعما هو مجرور ؛ ومدى هذه الملاحظات وذلك الكلام ليس من السهل أن نتبينه ، ولا أن نحدده ، فقد ضاعت كل الآثار المادية التى تنير أمامنا الطريق فى هذا . ولعل طول المدارسة ؛ وكثرة المناقشة بين أبى الأسود وطلابه قد قادتاهم إلى الكلام فى معنى التعجب ، وفى معنى الفاعلية والمفعولية ، غير أننا نشك كثيراً فى أنهم بوبوا للنحو ، وفصلوا فى قواعده ، ووضعوا له هذه المصطلحات العلميـــة التى تطالعنا فى روايات المتقدمين ، وفى كتب المتأخرين .

ولسنا فى هذا نتجنى على الرواة ، ولا نلقى القول على عواهنه ، ولكننا نحتكم إلى الأثر المادى الوحيد الذى حدثنا عنه وعن ضياعه عالم ثقة ليس من السهل أن نطعن فيه ؛ ذلك هو ابن النديم صاحب الفهرست ، إذ

يقول عن الأوراق التى رآها عند ابن أبى بعرة أنها كانت تحتوى على كلام فى الفاعل والمفعول من أبى الأسود ؛ ولم يقل إنها تحتوى على باب الفاعل وباب المفعول ، [1] ونرجح كذلك أن هذه الملاحظات النحوية التى بدأ بها أبو الأسود وتبعه فيها طلابه قد بقيت ملاحظات تتناول النصوص الأدبية من شعر ونثر حتى النصف الأول من القرن الثانى للهجرة ، أي حتى عهد عبد الله بن أبي اسحق الحضرمي ، ويونس بن حبيب ، والخليل ابن أحمد ؛ ولم ترقَ هذه الملاحظات النحوية إلى أن تكون قواعد مجردة ، لا صلة لها بالنص الأدبي نفسه ؛ وذلك كأنه يقال مثلاً إن حروف النصب فى الفعل المضارع هي كذا وكذا ، أو الحروف الناسخة لحكم المبتدأ والخبر هي كذا وكذا أو الحروف التى تجر الأسماء هي كذا وكذا . . . الخ ؛ وإنما كانت النصوص الأدبية نفسها هي ميدان الملاحظات ، ومادة الدرس ، وعماد النقاش ، كأن يقال مثلا إن هذا الفعل المضارع فى هذه الجملة قد نصب هنا ولم يرفع كما نصب الفعــــل المضارع فى بيت من الشعر لامرىء القيس ، أو للنابغة ، أو للأعشى ثم يذكر نص البيت ، وربما يورد كل ما تستحضره الذاكرة من الشواهد الأدبية فى هذا ؛ وهكذا يمضى النحويون فى مناقشاتهم وفى ملاحظاتهم الخاصة بالمسائل النحوية كرفع الاسم إذا وقع فى أول الجملة أو بعد لفظ يدل على حدث ، ونصبه إذا كان دالاً على

(1) انظر الفهرست ص ٦٠ - ٦١

زمان ، أو مشيراً إلى مكان أو مبيناً لحال ذات من الذوات .

ويدلنا على صحة ذلك أمران نذكرهما باختصار :

الأمر الأول : هو ما نجده فى النحو اليونانى أو النحو اللاتينى عند نشأة كل منهما على أيدى أوائل النحاة اليونانيين واللاتينيين ؛ فقد كانت مسائل النحو إذ ذاك عامة ومنصبة على نصوص الأدب من شعر ونثر ، ولم تصل إلى مرحلة القواعد المنضبطة ، ولا إلى التجريد العلمى المطلق إلا بعد أجيال .

الأمر الثانى : هو ما نجده من صورة واضحة لتلك الملاحظات والمناقشات فى أقدم أثر نحوى وصل إلينا ، وهو كتاب سيبويه ؛ فإننا لو نظرنا فيه بإمعان لوجدناه يطالعنا فى كل أبوابه بأمثال هذه الملاحظات ، وعلى الخصوص حينما ينقل إلينا فى ثنايا مسائله آراء يونس بن حبيب أو آراء الخليل ابن أحمد .

وإذا أضفنا إلى هذين الأمرين تصورنا للبيئة العربية فى صدر الدولة الأموية ، وما كانت تتحمله العقلية العربية إذ ذاك من معرفة علمية ، ومقدرة على التجريد ؛ نقول إذا أضيف هذا إلى الأمرين السابقين ظهر لنا فى وضوح نوع النحو الذى وضعه أو فكر فيه أبو الأسود الدؤلى ، وعز علينا قبول الروايات التى تنسب إلى أبى الأسود وضع أبواب منظمة وضوابط مجردة فى النحو العربى كالرواية القائلة بأنه وضع باب الكلام وقال إنه يشتمل على اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ؛ أو الرواية الأخرى القائلة بأنه وضع باب النواسخ ، وقال - بعد مشاورة على بن أبى طالب - إنه يشتمل على إن ، وأن ،

ولكن ، وكأن ، وليت ، ولعل !!! (١)

ولم نذهب فى استدلالنا بعيداً ، ونحاول فى إثبات ما نحن فيه هنا أن نلجأ إلى طريق العقل ، والمقارنة ، وذلك أشبه ما يكون بطريق التجريد الذى نحاول أن نهدمه ، أو نستبعده فى هذه المسألة بالذات ؛ نقول لم نذهب فى هذا بعيداً وأمامنا من الأشياء المادية فى ذلك العصر بالذات ما يصور طبيعة العقلية ، ويوضح نوع العمل الذى كان يشغل نحاة العرب فى ذلك الوقت ؟ إن طريقة نقط الشكل عند أبى الأسود ، وطريقة نقط الإعجام عند نصر بن عاصم كلتاهما ترينا عملاً آلياً ، بدائياً ، بعيداً عن معنى التجريد ، ويكاد لا يكون للعقل أى تدخل فيه ؛ فكيف يتلاءم هذا العمل الآلى الميكانيكى ، مع التجريد المطلق ، الذى نلحظه فى أبواب النحو المنسوبة إلى أبى الأسود الدؤلى ؟

أما طريقة الشكل ، وهى اللبنة الأولى فى بناء النحو العربى ، فقد استمدها أبو الأسود الدؤلى من النحاة السريانيين ، ونحن نقرر مبدئياً بأنه ليس فى ذلك ما يضير النحو العربى ، ولا ما يقلل من قيمة جهود أبى الأسود فيه .

إن موقف أبى الأسود فى هذا يشبه إلى حد كبير موقف الكثير منا

---

(١) انظر إنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطى ج ١ ص ٤ - ٥ طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٥٠

الآن ؛ فنحن نحاول أن نتصل بالغرب نتعلم لغته وندرس ثقافته ، ونعرف مناهج البحث عنده ؛ وإذا ما ألممنا بشيء من ذلك عدنا إلى معارفنا الخاصة ، واتخذنا من فروعها المختلفة ميداناً لتطبيق تلك المناهج لكى نبحث ثقافة الشرق بحثاً جديداً ، ومع ذلك فلم يقل ، ولا ينبغى أن يقال إن هذا الصنيع يسىء إلى معارفنا ، أو يقلل من شأن القائمين به . هذا وإن من يدرس تاريخ الحضارات ، ويقف على ما فيها من تداخل ، وما بينها من صلات يستطيع أن يدرك فى سهولة سلامة موقف أبى الأسود ، بل عظمة صنيعه هذا فى خدمة اللغة والنحو على السواء . إن الحضارة الإغريقية القديمة قد أسست على صلاتها بالحضارة البابلية - الأشورية من ناحية ، وبالحضارة المصرية القديمة من ناحية أخرى ؛ ومع هذا فلم يمنعها ذلك من أن تسود العالم ، وتملأ شعوبه بمبادئها العديده ، ومعارفها المختلفة .

ولدينا من الأدلة ما يبين فى وضوح أن أبا الأسود قد استمد طريقة نقط الشكل من لدن النحاة السريانيين ؛ من هذه الأدلة أن أبا الأسود قد اتخذ بيئة العراق موطناً ، وكان بها والياً إدارياً ، وفيها عالماً لغوياً ، وزعيماً دينياً ؛ ونحن نعلم أن هذه البيئة كانت قبل الفتح العربى ، وبعده مغزوة باللغة السريانية ، وبالمعارف السريانية ؛ وكانت إلى جانب ذلك آهلة بالعلماء السريان ، وميداناً لدراساتهم ، ومناقشاتهم ، وجدلهم ، لا فى الناحية الدينية ، أو الفلسفية فقط ، ولكن فى مختلف العلوم الإنسانية ،

ومنها اللغة والنحو ؛ ونعلم أيضاً أن اللغة العربية قد تعرضت - بعد اتساع الفتوح الإسلامية - إلى نفس الأزمة التى تعرضت لها اللغة السريانية فى خلال القرنين الرابع والخامس بعد الميلاد : ظهور لغات أخرى فى ميدان الحديث والكتابة ، وانتشار اللحن بين الناطقين ، والخوف من أن يمتد هذا اللحن إلى نصوص الكتاب المقدس .

هذه هى مظاهر الأزمة التى مرت بها اللغة السريانية فى القرنين الرابع والخامس الميلادي ، واللغة العربية بعد اتساع الفتوح . ولقد كان من نتائج هذه الأزمة عند السريان أن فكروا فى وضع ضوابط لشكل كتابهم المقدس ؛ ولم تكن هذه الضوابط سوى طريقة النقط التى استعملها أبو الأسود الدؤلى فى ضبط شكل القرآن . من هذا نرى أن المقدمات متشابهة والظروف متشابهة ، والنتائج متشابهة ، وكلا العملين قد حدث فى بيئة واحدة ؛ أليس من العناد إذن أن نقول إن أبا الأسود الدؤلى لم يستمد طريقة نقط الشكل من السريانيين الذين سبقوه بنفس العمل ؟

بقى علينا أن نوضح كيف اتصل أبو الأسود باللغة السريانية وبعلمائها ؛ والأمر فى ذلك سهل ؛ إذ أن صلته بالعلماء ليس من السهل أن يشك فيها ؛ فقد كانوا الطبقة المستنيرة المثقفة فى بيئة العراق ، وكانوا فوق ذلك يمارسون نشاطاً فى هذه البيئة لا يجارى من ناحية الدرس ، والتفكير ، ولا ينبغى مطلقاً لعالم ديني لغوى ، وحاكم إدارى كأبى الأسود أن يجهل وجود

هذه الطبقة ؛ فهو لابد وأن يكون قد اتصل بها ، وخالطها ، وتحدث إليها وتعرف على كثير مما تهتم به من المسائل العلمية ؛ وإذا كان الأمر كذلك فليس هناك ما يستلزم أن يكون أبو الأسود قد تعلم اللغة السريانية لكي يأخذ منهج شكل النصوص الدينية عن أصحابها ؛ فمن الممكن جداً أن يأخذه عن طريق الترجمة ، سواء من العرب الذين يعرفون السريانية ، أم من السريانيين الذين يعرفون العربية . على أننا نظن بل نرجح أن أبا الأسود كان يعرف اللغة السريانية معرفة تمكنه من التفاهم بها ، وقراءة بعض نصوصها إلى حد ما ؛ وذلك لإقامته الطويلة في بيئة العراق ، واهتمامه الشديد بالأبحاث اللغوية والدينية أثناء إقامته في تلك البيئة ، وهي تكاد تكون بيئة سريانية في أول عهد اتصال العرب بها ، ولما ورد في الآثار من أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه قد حثوا على تعلم اللغات الأجنبية ، وأولاها في ذلك الوقت ، بالنسبة للمهتمين بالبحث ، والمعرفة ، والتفكير ، هي اللغة السريانية .

ومما يشهد بذلك ما عرف من أن علي بن أبي طالب كان ينطق في أحاديثه أحياناً بألفاظ أجنبية ، مثل كلمة « قالون » باللغة اليونانية .[1]

---

[1] انظر فقه اللغة للثعالبي ص ٤٥٥ القسم الأول ؛ ويلاحظ هنا أن الثعالبي ذكر أن هذه الكلمة رومية ، وهو من قبيل الخلط عند القدماء في تسمية ما تأتي بالرومي .

ومثل هذا ، وإن كان قد استعمل على سبيل التبسيط أو الفكاهة من الإمام على كرم الله وجهه ، إلا أنه كان بمثابة الدعوة الصريحة لتعلم اللغات الأجنبية ؛ ونحن نعلم مبلغ ما تحدثه إشارة الرئيس أو كلمته من أثر في المجتمع ؛ فقد تكون كلمة تلقى ، أشد تأثيراً وأسرع سرياناً فى الشعب من كتاب يؤلف أو قانون يوضع .

ولعل القارىء لا يجد صعوبة فى فهم الصلة بين طريقة النقط التى وضعها أبو الأسود لشكل النص القرآنى ، وبين النحو العربى ؛ إذ أنها كانت بمثابة الخطوة الأولى التى يشار حولها كلام فى الموضوع ، وفى المنصوب ، وفى المجرور ، وفى الساكن . وحكاية أبى الأسود مع زياد ابن أبيه ، وطلبه كاتباً لقناً يكتب ما يملى عليه ، وشرحه لطريقة الشكل الذى يريده ؛ كل ذلك مبين واضح فى المصادر القديمة مثل الفهرست لابن النديم [1] وإنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطى [2] ولا يزال لدينا حتى الآن أثر قديم يشرح لنا هذه الطريقة عملياً ولا يدع مجالاً للشك فى تطبيق طريقة أبى الأسود ؛ ذلك هو مصحف قد وجد فى مسجد عمرو بن العاص فى القاهرة ولعله أقدم مصحف مخطوط فى العالم ، قد شكل بنفس الطريقة التى شرحها أبو الأسود لكاتبه ؛ ومن حسن الحظ أن عثر على هذا المصحف ولا يزال

(1) الفهرست ص ٦٠

(2) إنباه الرواه على أنباه النحاه ص٥ ج١ طبعة دار الكتب المصرية بمنة وجود